

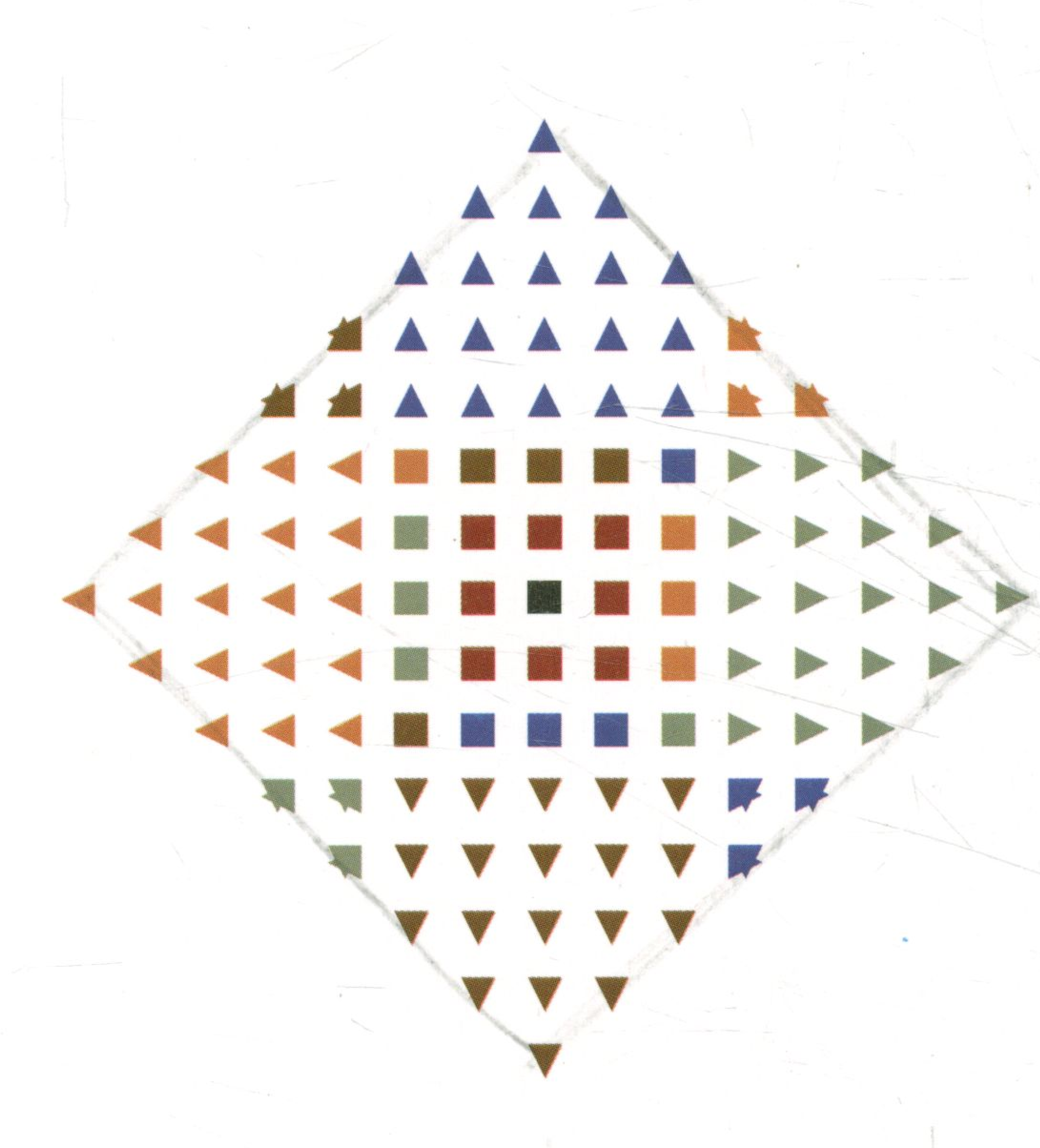


علي حرب

جائزة المتوسط للكتاب 2009

تواطؤ الأضداد

الآلهة الجُدد وخَراب العالَم



تواطؤ الأضداد

الآلهة الجُدد وخَراب العالَم

تواطؤ الأضداد

الآلهة الجُدد وخَراب العالَم

تأليف

علي حرب





بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: 1429 هـ - 2008 م

الطبعة الثانية: 1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-377-0

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

فهرس المحتويات

تصدير
الخراب الذي نصنع

مقدمة
التقى والتواضع

القسم الأول
الإنسان إلى أين؟

القسم الثاني

الجرثومة الاصطفائية للديانات التوحيدية

القسم الثالث

قضية العيش معاً

القسم الرابع

قضايا معاصرة وراهنة

القسم الخامس

عولمة الصراعات لبنان ساحة ونموذجاً

القسم السادس

مصادر القوة ووجوهها

خاتمة

التداول والتحول

تصدير

الخراب الذي نصنع

التحويلات الخلاّقة والخارقة

يضجّ العالم اليوم بالأزمات والإضطرابات وأعمال العنف المتفاقم، إقتتالاً أو إرهاباً، خاصة في المنطقة العربية التي تمزقها الصراعات السياسية والفتن الطائفية.

إنه تواطؤ الأضداد على صناعة الخراب الذي يتباكى الآن على أنقاضه من أسهموا في إنتاجه، بعقولهم الملغمة ومسلماتهم العمياء وتوجّهاتهم المقلوبة...

وهذه هي، بنوع خاص، الحال لدى دعاة ومثقفين ومنظّرين وإعلاميين، كانوا يفزعون من عمل النقد والتشريح بقدر ما يقبلون الأحداث والدعوات والذوات كما تقدم نفسها ببداهاتها الخادعة ووجوهها المقنّعة ومناطقها المعتمة أو معطياتها الملغمة، وبقدر ما يعادون محاولات الفهم والتشخيص للمتغيرات والمشكلات. وهكذا فقد حوّلوا القضايا الى أفكار ميتة وبرامج فاشلة او الى متاهج عقيمة وقاصرة، بقدر ما وقعوا أسرى او ضحايا لأفخاخ الهوية الموتورة أو لأقانيم العقيدة المقدسة أو لأساطير الحقيقة المطلقة والأجوبة النهائية. والنتيجة هي الحجب والوهم والتمويه او الشعوذة والمصادرة، وكل ما أدّى الى نفي العالم المعاش والى تفويض كل ما ادعوا الدفاع عنه، أي الى حيث ترتد عليهم أعمالهم، وتنتقم الوقائع من أفكارهم.

وهذه هي، بنوع خاص، حصيلة الدعوات والمشاريع، الأصولية والامبراطورية، من جانب الآلهة والأنبياء الجدد، الذين يحتلون المشهد، بخطاباتهم النرجسية وتمويهاتهم الإصطفائية وتشبيحاتهم العقائدية وتصنيفاتهم العنصرية وسيناريوهاتهم الجهنمية، وسواها من العُملات الفكرية التي تؤجّج الصراعات الرمزية والمادية، حول الاسماء والنصوص او حول الثروات والسلطات، وبصورة تخلق حالة طوارئ عالمية دائمة، بقدر ما تستدرج الكل الى الانخراط في حرب اهلية

كونـــية يـــتحول معها إسم الله الى بعبع وجلّاد، وتجري تصفية الشعارات الحديثة المرفوعة منذ عقود، بقدر ما تنتهك كل الحدود والحقوق والحرمات.

كلّ ذلك يحمل على إجراء تحويلات، مفهومية بنيوية، خلاّقة وخارقة، لإعادة بـــناء العـــناوين بصورة تطال جغرافية المعنى ببداهاته ومسبقاته، كما تطال العدة الفكرية بمطلقاتها وثوابتها، فذلك بيت الداء بآفاته المتعددة (1) المركزية البشرية التي تدمـــر البيئة والطبيعة؛ (2) النرجسية الثقافية التي تلغم صيغ العيش بين الجماعات؛ (3) النظـــرة الأحادية التي تختزل الواقع بغناه وتعقيداته والتباساته الى بعد واحد او وحـــيد العنـــصر والقطب او المرجع والرأي؛ (4) عبادة الاصول والتمترس وراء النـــصوص للانقـــلاب على القضايا والتعلق بالاشياء حتى أضدادها؛ (5) حراسة المقـــولات بتحويلها الى قوالب متحجرة او الى أنساق مغلقة تخنق الحيوية الفكرية وتشلّ الطاقة على التحول الإيجابي والعمل البنّاء، وكلها عوائق وأعطال تولّد الجهل والعجز والإقصاء، بقدر ما تخلف المساوئ والمخاطر والكوارث.

مـــن هنا يحتاج تدبر الشأن البشري والكوكبي، الى استراتيجية فكرية جديدة في إدارة الهـــويات والقـــضايا والدول والعلاقات بين البشر تتشكل معها فضاءات ومـــساحات عقلـــية ومفهومـــية جديدة ومغايرة بتوجّهاتها وأولوياتها ومفرداتها وتـــراكيبها. وفي هذا الكتاب محاولة لقراءة المجريات، تشخيصاً ومعالجة، بأدوات الفكـــر التركيبـــي والمنطق التحويلي والعقل التداولي، في ما يتناوله من مشكلات الـــساعة والأحداث الساخنة، على وقع التحولات التي تعيد تشكيل العالم بمفاهيمه ومحركاته وكتله وأدواته واللاعبين على مسرحه بمحاورهم وحروبهم وتواطئهم...

مقدمة

التقى والتواضع

مصنع الإمكان

لغة الحدث

هذا كتاب يتناول قضايا الساعة، بقدر ما يضم سلسلة من المحاضرات ألقيت في ندوات فكرية، أو مجموعة من المقالات هي قراءات في مجريات الأحداث العالمية.

والقضايا التي يدور عليها عديدة، من حوار المذاهب إلى حروب الطوائف، ومن الحريات الفردية إلى قضية العيش معاً، ومن حرب تموز في لبنان إلى المعركة الكلامية حول أقوال البابا بشأن الإسلام، وهو يدور، أخيراً بل أولاً، حول أسئلة القيم والمصائر كما حول أزمة العالم المعاصر.

هذه القضايا لا تعالج بعقل بارد ولا بغرض أكاديمي بحثي. فأنا ما كتبت يوما بهذا الطريقة ولا لهذا الغرض. ما كتبته كان بمعظمه تأليفاً حراً لا يلتزم بقواعد المنهج الصارمة أو بقوالب النسق الضيقة، بقدر ما يتصل اتصالاً وثيقاً وحياً بالأحداث الجارية والمعايشات الوجودية، أو بالتجارب المريرة والمحن الشخصية، كما هي حالنا مع مشكلاتنا وأزماتنا أو مع حروبنا وكوارثنا.

ولذا ما ألفته كان أقرب إلى القراءة منه إلى البحث عن الحقيقة[1]. وأنا أستخدم القراءة بمعناها الأوسع، بما هي قراءة للنصوص والأحداث، وخاصة بمعناها الأحدث، كاستراتيجية متعددة الرؤوس أو متداخلة المستويات، بقدر ما يتشابك فيها التفسير والتأويل، وبقدر ما يفضي التحليل والتفكيك إلى التركيب وإعادة البناء، على سبيل الخرق والعبور، أو بمنطق الخلق والتحويل.

ولا يعني ذلك التساهل، في ما يخص حقل عملي، أي مقتضى الصناعة الفلسفية المفهومية. ذلك أن المفهوم الخارق هو قراءة فعالة لما يحدث، بقدر ما هو

(1) راجع كتابي، هكذا أقرأ، ما بعد التفكيك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005.

اعتراف بقوة الحقائق. ولذا فمن يفكر على وقع الأحداث، إنما يمارس حيويته لكي يكون على مستوى الحدث، فيشارك في صنعه بلغته، بقدر ما يراهن على ما يمكن أن يحدث. بهذا المعنى إن المفهوم القوي يغدو حدثاً فكرياً بقدر ما ينفتح على ممكناته، تماماً كما أن الحدث الفريد يغدو لغة مفهومية بقدر ما ينفتح على احتمالاته.

ولذا من التبسيط والضيق او العسف اختزال العمل الفكري الى مجرد اطروحة او نظرية او الى مجرد نظام معرفي وتعليم مدرسي؛ إذ العمل الخارق يتيح لمن يتمرّس بقراءته، قراءة خصبة وفعالة، قدراً من الزحزحة او الإحالة او الخربطة او الزعزعة، في بنية الدلالة ونظام القناعة، او في نمط التفكير وطريقة الاستدلال، او في جغرافية المعنى وخريطة الفهم او نمط العقل، مما يحمل من يشتغل به او عليه الى اعادة بناء ذاته وتشكيل فكره. هذا هو برهان العمل الفلسفي، بل رهانه. إنه مفتاح للفهم ومصنع للإمكان.

قضايا راهنة

بالطبع ثمة إشكاليات ومقولات صيغت أو طرحت، في مؤلفاتي، كما هو شأن نهاية المثقف، أو نقد الحقيقة، أو الفكر الأصولي، أو المنطق التحويلي، أو العقل التداولي، أو الإنسان الأدنى؛ وكما هو شأن ثنائيات المفكر والمناضل، أو الثقافة والحضارة، أو المعنى واللامعنى، أو القراءة والحقيقة... ولكن ذلك لم يكن حصيلة لبحث أكاديمي نظري مجرد، وإنما كان ثمرة تأملات وخبرات تتراكم وتعتمل في أتون التجارب، بقدر ما كان ثمرة الانخراط في المناقشات الدائرة، عربياً وعالمياً، حول القضايا الراهنة التي تستأثر باهتمام الإنسان المعاصر، بصرف النظر عن انتماءاته المختلفة.

فمصطلح "الإنسان الأدنى" هو ثمرة التمرس النقدي تجاه الواقع البشري، كما شرعت فيه منذ ثلاثة عقود، على وقع الحرب التي اندلعت في لبنان بمآسيها وكوارثها وتداعياتها. وفيما كان الأكثرون، ممن يفكرون بعقل إيديولوجي مغلق، يتشبثون بمواقفهم ويتمترسون وراء أفكارهم، لرمي المسؤولية على المعسكر الآخر،

فإن ما كان يحدث ويصدم، جعلني أرتد على ذاتي وفكري، وأخشى على نفسي من نفسي، لأقول بأن ما نتهم به الآخر، إنما يسكننا ويتغذى من منازعنا العنصرية أو الفاشية أو البربرية. من هنا كان القول إننا أقل معنى وقيمة وشأناً مما ندعي، من حيث علاقتنا بالحقيقة والعدالة والحرية أو بالعقل والإيمان والإنسان.

ومصطلح "نهاية المثقف"، هو قراءة في النهايات الفاشلة والمصائر البائسة للمشاريع والشعارات التي حملتها أو طرحتها النخب الثقافية، على اختلاف اتجاهاتها القومية واليسارية والعلمانية... من هنا كان التمييز بين المفكر والمناضل، أو بين المهنة والمهمة، لا لإلغاء دور المثقف، بل سعياً لصنع صورة جديدة أو صوغ دور جديد، تستعاد معه المصداقية والفاعلية.

ومصطلح "الأصولية" استُخدم في تفكيك الآليات الفكرية التي تجمع بين قوى ومذاهب مختلفة أو متعارضة من حيث الأطروحات الأيديولوجية والشعارات السياسية، ولكنها تتفق من حيث المنطق الضمني، كما يتجسد ذلك في عبادة الأصل وخرافة المماهاة وأحادية التفكير ونفي الوقائع واستراتيجية الإقصاء للآخر. من هذا المنطلق كان كلامي، لأول مرة، على أصولي ماركسي أو قومي هو الوجه الآخر للأصولي الإسلامي.

ومصطلح "المنطق التحويلي" كان حصيلة نقدي لثوابت التراث والحداثة معاً، على وقع التغيرات المفاجئة والتحولات الكاسحة التي تجعل أصحاب الدعوات ينقلبون على شعاراتهم وينتهكون قضاياهم، لكي يقيموا مع هوياتهم علاقات متحجرة، فقيرة، بائسة، كاريكاتورية، عدوانية، إرهابية. لأن الممكن، على النحو المجدي والبناء، هو إقامة علاقات مرنة، مفتوحة، متحركة، متحولة، على سبيل الإغناء والتوسيع أو التجديد والتحديث...

وثنائية "النص والحقيقة"، منشؤها التمرس بنقد مفهوم المطابقة وكسر منطق المماهاة، لتبيان الفجوة المزدوجة، أولاً بين منطوق النص وما يمكن أن يعنيه، كما هو مؤدى "نقد النص"، وذلك حيث القول هو دوماً غير ما يعنيه أو أقل أو أكثر؛ ثم بين المفهوم ومرجعه كما هو مؤدى "نقد الحقيقة" وذلك حيث المفهوم القوي والخارق، يشكل واقعة فيما هو يقرأ الوقائع، لكي يسهم في إحداث تغيير في مجرى

الواقع، في جانب من جوانبه، على سبيل الزحزحة للقضايا والمشكلات، أو بخربطة خريطة القوى والعلاقات.

وأخيراً، فإن مصطلح "العقل التداولي"، هو حصيلة القراءة في التحولات التي أحدثـــتها ثـــورة المعلومات والاتصالات، بقدر ما كان محاولة لتبيان المأزق الذي يفـــضي إليه منطق الانفراد والاحتكار أو عقلية الهيمنة والصدام، في عصر الاعتماد المتـــبادل، وهـــو عـــصر تتـــشابك فيه المصالح والمصائر، على نحو يجعل الأضداد المتصارعة، تتواطأ ضد ما تدعو إليه.

ولا مراء أن هناك جانباً آخر لا أغفله، كما أفعل دوماً، وهو أن ما أؤلفه هو أيـــضاً ثمرة مواكبتي للمستجدات الفكرية والطفرات المعرفية، بقدر ما هو حصيلة كـــل ما قرأته من أعمال فكرية، قديمة او حديثة، عربية أو غربية، سيما ما اتصل بالموجات الجديدة للحداثة، أيّاً كانت التسميات.

وليـــست المسألة، هنا أن نقوم بنفي أعمال نخشى منها على عقولنا وثقافتنا، فـــيما هـــي تشكل فتوحات عقلية وامكانات فكرية؛ ولا هي بالطبع أن نتعلق بها كأصنام نظرية أو كأقانيم مقدسة تختم على العقول، كما يتعامل كثير من الحداثيين مع عناوين الحداثة وشعاراتها، لكي يشكلوا الوجه الآخر للدعاة التراثيين، من حيث عبادة الأفكار والعجز عن الخلق والابتكار.

ولكن المسالة هي كيف نقرأ: ثمة من يقرأ لكي يتماهى ويقلد أو لكي يتطابق ويطبق؛ وعندها سوف تكون الحصيلة، هشاشة الفكر، واستعادة الأعمال الفكرية على سبيل الاختزال والتبسيط أو الإفقار.

وهـــناك من يقرأ، بهوىً وشغف، فيجتهد ويبتكر، أو يخلق ويخرق، لكي يغيّر ويؤثر، أو لكي يبني ويركب. بهذا المعنى نحن لا نقبض على واقع، بل نخلق وقائـــع حول العالم، تضاف إلى سجل التجارب والحقائق، وعلى نحو تتغير معه التركيبة الوجودية، بقدر ما تتغير علاقاتنا بالأفكار والذوات والأشياء والأسماء. وهـــذا هو محك الجدة والجدارة والمشروعية: أن يترك الفاعل أثره وسط المشهد أو يغير في مجرى اللعبة على صعيد من الصعد، سواء في حقل عمله، أو في بيئته ومجـــتمعه، أو على المستوى العالمي. وهكذا، فالقضية هي أن نحسن استثمار ما

نقـــرأه، على سبيل التصنيع والتحويل، في أتون التجارب التي ننخرط فيها، أو عبر المشاريع التي نفكر في إنجازها، وبصورة تفضي إلى إحداث تطوير أو تجديد العدة الفكرية، بجانب من جوانبها، في الوجهة والرؤية، أو في المنطق والمفهوم، أو في النموذج والمنهج...

الموجة النقدية الجديدة

وهـــذا هو المهم في الموجة النقدية الجديدة: ليس التسميات والأطروحات أو الإعلانـــات والبيانات، وإنما الإمكانات التي تفتحها للفهم والتشخيص أو لإعادة البناء والتركيب. والأهم أنها تسهم في بناء قناعة قوامها التواضع الوجودي والتقى الفكري، في ما يخص علاقة الواحد بما يتصوره ويدعيه، أو بما يعتقده ويطرحه، أو بما يقرأه ويتلقاه ويتداوله.

ومؤدى هذا الموقف أن نمارس الحيطة والتنبه والحذر تجاه ما يحدث، وخاصة تجـــاه ما نصنع، كي لا نمارس التمويه والخداع والتلاعب، أو نكون ضحية ذلك. ومـــن هذا شأنه لا يُؤخذ بالأشياء كما تعطى له، ولا يطمئن إلى الخطابات في ما تطـــرحه، ولا يـــصدق الدعوات في ما تدعيه أو تعد به، سيما من جانب الزعماء التاريخيين والقادة الملهمين والأبطال الأسطوريين...

والتمرس بالتواضع والتقى، على هذا المعنى يحملنا، بنوع أخص على أن لا نثق بالإنـــسان، كما يفهم واقعه أو يعرّف بنفسه أو كما يعلن عن مقاصده. والعلة في ذلك أن اللغة مخاتلة والنصوص مبطنة والمعاني متعددة والمفاهيم ملتبسة والنظريات مخـــرومة، بقدر ما هي الأحداث ملتبسة والحقائق مزدوجة والقيم هشة والهويات متـــرددة متوتـــرة، وخاصة لأن الإرادة ملغمة والعقول مفخخة، حتى وإن اتصلت بقيم الحق والخير والعدل والتحرر والتقدم... والأحرى القول هي كذلك من جراء هـــذا الاتـــصال الذي يجعل الدعوات والمشاريع، تنسج، بوعي أو بغير وعي، من مفـــردات الأحادية والاحتكار والوصاية والمصادرة والهيمنة والإلغاء، كما يتجلى ذلـــك بـــشكل خاص على يد الآلهة والأنبياء الجدد، الذين يجتمعون على خراب العالم، محافظين وثوريين، أو إسلاميين وإنجيليين.

هذه هي القضية: أن لا نموّه المشكلات أو نهرب من مواجهتها، لأن مشكلة الإنسان هي مع نفسه بالدرجة الأولى. وهذا هو معنى النقد الوجودي، بما هو محاولة لفهم ما نحن عليه، أي لما نطمسه ونحجبه، أو لما نجهله ونتناساه، أو لما نتورط فيه ونتواطأ ضده، أو لما نولده من المفارقات والتناقضات، أو لما نرتكبه من الفضائح أو نحصده من الكوارث. ولهذا فقدر الإنسان أن يواجه دوماً نفسه، لمحاربة الطاغية أو المفسد أو المخرب أو العنصري أو البربري، على سبيل التمرس بالنقد، لكسر إرادة التأله والتحكم والهيمنة والإلغاء أو الاستئصال.

على هذا النحو أقرأ، بعيني النقدية التفكيكية، علاقتي بمفردات وجودي، بحيث أرى الوجه الآخر، أو الجانب المستبعد، أو الطور المنسي، أو المستوى التحتي، أو البعد غير المرئي، أحياناً من فرط الوضوح، لما يقدم نفسه على أنه طبيعي أو بديهي أو خالص أو محض أو أحادي أو متعالٍ أو معقول أو مشروع... أي أرى إليه على خلاف ذلك أو على الضد من ذلك...

فالتحليل قد يكشف أن ما نحسبه من طبائع الأمور هو نتاج ثقافي مصنوع؛ وما نظنه بداهة قد يكون مجرد معتقد أو فرض لا برهان عليه؛ وما نخاله معقولاً قد يتكشف عن أغرب أنواع اللامعقول؛ وما نعده مشروعاً قد يخفي إرادة التسلط والاستبداد؛ وما نعتقده أحادياً قد يبدو عند تفكيكه محل ازدواج ونزاع بين عناصره وقواه؛ وما يبدو منطقياً قد يكون ثمرة المهارة أو القدرة على حجب التناقضات وطمس المتعارضات؛ كذلك ما نحسبه شراً قد يكون نابعاً بالذات من مفهومنا للخير؛ كما أن ما نعتبره بربرية قد يكون حصاداً لمنظومتنا الثقافية ونماذجنا الإنسانية ومشاريعنا الحضارية.

وكل ذلك يعني بأننا أبعد ما يكون عما ندعيه من امتلاك القبض والتيقن أو التحكم، سواء في ما يتعلق بذواتنا وخطاباتنا، أو بأشيائنا وأدواتنا. من هنا فما ندعي رفضه أو نشن الحرب عليه، قد يخترقنا ويصنع صورتنا من حيث لا نحتسب، كما هي علاقة الأضداد والأنداد.

هذا شأن من يدعي امتلاك الحقيقة، إنه لا يمارس سوى الحجب والإقصاء. وبالعكس، هذه حال من يدعي تفكيك إرادة الحقيقة أو نظامها؛ إنه يخفي بالذات

إرادة القبض عليها، كما هي حال نيتشه الذي يدهشنا بتفكيكاته الخارقة والمرعبة لنظام الحقيقة، ولكن لكي يقع في فخها، بقدر ما تصرف بوصفه معلم الحقيقة أو حارسها، وكما هي حال الفلاسفة عموماً.

وهـــذا أيضاً شأن من يمارس التقديس لمطلق من المطلقات، فهو لا يحسن ســـوى انتهاكه على أرض الواقع البشري المنسوج من الأهواء والمطامع أو من الوساوس والهواجس. هذه هي بنوع خاص حال من يقدس الحرية، لكي يستبد بهـــا أو يقـــع ضحيتها، كما يشهد على أنفسهم عشاقها من منظّرين وحالمين وطوباويين.

كـــذلك هـــذه حال من يعتقد أنه يعشق الله أو يتحد به، أو يعبده ويسبح بحمـــده، أو يتلقى وحيه ويبلغ رسالته، أو يقاتل لإقامة حكمه على الأرض، فمآل اعتقاده أن يحل محل الله، أو يتخذه أداة لهواه، أو يحيله إلى بعبع أو جلاد، كما هي تباعاً حال النماذج التي يجسدها الصوفي أو النبي أو الإرهابي.

ولعـــل هـــذه حال من يحارب، في هذا الزمن الكوكبي. إنه لا يحسن سوى الارتـــداد على أهدافه وطعن مبادئه لكي يقع في ورطته أو ينتج أزمته[1]. من هنا كان القول يستحيل النصر في هذا العصر، بمعنى أن الحروب تفضي الى هزيمة جميع المنخرطين في الصراع، بقدر ما تولّد دماراً متبادلاً. وبالعكس، فقد يفضي الصراع الى نصر مشترك، بقدر ما يقود المتحاربين للتخلي عن منطق العداء لاعتماد منطق التسويات.

ومـــن المفارقـــات أن ما أريق من دماء، وما حدث من خراب، في حروب الأسماء والرموز والأفكار والهويات، حول ما هو قدسي وإلهي ومتعال وعظيم، أو حـــول مـــا يتصل بالحقيقة والعقيدة والعدالة والحرية والتقدم، إنما صنعه أصحاب الدعـــوات والمشاريع، بشعاراتهم الدينية القديمة أو بعناوينهم الأيديولوجية الحديثة، ولم يكن صنيعة المعطلة والزنادقة، ولا من انتهاك المارقين والخارجين، ولا حتى من ارتكاب المافيات العاصية، كما تطلق التسميات من جانب الأنظمة والدول وعلى القوى المصنفة تحت خانة الشرعية. فيا لفضيحة أفكارنا ومشاريعنا.

---

(1) راجع أدناه: النصر الخادع والمستحيل.

هـذا ما شهدت به الحروب الدينية والحروب العالمية؛ وهذا ما تشهد به الآن حروب الأصوليات والامبراطوريات على الساحة الكونية. بكلام آخر: ما حصدته البشرية من عنف ودمار وبربرية، كان من جانب نماذج الإنسان العقائدي اللاهوتي والناسوتي أو العلماني والحداثي، وكل من يستعدي الآخر أو يحاربه لأجل رأيه أو معتقده، أكثر مما كان من جانب النماذج التي يجسدها الإنسان الدهري أو الدنيوي أو الأرضـي، وخاصـة نمـوذج الإنسان الريبـي أو المرجئي، الذي يخشى البت والقطع في معاني الأشياء وقيمها، بقدر ما يعتبر أقواله مجرد وجهة نظر أو تأويل أو قـراءة في الوقائع والتجارب والأحداث أو النصوص. وهذا شأن كل من يتصف بالتقوى، على المستوى الوجودي، فلا يمارس احتكار المشروعية، ولا يدعي امتلاك الحقـيقة، ولا يـسعى إلى بناء أنظمة استبدادية أو شمولية، لإقامة ما هو محال على الأرض، مـن فـراديس يحلم بها مجانين الله وعشاق الحرية والمهووسون بالنماذج الكاملة والحلول القصوى أو النهائية. فالذين يتعاطون مع الديموقراطية كفردوس أو الـذين حلمـوا بتطبيق الحاكمية الإلهية، فقد حولوا الديموقراطية إلى استبداد، أو انتهكوا كل الحقوق والحرمات. ومؤدّى القول هنا أن المشكلات والأزمات تجري معالجـتها أو تـركب حلولها بعدة فكرية جديدة من مفرداتها: النسبية، الشراكة، التسوية.

البعد المتعدد

في أي حال، إن ما تشهده المجتمعات البشرية، في واقعها الكوني الراهن، من الـثورات والـتحولات أو من الانهيارات والاخفاقات، إن في العناوين الحضارية والمطالـب الوجـودية، أو في الروايات الكبيرة والشعارات العريضة، يكشف عن مـأزق الأفكـار، بقدر ما يحملنا على إعادة النظر في مفهومنا لدورها على غير مستوى:

1 - الأول علـى مستوى الهوية، بمعنى أن العالم يسير على نحو متسارع، مما يجعل النظـريات والمعارف التي تنتجها الجامعات ومعاهد البحث متأخرة أو قاصرة، أو تـؤول إلى استنفادها قبل أن تستثمر وتؤتي أكلها. هذا ما يحصل الآن: إن المـتغيرات والـتحولات المجتمعية تفاجىء العاملين في ميادين العلوم الانسانية

والمجتمعـــية، بجهلهم بالمجتمع وحركته، أو بالواقع وتعقيداته. من هنا ننتقل من صـــعيد إلى صـــعيد، في عمل الرصد والدرس، بحيث لا يقتصر التحليل على الواقـــع المجتمعـــي في حراكه وتحولاته، وإنما يتناول أيضاً العلوم والمعارف في تحولاتها وطفراتها المتواصلة. بهذا المعنى فالفكرة الخصبة هي صيرورة مفهومها، بقـــدر ما هي علاقتها المتغيرة بالواقع المتحول، أكانت نظرية علمية أم عقيدة دينية، تعلقت بالتنمية أم بالديموقراطية.

2 – الـــثاني على مستوى المنطق، بمعنى أن الخطابات المتصلة بإنتاج المعارف حول الواقع، ليست مجرد أجهزة برهانية أو آلات منطقية أو براهين قاطعة، وإنما هي نـــصوص مفـــتوحة علـــى التفـــسير والتأويل كعملات رمزية، بقدر ما هي ديناميكـــيات فكرية تتجسد في نمط وجود أو في أسلوب عيش أو في هندسة اجتماعـــية تتـــيح حـــياة ناجحة أو كريمة أو مريحة، أو على الأقل، أقل عبئاً ووطـــأةً. وهذا هو محك أي فكرة أو نظرية أو مفهوم. ولذا لا تجدر المبالغة في التـــنظير وبـــناء النماذج والانساق، كي لا يختنق المفهوم بمنطقه الداخلي أو بتماسكه الشكلي.

3 – الثالث على مستوى البنية، بمعنى أنه إذا كان الواقع يتحول، فالمعارف المنتجة حـــوله لا تقبض عليه، وإنما تسهم في تحويله، بقدرما تشكل هي نفسها وقائع تتـــرك أثرها في المشهد على مستوى من المستويات. من هنا فالافكار الفعالة لـيـــست قـــوالب محضة، بقدر ما هي شبكات من العلاقات، تسهم في تحويل الواقع، فيما هي نفسها تصبح موضوعاً للتحويل بصورة من الصور، لدى من يـــتداولها، في هذا الحقل أو في ذلك القطاع. ولذا، فمصداقية الفكرة الخصبة والخارقـــة، هو رهانها، أي قدرتها على فتح إمكان للتبادل والتفاعل والتحول والتجاوز، ولكن على سبيل اعادة التركيب والبناء، بلغة التحويل الخلاق.

4 – الـــرابع على مستوى الفاعلية، بمعنى أن الأفكار ليست مجرد نظريات أو نماذج تحتاج إلى من يحسن احتذاءها وتطبيقها, وإنما هي امكانات للتداول تحتاج إلى من يحسن صرفها وتحويلها في أعمال الاصلاح والتحديث أو الإنماء والبناء، في حقول المجتمع وقطاعاته المنتجة والفاعلة.

ولذا ليس التغيير، أيا كان شكله وصعيده، شأن نخب تفكر وتقرر، عن بقية الناس التي يراد لها أن تتلقى وتنفذ، وإنما هو صناعة مشتركة يسهم فيها الفاعلون الاجتماعيون، كل في موقعه وانطلاقاً من حقل عمله، بحيث تأتي الحلول ثمرة المداولات على جميع المستويات، بعقل تركيبي يستطيع صاحبه أن يؤلف على نحو مثمر وفعال، بين الأنماط والأشكال والطرز، بقدر ما يرى إلى البعد المتعدد للواقع بتعقيد تضاريسه وتقاطع خطوطه وتفاعل عناصره، أو بتداخل جوانبه وتناظر أركانه وتراكب مستوياته.

ازدواجية النشأة

والفكر التركيبي، بما هو كسر لأحادية التفكير وخرق لوحدانية الذات والقطب أو المرجع، لمصلحة البعد المتعدد، إنما منشؤه ازدواجية الأصل والبداية، في ما يخص كل بنية أو ظاهرة أو سيرورة، سواء تعلق الأمر بالذرة أم بالمجرة، بالطبيعة أم بالانسان، بالخلية أم بالمجتمع.

وهذا بالذات ما تعبر عنه الثنائيات المشهورة في فهم النشأة الأولى، إن في الفكر الديني والأسطوري أو في الفكر الفلسفي والعلمي، كما تشهد أزواج المتعارضات مثل الموجب والسالب، أو التماسك والتخلخل، أو الجذب والطرد، أو الصهر والانفجار، أو النور والظلمة، أو الله والشيطان، أو الروحاني والجسماني، أو الثقافة والطبيعة...

والوضع البشري يقدم المثال البارز والشاهد الحي على أن الوجود ينسج من الازدواج والالتباس والتعارض، كما يتجسم ذلك في حركة التردد والتقلب بين الاقطاب والمتعارضات: الرغبة والقدرة، العقل والوهم، العلامة والدلالة، المبدأ والغاية، المعنى والقوى، الفرد والمجتمع، الواقع والمثال، الواقعي والافتراضي كما هي الثنائية المتداولة اليوم.

نحن إزاء انشطار أصلي أو انشقاق وجودي يخترق كيان الواحد منا، لكي يشكل مصدر المفارقات والالتباسات والألغاز، بقدر ما يجعل المآلات والنهايات بخلاف أو بعكس الادعاءات والبيانات. وإذا كانت الازدواجية، بما هي فجوة

وانشقاق، مصدر قلق وتوتر أو تفاوت وتعارض أو انتهاك وتورط، فإنها تشكل في الوقت نفسه فرجة ومساحة، أي منبع الامكان الذي يتيح للانسان التدخل والخرق أو التوسط والتدبر، بقدر ما تمكنه من صنع نفسه وبناء عالمه على سبيل التجاوز والتركيب.

مثل هذه الرؤية للنشأة تفتح إمكانات خصبة للنظر والعمل، بقدر ما تسهم في خلخلة العديد من الادعاءات والأوهام والأساطير، في ما يخص العلاقات بالفكر والحقيقة أو بالهوية والحرية أو بالإرادة والقدرة، وذلك من غير وجه:

ا - الوجه الأول هو وهم الثبات، لأن الازدواجية، بما هي تعارض وتوتر، هي مصدر الحركة والتغير، بقدر ما تشكل المحرك والنابض أو الحافز، في ما يخص سير العالم بكائناته وصعده وظاهراته. ولولاها لعم السكون والخواء، ولانتفى معنى النشوء والتكوين.

ب - الوجه الثاني هو خرافة اليقين على سبيل التطابق المطلق، فما دام هناك فجوة وانشقاق أو تعارض وتنازع بين العناصر والأقطاب، ثمة استحالة في إنتاج معرفة مطابقة بالأشياء، لأن كل محاولة للتثبت من هوية عنصر أو بعد تتم على حساب آخر، وكل سعي لانتاج معرفة بقوة من القوى تتم على حساب المعرفة بقوة أخرى، كما تشهد العلاقات بين السرعة والموقع، أو بين المكان والزمان، أو بين قوى المجتمع المختلفة، الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية. مما يعني أن الممكن هو إنتاج معارف نسبية تبقى قيد البحث والدرس والتغير، بقدر ما يعني أننا، فيما ننتجه من معارف، لا نكتنه ماهية الكائن، وإنما نخلق وقائع تحيل الواقع إلى إمكان وطاقة.

ج - الوجه الثالث يتمثل في أسطورة الصفاء؛ ذلك أن الفجوة الوجودية، بما هي ازدواج والتباس، تعني بأنه لا هوية صافية تتساوى مع نفسها من غير أداة أو توسط. فهوية المرء هي بنية مركبة وملتبسة، بقدر ما هي سوية مفتوحة على تعدد البعد والوجه والمستوى. هذا عند من يأخذ بازدواجية الأصل ويقر بأنه محل تنازع بين ميوله وقواه وأطواره، لكي يحسن سوس نفسه وتدبر أزمته. من غير ذلك يقع الواحد فريسة أهوائه من حيث لا يحتسب ولا يعقل.

د - الـوجه الرابع يتمثل في سراب الفردوس؛ ذلك أن الانشقاق أو الانشطار، بما هو نقص أو استلاب أو تفاوت، يعني استحالة الوصول إلى حلول قصوى أو نهائـية في مـا يخص مساعي الإنسان ومشاريعه. فأقصى ما يمكن بلوغه هو المـساومات والتـسويات والمصالحات، بفكر تركيبـي ونهج وسطي وعقل تداولي ومنطق تحويلي.

مـن غير ذلك نمارس الحجب والنفي أو التهويم والتشبيح، لكي نحصد المزيد من الخسائر والكوارث، على ما يفكر ويعمل الذين يتعاملون مع القضايا والعناوين بعقل أحادي، قدسي، اصطفائي، نخبوي، عنصري، فاشي؛ أو نتعلق بالأشياء حتى أضـدادها، بقدر ما نتواطأ مع أضدادنا على تقويض ما ندعو إليه من القيم والمثل، كمـا يـشهد صراع القوى المتناحرة على الساحة الكونية، أمبراطورية وأصولية، إسلامية وغربية، عربية وأميركية.

الإنسان الكوكبي

هـذا هو الرهان اليوم، وسط العنف المتصاعد والفائق، على نحو يكاد يعيدنا إلى نقطة الصفر، لكي يطيح بمنجزات الحضارة والمدنية: التفكير والعمل على ابتكار أو اجتراح معادلات وأطر ونظم وقواعد ووسائل تتيح تحويل المتعدد والمختلف أو المـتعارض والمتنازع، أي ما هو معطى طبيعي، إلى صيغ للتحاور والتعايش أو إلى مجـالات للتبادل والتفاعل، فكيف ونحن ندخل اليوم في عصر جديد يتشكل معه واقـع كوني، بقدر ما يبرز فاعل بشري جديد يفكر ويعمل على المستوى العالمي، بتعدد دوائره وأطره وصعده.

هـذا الـبعد العالمي لم يغب عن عملي، بل هو هم من همومي الفكرية، إما بـسبب الشاغل الفلسفي، وإما لأنه معطى جديد يحتاج إلى النظر والتأمل أو إلى التفكر والتدبر[1].

ومـن هـنا لا أؤثـر، عادة، أن أقدم نفسي، تحت خانة قومية أو دينية، كمفكـر عـربي أو إسلامي، همّي تجديد النهضة العربية، أو مناهضة المشروع

---

(1) راجع أدناه: العالمية الكوكبية.

الثقافي الغربي، كما يفكر كثيرون يحشرون أنفسهم في الدوائر الأناسية الخانقة، العرقية أو الدينية.

وإنما أتصرف بوصفي امرءاً يقيم في هذا العالم، الذي أخذ يضيق لكي يقترب بعضه من بعض، بحكم تصدع الحواجز المادية والرمزية بين البشر، فأتأثر بأحداثه واقرأ مجرياته وأحاول سبر إمكاناته المفتوحة، بأدوات حقلي من شبكات الفهم وصيغ العقلنة أو قواعد المداولة. بهذا المعنى، ليست العولمة، كما أكرر القول كارثة ولا هي فردوس، وإنما هي إمكاناتها المفتوحة، عند من يحسن التعامل معها، بمنطق الخلق والتحول والاستثمار النافع أو البناء[1].

هذا ما يجعلني، مثلاً، أكتب عن الاضطراب الفرنسي كما اهتم بالعجز العربي، أو انتقد الأصولية الإسلامية كما انتقد الأصولية الإنجيلية؛ وأفزع من ارتفاع حرارة الأرض كما اشمئز من أكوام النفايات في بيئتي؛ هذا أيضاً ما يجعلني أستعيد التراث العربي كما أفيد من منجزات الفكر الغربي؛ وأخيراً فالعالمية تحملني، بشكل خاص، على أن أتناول قضايا الفكر العربي، لكي أطرح أسئلة الفكر عامة، بطابعه الوجودي، وعلى النحو الذي يخاطب كل عقل أو يستأثر باهتمام الإنسان بصرف النظر عن انتماءاته وجنسيته.

وتلك هي الكوسموبوليتية كما أفهمها وأمارسها، بدءاً من نقد مفهوم الإنسان، اللاهوتي والمتعالي، وصولاً إلى صيغة "العقل التداولي". بهذا المعنى أحاول قراءة مفهوم المواطن العالمي، عبر مفهوم "الإنسان الأدنى"، وذلك حيث الفاعل البشري يفكر ويعمل ككائن أرضي، دنيوي، كوكبي، عبر قيم التواضع الوجودي والتقى الفكري، أو عبر قواعد التسوية والشراكة. فإن أحوج ما نحتاج إليه، لتدبر ما نغرق فيه أو نتردى إليه من عنف وبربرية، هو التخفيف من مركزيتنا ونرجسيتنا وادعاءاتنا المثالية والمتعالية، بنزع عباءة القداسة والألوهة والعصمة، أو بالكف عن ممارسة الوحدانية والوصاية واحتكار المعنى، في ما يخص الشأن العمومي أو

---

(1) هذا ما جعلني أقول، في مكان آخر أنا أخشى على ماليزيا، التي استثمرت فتوحات العولمة لبناء نموذجها التنموي، من المفكرين العرب الذين استقدموا للتدريس في جامعاتها. بالطبع ليس كل المفكرين، وإنما المقصود بهم الذين يتعاملون مع العولمة كبعبع أو كشر محض أو كعاصفة ترمينا في المهب.

الكوكبي، تحت هذا الشعار أو ذاك، سواء من جانب المنظمات الدينية العائدة على سبيل الإرهاب، أو من جانب القوى العظمى واستراتيجياتها الإمبريالية.

إن المجتمعات المعاصرة لا تعاني اليوم من نقص في القيم المتعالية والمبادئ الروحانية[1]؛ لا تعاني من غياب الله وبقية المقدسات التي تتعلق بالهوية والتراث والأرض والوطن، والتي تكاد تحول الحياة إلى أفخاخ وكمائن. بالعكس: لقد أتخمت البشرية، تأليهاً وتقديساً وتنزيهاً واصطفاء، وسوى ذلك من العملات العقائدية التي هي مصدر مصائبنا وكوارثنا. والرهان أن نفكر بطريقة مغايرة لمعالجة أزماتنا. فما نظنه الحل هو العلة والمشكلة. من هنا الحاجة، في المعالجة والمقاربة، إلى عدة فكرية جديدة، بمفاهيمها وحقولها وطرقها واستراتيجيتها، تشكل المقالات والفصول المجموعة في هذا الكتاب، نماذج من التمرس بها على وقع الأحداث بمفاجآتها وإرباكاتها واحتمالاتها، كما في مصهر التجارب بمعاناتها ومكابداتها وممكناتها.

علي حرب

بيروت، نيسان 2007

(1) على ما يعتقد الدعاة الجدد للتعالي والروحانية، من العلمانيين، وأبرزهم الفيلسوف الفرنسي لوك فرّي. قد تكون أوروبا المساحة الثقافية الوحيدة التي تعاني من نقص في هذا الخصوص. ولأنها كذلك فهي الأقل ميلاً لممارسة العنف. من هنا فإن الكتلة الاوروبية التي تتحول بالتدريج الى مساحة تداولية، بدولها ومجتمعاتها، تملك مصداقية اكثر من غيرها من الكتل، في مواجهة منطق الانفراد، الذي تمارسه بشكل خاص الولايات المتحدة بمشروعها الامبراطوري، لبناء علاقات بين الدول تقوم على التعددية، ليست التعددية القطبية التي كانت سائدة في حقبة الصراع الاميركي السوفياتي، بل التعددية التي تمارس بمنطق الحوار والشراكة والمبادلة. أما حيث تسود الأصوليات، خاصةً الجهادية الاسلامية والانجيلية البروتستانتية، فإن العنف يتصاعد بازدياد الطلب على المعنى الديني. وهكذا، إننا نشهد اليوم تخمة في المتعاليات الروحانية، مع عودة الدين بآلهته وأنبيائه الجدد من كهنة فقهاء، ولكن لنقض المعنى وتدميره، بالأفعال والممارسات، كما هي مصائر السياسات والبرامج الدينية، حيث الثوابت المقدسة تتحول الى ذرائع لكي تنتهك على أرض الحوادث والطوارئ، وحيث ترسانة المتعاليات والروحانيات والمحرّمات تتحول الى آلات لتحقيق الأهواء والنزوات. بذلك يصبح الله طوع أمر عبيده الذين يسخرون ما يخترعونه من الصور والمفاهيم لما يشاؤون.

القسم الأول

الإنسان إلى أين؟

أسئلة القيم والمصائر(*)

I - سؤال القيم

القيمة هي مصدر المشروعية ومرجعية المعنى، إذ هي تشكل الحافز والملهم او الموجّه والناظم او النموذج والمعيار، في ما يخص مساعي المرء ومشاريعه ومجمل نشاطاته وأعماله، كما هو شأن الحقيقة والعدالة او الخير والصلاح او الكمال والتقدم او الكرامة والحرية... ولذا لا تستقيم حياة للمرء من دون قيم يتعلّق بها. لا بناء ولا قيام إلا بسُلّم للقيم البديل عنه هو الفوضى او العبث او الهمجية.

والقيم ليست، اليوم، على ما يرام. والشواهد ناطقة، كما تشير الكتابات والدراسات حول العدمية[1] والبربرية، او المؤلفات التي تحدثنا حديث النهايات، نهاية التاريخ او العالم او الجغرافيا او العمل أو المؤلف... فضلاً عن نهاية المثقف الذي يقدّم نفسه كحارس للقيم.

من هنا باتت القيم موضع تساؤل، كما يوحي بذلك سؤالها: القيم الى أين؟[2] بل هذا ما توحي به أسئلة المصائر عامة: المجتمع الى أين؟ الانسان الى أين؟ والأحرى أن نسأل: الارض الى أين؟

(*) ورقة قدمت في ندوة "التحوّلات المجتمعية وجدلية الثقافة والقيم"، وقد عقدت في الدوحة، ما بين 20 و24 كانون الثاني 2007، بدعوة من المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث في دولة قطر.

(1) أشير بذلك الى أنّ المجلة الفرنسية (Le Magazine Littéraire)، بمجموعاتها الصادرة خارج السلسلة العادية، العدد 10 تشرين الاول/تشرين الثاني 2006، قد كرّست هذا العدد الخاص لدرس مسألة "العدمية" بمختلف محاولاتها ونسخها، من الفيلسوف الاغريقي ديوجين الاغريقي قديماً، الى الروائي هولبك الفرنسي حالياً، مروراً بأبرز الاعلام والاسماء الذين وصموا بالعدمية او تطرقوا لمسألتها.

(2) أشير بذلك الى الكتاب الصادر تحت هذا العنوان: القيم الى أين؟ وقد صدر بنسخته العربية، عن دار النهار، بيروت، 2005؛ وكان قد صدر بطبعته الاولى، الاصلية، بالفرنسية، عن منظمة الاونيسكو، بإشراف جيروم بنديه، ومشاركة مجموعة من ألمع المفكّرين، علماء وفلاسفة وكتّاباً، في مختلف المجالات والاختصاصات.

هــذه أسئلة كبيرة يطرحها الانسان على نفسه اليوم. ومبعث التساؤل أن ما تعيــشت علــيه البشرية، حتى الآن، من منظومات القيم يكاد يتصدع تحت وقع الانفجــارات والثورات، وفي ضوء الصدمات والتحولات، الجذرية والمتسارعة او الكاسحة والمتلاحقة، على مختلف المستويات الحضارية والتقنية او الثقافية والمعرفية او الــسياسية والاجتماعية. فما يحدث ويتشكل او يتداعى ويسقط يشهد على أن المــآلات هي بعكس الادعاءات، بقدر ما يعني انهيار اليقينيات وابتلاع المثاليات، الامــر الذي يخلق وعياً حاداً بوجود أزمة تطال أشكال المشروعية الخلقية بقدر ما تشمل مختلف مناحي الحياة.

مــن هــنا تتشكل الآن شبكات مفهومية جديدة كما تنعقد ثنائيات جديدة تخــربط مــبادئ التصنيف ومعايير التقييم والتقدير، لكي تضع على مشرحة النقد والتشريح ما كان سائداً من المفاهيم والنماذج والمعايير في النظر والعمل.

ففــي المجتمعات التقليدية ذات العالم المغلق والفكر الأحادي والخط المستقيم والمنطق المحافظ، كان هناك نموذج واحد غالب يقولب الحياة والعقول، يرثه الابناء عن الآباء، جيلاً بعد جيل، مع تغيرات طفيفة وغير مرئية.

مع انبجاس العالم الحديث، بمركزيته البشرية وذواته الفردية وعقلانيته النقدية وثوراته التحررية، تغيرت مرجعيات المعنى وعناوين الوجود وقيم الاشياء والاعمال، بقــدر ما تغيرت أساليب الانتاج وأنماط العيش ومنظومات التواصل. ومن مظاهر هذا التغير الانتقال من الثنائيات القديمة: كالخير والشر او الايمان والكفر او العدل والظلــم او الكمــال والــنقص، الى ثنائيات جديدة: كالتقدم والتخلف او الخلق والتطور أو الديموقراطية والاستبداد او الرأسمالية والاشتراكية أو الدين والعلمانية...

والآن فيما نتعدى الحداثة بعناوينها ونماذجها، نحو طفرات وموجات جديدة تحــت مــسميات مــا بعد الحداثة او ما فوق الحداثة او الحداثة الفائقة، تنخرط المجتمعات البشرية في واقع كوني مختلف، من حيث زمنه المتسارع ومعطياته السيالة وحــدوده المائعة وهوياته المتغيرة، الامر الذي يحدث الارباك او القلق او التصدع، لجهــة العلاقة بالاصول الثابتة والقيم الراسخة. من هنا ثنائيات جديدة مثل المحلي والكوني او الواقعي والافتراضي او الاحادية والشراكة او الليبرالية والحماية...

والأزمة حادة ومضاعفة في المجتمعات العربية، ذلك أن النموذج التقليدي قد انكـــسر وتصدّع بالرغم من ارادة المحافظة على الخصوصية والدعوة المتواصلة الى تعزيز ثوابت الامة. حتى اكثر الناس اصوليةً ومحافظةً هم في النهاية ابناء هذا العصر من حيث همومه ومشكلاته وادواته.

ولا عجـــب. فلا يمكن أن تتغير اسباب الحياة وطرق المعاش وانظمة التواصل وآلـــيات العمل وتقنيات الانتاج، وسوى ذلك من البنى التحتية والقواعد المادية، دون أن يحـــدث، على الاقل، اهتزاز في البنى الفوقية والمنظومات الرمزية والقواعد الخلقية. من هنا باتت المحافظة خادعة، بل مستحيلة.

ولكـــن انكسار النموذج التقليدي الأحادي في البلدان العربية، لم يفضِ الى ابـــتكار نماذج جديدة، ولا الى اكتساب القيم والفضائل الحديثة، على ما جرى في المجـــتمعات الغربية، وعلى نحوٍ يؤدي الى المشاركة الغنية والفعّالة في صناعة الحياة الحديـــثة والمعاصرة، وإنما الذي حصل أن الفرد العربي بات، على الصعيد الخُلُقي والفكري، معلقاً او مشطوراً او ممزقاً بين القديم والحديث، او بين المؤمن والمواطن او بـــين التقلـــيد والتمرد... فلا هو محافظ ولا هو حديث، لا هو رجعي ولا هو تقدمي، لا هو متخلّف ولا هو متقدم[1]...

وإذا كانـــت القيم هي في أزمة، فالازمة هي بنيوية وشاملة؛ هي بنيوية، لأنها لا تقتـــصر على الادوات والوسائل، وإنما تمس المبادئ والمقاصد، كما تتمثل في العناوين الوجـــودية والمطالب الحضارية، سواء ما تعلق بالله والدين والايمان، او بالعقل والتقدم والانسان. وهي شاملة لأنها تطال مختلف المجتمعات وبالاخص القوتين المتناحرتين على الساحة الكونية، ولكن المتواطئتين على تهديد السلام العالمي وتخريب العمران البشري:

---

(1) المُلاحظ أن معظم المجتمعات العربية لم تستطعِ تركيب صيَغ وابتكار نماذج ناجحة في قراءة المعطـيات وادارة التغيـرات واستثمار الثروات المادية والرمزية، فعاشت حداثة متعثّرة او فاشلة بقدر ما أعادت انتاج التقاليد بصورة عقيمة او رديئة. بل إن بعض المجتمعات العربية تجد نفسها اليوم تنتقل من المجتمع الزراعي الى المجتمع الالكتروني، دون المرور بالمجتمع الصناعي الحديث، بمعنى أنها تواجه عصر المعلومة بفقه اللاهوت وعقلية الحقل، الامر الذي يعقد المشكلة ويفاقم الأزمة، عند مَن لا يُحسن حرق المراحل بإتقان لغة المعلومة والانخراط في عصر الحداثة الفائقة.

1 - كتلة الدين بأمراضه وآفاته[1]، كما تتجسم في اصولياته المختلفة التي تعمل بمفردات التعصب والتطرف والارهاب والاستئصال الرمزي او المادي؛

2 - كتلة الحداثة بعيوبها وأعطالها ومآزقها كما تتجسم في تآكل الثقة بالمؤسسات السياسية والاطر الديموقراطية وفي عجز الانظمة الليبرالية او النماذج الحضارية السائدة عن مواجهة التحديات والازمات المتراكمة في القضايا الامنية والبيئية والصحية والاجتماعية[2]، المتعلقة بمحاربة الفقر والفساد والاستبداد والعنف والتلوث، وهي آفات آخذة في الازدياد والتفاقم. من هنا تتشكل ثنائيات جديدة تضع الفرد بين خيارين أحلاهما مرّ: التلوث او التنمية، الامن او الحرية، الامبراطورية او الاصولية...

II - مفارقة التقدم

ومن المفارقات أن ازمة القيم تترافق مع التقدم الهائل والتطور المذهل في العلوم والتقنيات، بتداعياتها المضرة والخطيرة بل المفزعة، على الانسان والحياة والارض، من جوانب عديدة:

أولاً: من جهة التكنولوجيا النووية التي نامت قضيتها لفترة، ثم يفتح ملفها الآن، مع التجربة الكورية والبرنامج الايراني، على النحو الذي يقض مضاجع الذين اخترعوا واحتكروا هذا السلاح المنتج للدمار الشامل، والذي يخرج عن الآن السيطرة بعد ان اصبح سلعة تباع وتشرى. واي خطر اعظم على الانسان وقيمه

---

(1) راجع في هذا الخصوص كتابي، الانسان الادنى، امراض الدين واعطال الحداثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005.

(2) لو عدنا الى الاضطرابات المتلاحقة التي شهدتها فرنسا في العام الفائت، نجد شاهداً على استنفاد النموذج الفرنسي طاقته، بقدر ما هي شاهد على عجز الديموقراطية التقليدية والتمثيلية عن استيعاب الحراك الاجتماعي والدينامية السياسية. وهذا بيار روزانفالون، أحد ألمع الاساتذة في فرنسا، ومؤسس "جمهورية الافكار" على ساحتها، يرى بأن أهم معضلات العصر هي "تآكل الثقة" بالقادة والمؤسسات السياسية. راجع نص الحوار الذي أجراه معه جيل انكتل وفرانسوا أرمان تحت عنوان: السياسة في عصر فقدان الثقة، مجلة (Le nouvel Observateur) العدد 2188، 18/12 تشرين الاول 2006.

من سلاح يترك نفايات سامة لا يُمحى أثرها ولو دُفنت في باطن الارض، أو يمحو أثر الحياة ومعالم الحضارة من على سطح هذا الكوكب؟

ثانياً من جهة التقنيات البيولوجية التي تتيح، عبر فك رموز الابجدية الوراثية (الجينوم)، التلاعب بخارطة الانواع الحية، ومن بينها الانسان، كما تتيح لهذا الاخير استخدام وسائل في الاخصاب والحمل والانجاب والولادة تزعزع مفاهيمَ وأحكاماً وتقاليد راسخة، حول الخلق والنسب والبنوّة، منذ آلاف السنين[1].

ثالثاً، يضاف الى ذلك التطور الصناعي الذي أسهم اصلاً في نقل البشرية الى اقتصاد السوق ومجتمع الاستهلاك، على نحو أحدث تغييراً في معايير الانتاج والتسويق. لم تعد الاشياء تنتج لتلبي الحاجات، بل لكي تستثير ما لا يمكن سده من الاحتياجات؛ ولم تعد تصنع لكي تكون مفيدة، او صحية او متينة... بل تصنع لكي تشتغل عجلة الانتاج وتسير الدورة الاقتصادية، تداولاً للسلع ومراكمة للارباح. ولذلك آثاره المخربة[2] على البيئة والموارد والحياة: تلوثاً وتصحراً او نضوباً وانقراضاً، فضلاً عن التزايد المخيف في ارتفاع حرارة الارض. وتلك هي ثمرة تأليه السوق وعبادة السلعة والتكالب على الاستهلاك.

هذا التطور المذهل في النشاط الصناعي، بمواده ونفاياته، بحقوله وقطاعاته، بهندسته وترسانته وتسارع وتائره، إنما ينقل البشرية الى طور جديد، وذلك حيث المساوئ والمخاطر والكوارث، لم يعد مصدرها انتقام الآلهة او ثورة الطبيعة، بل

---

(1) الاستنساخ والحاضنات الاصطناعية، او استئجار ارحام الغير، او استبضاع من لا ينجب بذرة سواه، وسوى ذلك من الوقائع والتجارب التي تثير الفزع عما يمكن للانسان اليوم أن تصنعه به علومه وأدواته.

ولنتأمل ما ينجم عن المعارف البيولوجية: بوسع الانسان اليوم، فحص الجنين في احشاء امه، لكي يكشف عن المرض الذي لا براء منه، والذي يمكن ان يصاب به صاحبه وهو في الخامسة والثلاثين من عمره. فمن يملك المسؤولية عن مثل هذه المعرفة، كما تثار القضية اليوم من قبل الجمعيات التي تهتم بالعلاقة بين الشأن الخلقي وحرية البحث العلمي؟

(2) إذ هو يولد ظاهرات وآفات هي الى تزايد وتفاقم، سواء ما تعلق منها بتلويث الاجواء والانهار والبحار، او بتصحر الغابات، او بارتفاع حرارة الارض، او بنضوب الموارد وانقراض انواع من الحيوان... والمفزع في الامر، ان البشرية تبدو عاجزة عن اتخاذ اجراءات لوقف التدهور في هذا المجال، اذ لا مجال للعودة الى الوراء، في ما يخص معدلات الانتاج والتكالب على الاستهلاك.

تـنجم بالدرجة الاولى عن النشاط البشري نفسه، كما يبيّن أولريش بك في كتابه "مجتمع المخاطرة"[1]، أو كما يبيّن جان بيار دو بوي في كتابه "نحو عقلنة الكوارث"[2].

رابعاً من جهة الانفجار في ثورة المعلومات والاتصالات التي تحولت معها البشرية من طور حضاري الى آخر. فامتلاك تقنيات فائقة تبث وتعمل بسرعة الفكر والضوء، قد أسهم في تغيير قيم الاعمال والاشياء، مع نشوء الواقع الافتراضي والمجتمع الاعلامي والانتاج الالكتروني...

ففي مجتمع الاعلام، تتراجع قيم الفكرة والحجة والحقيقة لصالح قيم اخرى كالعرض والاداء والمسرحة والطقس والحدوثة[3]، فضلاً عن الصورة الطاغية على المشهد. ومع اقتصاد المعرفة تتغلب الخدمة على المنتج[4] نفسه، بقدر ما يتغلب الانتاج الناعم على الانتاج الثقيل ورأسُ المال المالي على رؤوس الاموال الصناعية والزراعية، تمهيداً لازدهار التجارة الالكترونية..

ولهذا التحول الحضاري آثاره البليغة على الثقافة وعلى الهويات. فالثقافة تشهد موجات جديدة في مختلف حقول الفن والادب والفكر، تتغير معها مبادئ التصنيف والتقييم، بقدر ما تتغير أنماط الانتاج وأساليبه وحساسياته ووسائل تداوله وانتشاره. ذلك أنه مع انفجار وسائل الاعلام وفيض الطلب على العرض، أصبح

---

(1) راجع الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب (La Société du Risque)، منشورات فلاماريون، باريس، 2001؛ ومن المصادفات أن أولريش بك ما ان انتهى من تأليف كتابه، حتى حدثت كارثة تشرنوبيل، كما يتضح من المقدمة، الامر الذي يعزز مقولته حول "مجتمع المخاطرة". أليس هذا ما يحصل الآن في جنوبي لبنان، حيث الناس يعيشون في قلب المخاطرة، بعد حرب تموز وما خلفته من القنابل العنقودية والنفايات السامة؟

(2) راجع جان بيار دو بوي، نحو معالجة مستنيرة للكوارث، منشورات سوي، باريس 2002.

(3) ثمة من يكتب ليقول بأن سرد القصص والتواريخ والحكايات بات اليوم في الولايات المتحدة، أنجح وسيلة للتأثير في الناخبين والمستخدمين والمستهلكين؛ راجع بهذا الخصوص، مقالة كريستيان سلمون، ماكينة لفبركة الحكايات، مجلة "لوموند ديبلوماتيك"، عدد تشرين الثاني 2006.

(4) راجع بصدد غلبة الخدمة على المنتج، الحوار الذي اجراه جان غبريال فريديه، مع برنار شارليس وجان هرفيه لورانزي، في مجلة "لو نوفيل اوبسرفاتور"، عدد 2181، 30/24 آب 2006.

من السهل الى درجة الاستسهال، أن نكتب وننشر، وعلى نحوٍ تضيع معه المقاييس. ثمة اعمال روائية او شعرية او فلسفية، تنال اعلى درجات الثناء والتقدير من جانب نقاد، فيما آخرون لا يرون فيها سوى موجات تنشر السطحية والتفاهة والابتذال. إنـــه مجتمع الصورة والمشهد يخربط المعايير والمقاييس، ويصدم عقول الذين نشأوا وتـــربوا على الاعمال الكلاسيكية لدى الآباء المؤسسين بألقابهم الفخمة وأسمائهم الكبيرة. ولذا، فهم يشعرون بالغربة او اليُتم إزاء ما ينتج ويصعد الآن من نجوم الفن والغناء والادب...

وبالطـــبع فالدخـــول في المجتمع الاعلامي والعصر الكوكبي المعولم، أسهم في فقدان الامن الثقافي والرمزي الذي كانت تتمتع به الهويات الثقافية، بسبب تصدّع الحواجز بين الدول والمجتمعات، واجتياح الرموز والصور والافكار وأنماط العيش، للـــنفوس والعقـــول المطئـــنة الى عقائدها وتقاليدها، او الواثقة بحداثتها وتقدمها. فالمـــوجات الجديدة، والاختراعات الفائقة، والتحولات الصاعقة، والبثّ المتواصل علـــى مدار الساعة، والتغيّر الدائم في المعطيات...، كل ذلك يولد حالة من الحيرة والارتباك وعدم الاستقرار، بقدر ما يجعل من المتعذّر السيطرة على قوانين التغير أو التحكّم بنظام الاشياء. وتلك هي مفاعيل "الحداثة السيالة" كما يسميها زيغمونت بـــومان[1]. معها يشعر المرء بأنه مقصرٌ وفي تأخر دائم على ما يستجد، مهما بذل وجـــدد، بقـــدر مـــا تفقد الهويات حصونها الرمزية وأمكنتها المسيّجة ومناطقها الحميمة.

خلاصـــة ذلـــك، أنه مع القنبلة النووية والهندسة الوراثية والثورة المعلوماتية تفاقمـــت المـــشكلات وازدادت المساوئ والمخاطر، بقدر ما أصبح البشر يمتلكون أجهـــزة وأنظمة ذات فاعلية قصوى تفلت من سيطرتهم، لكي ترتدّ عليهم ضرراً ووبـــالاً. وهكـــذا بـــات الإنسان يستهلك، اليوم، اكثر بكثير، ولكنه عاجز عن تـــصريف نفاياتـــه؛ كما بات يمتلك أجهزةً هي الأسرع والاكثر فاعلية منْ حيث

---

(1) بالنسبة الى مقولة "الحداثة السيالة"، راجع الحوار الذي اجراه مع زيغمونت بومن كزافييه دي لافـــيغا، في مجلة "العلوم الانسانية"، العدد 165، تشرين الثاني 2005؛ بالنسبة لنهاية المكان راجـــع مقالـــته، حروب الاعتراف على التخوم الكونية، مجلة اسبري (Esprit) عدد كانون الاول 2002.

مـــردوديتها. ولكن امكانات التدمير والهلاك أمست أضعافاً مضاعفة. صحيح أنه يعـــرف أكثـــر وأكثر، ولكنه صار يمتلك قدرات على الفعل والتأثير تفوق بكثير قدراته على التوقّع والتقدير.

III - العودة المرعبة

ولا ننـــسى اخيراً الداء الاعظم من ادواء البشرية: العنف. فهو لم يتراجع مع الـــتطور الحـــضاري والتقني والعلمي. ما حصل هو العكس: فالأمن المتدهور على الـــساحة العالمية يشهد بأن العنف يزداد ويتصاعد كمّاً ونوعاً، على ما افتتح القرن الـــواحد والعـــشرون، وكما تفاجئنا المنظمات الارهابية، بأعمالها الهمجية في غير عاصـــمة وفي غير مكان. وتلك هي حصيلة منطق الانفراد والاحتكار والمصادرة والهيمـــنة والـــصراع، مـــع الخـــصم حتى كسر العظم، على الثروات والخيرات والسلطات.

واذا كان العنف الذي هو قدر البشر، يجسد غريزة العدوان أو منطق التفاضل او ارادة التـــسلط او عقلـــية الاقـــصاء والاستئصال، فإن ابطاله اليوم، من نجوم الارهـــاب، إنمـــا يفيدون من انتشار وتعميم وسائل الاعلام لكي يوظفوا شبكات الاتـــصال واتساع حركة انتقال الاشخاص بين المجتمعات. وهكذا يتحول العنف، العابـــر للحدود، الى ظاهرة معولمة، لكي يُدخل البشرية في نوع من الحرب الاهلية الكونية، الامر الذي يجعل الدعوات الدينية والفلسفية الى السلام مجرّد هباء منثور، إزاء الصدام الثقافي والعماء الايديولوجي والتطهير العرقي والاستئصال الارهابي.

ثمة من يعترض بأنه في مواجهة العدمية، ثمة عودة للدين على المسرح بأقوى ما يكـــون، على يد الاصوليات المختلفة الجهادية او الانجيلية، من جانب الاسلاميين الجدد او المحافظين الجدد، وكلاهما يتحدث بإسم الله، سواء في دعواته وبرامجه او في حروبه وانتصاراته. ومن المعلوم أن الدين هو في أعلى السلم من منظومات القيم.

ولكـــن لا ينبغي أن تخدعنا هذه العودة. صحيح أن الدين تأسّس على عنف رمزي إلهي أو قدسي، وكان يُمارس كحد او رادع، أي كتُقى او تحريم او تسليم. ولكنه يُمارس اليوم عنفاً فاحشاً بانتهاك كل الحرمات والحدود والقيم، كما تشهد

حــروب الآلهــة والنصوص بجنوها وفظائعها. يكفي أن يشاهد مؤمن متدين تقي انــساناً يــذبح مــن على الشاشة بإسم الدين، حتى تنهار ثقته بالاديان، كمرجع للمعنى.

نعــم لقــد عاد الدين، ولكن لكي يمارس ذروة العدمية او الهمجية، بقدر ما يــتأله دعاته وحماته، لكي يصبحوا عبيداً لنــزواقم واهوائهم واحلامهم المجنونة او خططهم الجهنمية... لقد امسينا آلهة، ولذا فقدنا السيادة على أنفسنا وعلى عالمنا، بما تعنيه السيادة من سيطرة على الذات، بالتزام المواثيق والعهود او بمراعاة القواعد والقــوانين. ولو تأملنا الحالة الاسلامية، في هذا الخصوص، نجد بأنّ الفتوى تكاد تُدمّــر التقوى التي هي رأس الفضائل الاسلامية، بقدر ما تُفضي الى إشعال الفتن الأهلية وتمزيق المجتمعات العربية. من هنا نتجاوز الآن الصراع او المفاضلة بين قيم الاســلام ومنطق الحداثة، او بين عقل عربي وعقل غربي، لأن المشكلة هي أننا لا نحسن سوى الاساءة الى القيم قديمها وحديثها.

تلــك هــي اعــراض الازمة الراهنة، فيما البشرية تنخرط في واقعها المعولم والكــوكبي، بــتحولاته وانفجاراتــه، بصراعاته وصداماته، بإخفاقاته وانهياراته، بفتوحاته وآفاقه:

1 – **فقــدان الــثقة**، واليقين بمعناه المعرفي، مع الدخول في العصر الرقمي والزمن الآني، للإقامــة في **عــالم دائم التحول**، يبدو فيه كل شيء راهناً أو مؤقتاً أو عابراً، بقدر ما تُستنفد البرامج والمناهج والوسائل قبل أن تؤتي ثمارها وتصل الى غاياتها.

2 – **فقدان البوصلة مع انهيار مرجعيات المعنى** بعناوينها الكبيرة التي تعين الوجهة او تفتح الافق في ما يخص أطر النظر وقواعد العمل.

3 – **فقــدان الحــصانة** والامن الرمزي مع **الحداثة الفائقة** التي تعمل على تعرية الهويات والخصوصيات بقدر ما تفجّر أطر المكان والزمان.

4 – **فقــدان الامــن** بمعناه المادي مع الدخول في **مجتمع المخاطرة** حيث أسلحة الــدمار الــشامل والــتلاعب بطبائع الكائنات، فضلاً عن تدهور الامن على المسرح الكوني.

5 – **فقـــدان السيادة** من جانب الانسان على نفسه وعلى الاشياء مقابل **طغيان الالـــوهة**، أعـــني عبودية الانسان لنـــزواته وألاعيبه وسلطاته وأسمائه وامواله واشـــيائه.وهكذا أمسى الإنسان أسير مخلوقاته وأنظمته وأدواته، بقدر ما باتت المجـــتمعات المعاصـــرة تنـــتج من الحلول بقدر ما تولّد من المشكلات المعقّدة والمستعصية أو الخطيرة، الأمر الذي يحيل نظام العمل الى ما يشبه حالة طوارئ دائمة، بقدر ما يحيل نظام الحياة الى حقول من الأفخاخ والكمائن[1].

IV – التواضع الوجودي

لا يعـــني ذلك الاستسلام والغرق في الاحباط، تجاه ما يحدث ويتشكل او يتداعى ويسقط. نحن محكومون بالقيمة، بقدر ما نحن مدينون للمعنى الذي هو الـــسقف الرمـــزي والحـــصن الخُلُقي. ولكن مواجهة العدمية، كما تتجلى في البربـــرية المعاصـــرة، بعنفها الاعمى والاصولي، يحتاج الى اعادة النظر في عالم المعاني والقيم، بحيث لا نتعامل معه كأقانيم مقدسة او حقائق مطلقة او جواهر ثابـــتة. بـــل كنـــتاج بـــشري يخضع للتغير والنسخ لكي يكون قابلاً للصرف والتحويل. فالمعنى الذي نفكر فيه او نقصده يفلت باستمرار، بقدر ما يتكشف عـــن لا معـــناه. من هنا الحاجة المتواصلة الى لأمه واجتراحه على سبيل الترميم والتجديد.

ولـــذا لم تعد المسألة تتعلق بالمحافظة على الثوابت التي تتغير بتغير أنماط العلاقة بهـــا وأشكال ترجمتها ومؤسسات تداولها. فالمحافظة مستحيلة، بقدر ما هي عاجزة عـــن مـــواجهة الحرائق والخرائب على ارض المعايشات الوجودية. ولا يعني ذلك الانقطاع او الانسلاخ عن كل ارث او تقليد. فالانقطاع التام خادع، تماماً كما أن المماهـــاة التامة مستحيلة، فضلاً عن كونها تنتج الجمود والفقر والخواء. المتاح هو بـــناء أنظمة مركبة ومتحركة، من الفصل والوصل، تتشكل معها قيم ذات معايير مرنة ووسائط متعددة وآفاق واسعة، تتجدد معها اشكال المصداقية والمشروعية من غير وجه وعلى غير صعيد:

---

(1) راجع كتابي، أزمنة الحداثة الفائقة، المركز الثقافي العربي، 2002، صفحة 201.

1- الاقامة الارضية

الاقتـــناع بأنـــنا كائـــنات ارضـــية تعيش الحياة الدنيوية بحسناها ونجاحاها ومـــباهجها، كمـــا بسيئاها واخفاقاها ولذائذها، فضلاً عن التباساها ومفارقاها وافخاخها.. بهذا المعنى نحن نقيم في اجسادنا ونفكر بأدمغتنا وغرائزنا. وارواحنا او عقولنا لم تهبط علينا من عالم آخر، ولا هي ثمرة قصد متعال او مخطط ذكي، وإنما هي، كما يقول ادغار موران[1]، قدرتنا المستمرة على الخلق والنمو والتجدد، بقدر مـــا هـــي طاقتـــنا على التفكّر والتوسّط والتدبّر، بأدوات الفهم الخارق والتخيّل الخلاّق. فلا نبحثنّ إذن عن الفردوس لكي نحصد شقاء وجحيماً على هذه الارض، كما علمتنا التجارب المريرة. فالاحلام الفردوسية هي مجرد حافز او ملهم من اجل التحسين والتطوير...

2- لغة التسوية

الاقتـــناع بأننا ذوو سوية وجودية منسوجة من ازدواجية الاصل بقدر ما هـــي مـــركبة مـــن تعدد البعد والوجه والمستوى، الامر الذي يجعلنا نتردد بين الاقطاب والمتعارضات: بين الفجور والتقوى او الشر والخير او العنف واللطف أو البـــناء والتدمير... مثل هذه القناعة تحملنا على التخلي عن الوهم الخادع او القاتل بوجود خير اقصى او شر محض، للاقتناع بنسبية معاييرنا واعمالنا، خاصة في هـــذا الـــزمن، حيث المعطيات في تغير متسارع ومتواصل. وما يبدو اليوم معقولاً او نافعاً او فعالاً، قد يفقد غداً مصداقيته وفاعليته. مما يعني العمل على اعادة الخلق والتشكيل والبناء، بصورة دائمة. ولذا فإن اقصى ما يمكن بلوغه هو التسويات والمساومات او المصالحات والاتفاقات، سواء مع الذات ومطامحها او مع الغير ومطامعه.

---

(1) يـــذهب الفيلـــسوف إدغـــار موران الى أن التنظيم المعقد للكائن الحي، لا يولد من "المخطط الذكـــي" الـــذي يقـــول به الدعاة الجدد من الانجيليين، دفاعاً عن نظرية الخلق، في الولايات المـــتحدة؛ وإنمـــا العكـــس هو الواقع، اي ان المخطط هو الذي يولد من التنظيم، بمعنى أن التنظـــيم الذاتـــي للكـــائن الحي هو الذي سمح له بتنمية صفاته ومزاياه وقدراته على الخلق والـــتطور. راجع مقالته في مجلة "عالم الاديان" الصادرة عن جريدة "لوموند" الفرنسية، عدد 19، ايلول/تشرين الاول 2006.

3- عقلية التوسط

والاخذ بالنسبية وجهها الآخر العمل بالوسطية، بمعنى التخلي عن التطرف في المواقف والخيارات؛ اولاً من جهة علاقة المرء بذاته، بحيث يقتنع الواحد بأنه في مساعيه صاحب مشروع تتداخل فيه العناصر والوجوه والاطوار والابعاد ما بين المنفعة والقيمة او المعرفة والسلطة او الثروة والكرامة او الذوق والمنطق او الالتزام والحرية، وعلى نحوٍ يؤمّن التوازن بين مختلف ابعاد الشخصية، بحيث لا يطغى وجه على آخر ولا يلغيَ بعدٌ سواه؛ ثانياً لجهة العلاقة بالآخر، اذ لا قوام لهوية ولا نجاح لأحد في عمل من دون توسط الغير والاعتماد على النظراء والشركاء. بهذا المعنى ليست الوسطية عبارة عن جمع على سبيل التلفيق، بقدر ما هي توليف خلاق لما ينطوي على التعدد والتنوع او الاختلاف والتعقيد.

4- ثقافة التهجين

الاقتناع بأنه لا هويات نقية او اصول صافية كما ندعي ونتوهم، وإنما هوياتنا هي مزيج او خليط او تركيب مما يتراكم ويتراكب او يتداخل ويتشابك او يتغير ويتشكل او يُبنى ويصنع من الوجوه والاطوار او المنابع والروافد او الامداء والمجالات او المصائر والمآلات...

فكيف ونحن نندرج في زمن تتعاظم فيه الهجرات وتتضاعف امكانات التواصل والتبادل بين البشر، بما يؤدي الى تفاعل الثقافات وتلاقح الخصوصيات... وهكذا فالعالم يسير نحو التهجين، بمعناه الايجابي والبناء، بما هو تنوع وتعدد، او تبادل وتفاعل، او تركيب وتوليف. ولذا لا مجال للدعوات الاصولية الاصطفائية التي تولد الاقصاء والاستئصال للغير، او العزلة الخانقة والقوقعة المميتة لذات النفس. فالأجدى والاغنى والاقوى، معرفةً وعملاً، هو العمل على معطيات وجودنا ووقائع حياتنا، بوصفنا ذوي هويات مركبة، متعددة الانتماء بتعدد الدوائر والحقول التي نعمل فيها ونتأثر بها او نؤثر، كما بتعدد الاطر المحلية والاقليمية او العالمية والكونية.

5- منطق التحول

التحرر من الوهم الخادع بأن الاشياء والذوات تبقى على ما هي عليه. ذلك ان المجتمع هو ما يعتمل فيه من الحراك ولو بصورة طفيفة وغير مرئية، تماماً كما أن

الفكــر هو حركة توتره الدائمة بين المبادئ والمقاصد او بين النظريات والآليات او بين الاقوال والممارسات. وهكذا، فالممكن، بل الواقع، هو اننا تتغير عما نحن عليه، بصورة او بأخرى، سلباً او ايجاباً. والذي يرفض أن يتغير يهمّش ويصبح تابعاً للغير او مــادة للتحولات. وبالعكس، فالقادر على الخلق والابتكار هو الذي يحسن ان يــتغير لكي يشارك في ادارة التغيرات. بحسب هذا المنطق التحويلي، ليست هوياتنا فقــط مــا كناه او ما نثبت عليه، وإنما هي ايضاً وخاصة ما ننسجه من علاقات متجددة وخلاقة مع الثوابت، بقدر ما هي قدرتنا على الاجتراح والانجاز.

6- كسر النرجسية

تــشكيل قناعة جديدة في ما يتعلق بمكانة العاملين في حقول الثقافة من ادباء وعلمــاء وفلاســفة ومفكرين وفنانين؛ بحيث ينظر هؤلاء اولاً الى انفسهم بأنهم اصــحاب مهــن، شأنهم شأن العاملين في بقية الحقول، من غير ميزة او مفاضلة؛ وبحــيث يــتعاملون ثانياً مع اعمالهم بوصفها منتجات كبقية المنتجات، من حيث الحاجــة اليها. فالقصيدة والرواية والمنحوتة والنظرية ليست اكثر حيوية من الحقل والمصنع والمتجر ولا من المأكل والملبس والمركب... واذا كان ثمة فكر حيٌّ وخلاق يقــف وراء المنــتجات الثقافية، فذلك ليس حكراً على هذه الاعمال كما يزعم اصحابها. كل عمل، خاصة في عصر المعلومة، يقف وراءه فكر حي ونابض، ما دام الــتفكير هــو ميزة الانسان عامة. لنتمرس إذن بالتواضع بكسر نرجسيتنا، بحيث نكــفّ عن استخدام مفردات العمالقة والعباقرة والجهابذة، ولا نتعامل مع بعضنا بعقلية التقديس والتعظيم.

7- العقلانية المركبة

التحرر من المنازع النرجسية والاصطفائية التي توهم الواحد بأنه يمكن القبض علــى مفاتــيح الحقــيقة او على قوانين الواقع او على نظام العالم او على معاني النــصوص. مثل هذه الادعاءات بالتيقن والقبض والتحكم تكذبها الاخفاقات كما تفــضحها الكــوارث والانهيارات، وعلى ما تتكشف عن ذلك مساعي البشر من حــيث لا يعقلون. وهذا هو معنى نهاية الروايات الكبرى والمشاريع العريضة. لقد ولى زمــن الــنماذج الاحاديــة والابديــة التي تحتكر التفسير والتنظير او التوجيه

والتنظـــيم... فالأحـــرى التفكير والعمل بعقلانية مرنة ومركبة مفتوحة على تغير المعطـــيات، تقـــوم على تعدد الاختصاصات والمقاربات، كما تقوم على تركيب الحلول والمعالجات. إنه زمن التهجين والتحويل والتركيب والتجاوز الدائم.

8- الرابطة الكونية

ممارســـة التواضع الوجودي والتقى الخلقي إزاء بقية المخلوقات، بحيث نخفّف مـــن مركزيتنا البشرية الجائرة او القاتلة. فنحن لسنا أشرف المخلوقات ولا سادة الكون، بل نوع بين بقية الانواع الحيّة، واجبنا المحافظة عليها وعلى الطبيعة. وهذا العـــنوان بات مطلباً ملحاً وسط الخوف المتعاظم من نضوب الموارد وتلوث البيئة والتزايد في انقراض الكائنات الحية.

9- العقل التداولي

خلاصة القول: لا مجال بعد للكلام على حقائق مطلقة وحلول قصوى او قيم نهائـــية، سواء تعلق الامر بالعناوين القديمة ام الحديثة، بالدين والعقلانية أم بالايمان والحـــرية أم بالمحافظـــة والـــثورة... من هنا ليس المهم مضامين المدارس والعقائد والمـــذاهب. لم تعـــد المناقـــشة اي مذهب هو الاصح او اي معتقد هو الاصدق؟ الأهـــم، وســـط هذا الخراب الكوني والتوحش البشري، هو ممارسة التُقى، بما هو اقتـــناع بالشراكة والتوسط والتضامن والرعاية. إن الفكرة الخصبة الفعّالة والقيّمة، هـــي قـــدرتها التداولية، بحيث نعمل عليها لكي نحسن صرفها وتحويلها الى وسط للـــتفاهم وصـــيغة للـــتعايش، او الى مساحة للتبادل واطار للتضامن، او الى حقل للمعرفة ومجال للعمل، او الى نموذج للتنمية وواحة مخضوضرة، او الى مبدأ للحماية وحق للرعاية.

طغيان الألوهة وفقدان السيادة

يـــبدو أن التصريحات والخطابات والمحاضرات التي تنتقل بسرعة الفكر، عبر الأثـــير، تثير إشكالات وتوترات تترجم غضباً وهياجاً أو عنفاً واعتداء، على نحو يهدد بقطع خطوط التواصل وزرع جدران الكره بين الجماعات البشرية، أو داخل البلد الواحد، وربما داخل الطائفة الواحدة.

والمثال على ذلك ما حصل بعد كلام البابا عن الإسلام، وما اثاره من حملات كلامية عنيفة من جانب كثيرين من العلماء والدعاة، وما جر إليه من أعمال شغب ضـــد مؤسسات كنسية من جانب الجمهور وفي الشارع. وهذا ما يجري في لبنان، منذ فترة: فالسجالات الحامية والخطب السياسية النارية، في المهرجانات الحاشدة، تـــولد في المعسكرين المتقابلين، خاصة على مستوى القواعد وفي الأوساط الشعبية، التشنج والاحتقان كي تعمق الشرخ وتسمم أجواء التعايش والتبادل بين اللبنانيين.

كـــأن قـــدر لبنان الطائفي، كلما سنحت فرصة لبروز ديناميكية مجتمعية مدنية، تواصلية، بانتظار من يصوغ لها لغتها ومفاهيمها وتشريعاتها، يجري الالتفاف عليها، من جانب زعماء الطوائف وحراسها، للعودة بالحوار الى نقطة الصفر، وبالبلاد الى الوراء.

مـــن هنا أطلقت الدعوات في لبنان، ومن غير مكان، لعقد "مواثيق شرف" يلتـــزم بهـــا الـــزعماء والقـــادة من ساسة وكهنة، وسائر الذين يتصدرون المنابر وينخـــرطون في السجالات والمناظرات، بحيث يحرصون على التهدئة وعلى انتهاج خـــط الاعـــتدال والتعقل، في التعبير عن وجهات نظرهم في القضايا التي هي مثار اختلاف أو نـــزاع.

والحقيقة أنني منذ سمعت عبارة "ميثاق الشرف"، عند إطلاقها لأول مرة، منذ شـــهور، وجدت نفسي في موقف شبيه بالموقف السقراطي الباعث على التهكّم، لأنهم يطرحون مطلباً لا يستطيعون الوفاء به.

والعلّة في ذلك أن الالتزام بميثاق أو عهد، إنما يبنى على شيء آخر، هو سيادة الشخص البشري على نفسه، وكانت العرب تسميها "المروءة". ومن مفاعيلها أن المرء لا يفعل في السر فعلاً يستحي أن يفعله في العلن.

بهذا المعنى لا مجال الآن للحديث عن السيادة. وما يحصل هو العكس: ما يقرر من وراء الكواليس وفي الغرف المظلمة أو في عتمات العقول، هو نقيض لكل ما يقال أو يعلن، كما علمتنا التجارب في الحرب اللبنانية، بمختلف فصولها ونسخها ومقاوماتها. ومن هنا فإن أول من ينتهك المواثيق والعهود في هذا الزمن، هم واضعوها، الامر الذي يجعل السلام مجرد هدنة بين معركتين أو بين فتنتين. وهذا هو معنى توازن الرعب في الأساس: أن يلتزم الواحد بالاتفاق ما دام يخشى الآخر أو يرهبه، لكن عندما يأنس من نفسه القوة الراجحة ينقض الاتفاق كي ينقضّ على خصمه أو على شريكه.

ومن الشواهد البليغة على أن الانتهاك هو القاعدة، وليس الاستثناء، ما جرى أو يجري بين الدول والقوى الفاعلة على الساحة المحلية او الاقليمية او الدولية من التحالفات والتكتلات. ذلك أنه ما من فريق أو تيار إلا ودعم أو تحالف مع آخرين ادعى أن مشروعه يتناقض مع مشاريعهم وبرامجهم. وبالعكس، ثمة افرقاء يتناقضون أو يتحاربون، فيما هم أقرب إلى بعضهم البعض من حيث المبادئ والمقاصد، بل هم اصحاب قضية واحدة، على ما يتناحر او ينتحر الاسلاميون في العراق، او يقتتل الفلسطينيون في غزة والضفة.

وهكذا بتنا نرى اليوم القومي يدعم الاسلامي في مكان ويعمل على استئصاله في مكان آخر، أو الاسلامي يدعم اليساري في الخارج ويعمل على اقصائه في الداخل، أو الوطني الذي يتحالف مع من لا يؤمن بالأوطان؛ كما نرى الديموقراطي او الاصلاحي في بلده يتحالف مع الاستبدادي او الراديكالي في بلد آخر؛ وهذه حال القومي أو اليساري أو الليبرالي الذي يسير وراء الداعية الاسلامي، كما هي حال المثقف الذي يؤيد أنظمة وقوى لا يطيق العيش لحظة واحدة تحت سلطتها؛ وهذه هي بنوع خاص حال الذي يريد للبنان خيارات ورهانات لا يرضى بها لبلده، ولا تقبل أصلاً في أي بلد من البلدان.

ومعنى ذلك أن المسألة لم تعد تتعلق بمبادئ وأهداف نسعى إلى تحقيقها، بقدر ما هي مسألة سلطات ومواقع نحرص على المحافظة عليها، أو مسألة ثوابت وعقد صرنا أسرى لها، أو اننا اضعنا البوصلة وبتنا نفتقر الى الادوات والوسائل... وهكذا ما عاد الواحد يملك المصداقية والمشروعية في ما يطرحه من شعارات دينية أو دنيوية. هذا شأن من يحارب سياسة أميركا ونظامها كي يدافع عن أنظمة أسوأ، كما هو شأن الذي يدّعي الدفاع عن الأرض والوطن والهوية كي ترتد دفاعاته ضرراً ودماراً على النفس قبل الغير. وهذا شأن من يعشق الحرية كي يمارس الاستبداد، أو من ينادي بالحداثة لانتاج أسوأ التقاليد، أو من يدعو إلى الاستنارة بعقلية عنصرية أو خرافية.

وفقدان المصداقية، في ما يعلن، أساسه فقدان السيادة، بما هي علاقة مع ذات النفس، بتمثلاتها ومعتقداتها أو بأهوائها وسلطاتها، تقوم على التعهد والسوْس أو التعقل والتدبر أو الادارة والضبط، من خلال الالتزام بمبادئ ومعايير يجري احترامها والعمل بموجبها. ولكن السيادة، بهذا المعنى، باتت من الامور النادرة أو الاستثنائية، لدى رجالات الحكم والدولة. لعل آخر مثالاتها المعروفة نلسون مانديلا الذي سلخ قرابة ثلاثة عقود من عمره في السجن، ولما استقل بلده، وتسلم سدة الرئاسة، أبى الاستمرار بعد انتهاء ولايته مع تمسك شعبه به. وكان من أبرز مثالات السيادة كالتزام صارم بالمبادئ، تجاه النفس قبل الغير، الرئيس الفرنسي الراحل شارل ديغول. فهو عندما واجه معارضة واسعة (عام 1968)، طرح مسألة بقائه في الحكم على الاستفتاء الشعبي، وقد صعّب الشروط على نفسه بأن طلب أكثرية الثلثين. ولما لم يحصل إلا على الاكثرية المطلقة، ترك كرسي الرئاسة غير آسف. عندنا في البلاد العربية، يطرح الرئيس الاستمرار في ولايته على الاستفتاء، لأنه يضمن سلفاً أن النتيجة ستكون لمصلحته، بنسبة عالية جداً (99%) لا تعني سوى أن الاستفتاء لا معنى له.

إننا نفتقر اليوم إلى مثل هذه النماذج، إذ بات من النادر أن نعثر على امرئ سيد نفسه. لعل السيادة ولى زمنها. ليس فقط لما أصاب عالم القيم من الانهيار؛ بل أيضاً لأن مفهوم الذات، بما هي اختيار وحرية واستقلالية، قد تصدع تحت وقع

الطفـــرات والـــتحولات المعرفية، في غير مجال، وكلها بيّنت أننا لسنا على قدر ما ندعي من حيث علاقتنا بالوعي والعقل والعلم واليقين، بقدر ما نحن أسرى منازع وبـــنى وآليات وشيفرات وتمويهات تعمل من ورائنا، كي تنتج الانتهاك أو التفاوت أو عدم التلاؤم بين المفهوم والمنطوق، أو بين القول والفعل، أو بين الرغبة والقدرة، أو بين المبدأ والمال...

الأمر الذي يجعلنا لا نثق، كل الثقة، بما يقوله أحدنا عن نفسه، أو يدعونا الى أن لا نحمله على الوجه الذي يقدم به نفسه، إما لأن ما ينطق به يختلف عما يعنيه، أو لأن مـــا يفكر فيه هو غير ما يقرّره، أو لأن ما يصل إليه هو غير ما يقصده، أو لأن ما يريده لا يقدر عليه.

هـــذا ما ينقلنا إلى عامل آخر يسهم في انتهاك السيادة، هو أن قدرة الانسان علـــى القـــبض والتحكم أخذت تتناقص في هذا العصر، بعد ان اخذت المجتمعات البـــشرية تنخـــرط في واقع كوني من سماته التسارع والانفلات والميوعة والتحول الدائم والتعقيد المتزايد، من حيث ايقاعه وزمنه، أو من حيث معطياته ومنتجاته، أو من حيث أنظمته وشبكاته، فضلاً عن حركته وصيرورته. وهذا ما يفسر لنا عجز الانسان عن مواجهة ظاهرات خطيرة تتهدد مستقبل الارض، كالتدهور في تلوث البيـــئة أو الانحباس الحراري، وذلك حيث الاتفاقات الدولية التي تعقد لا تحترم أو توضع في الأدراج.

مـــثل هـــذا الواقع يولد من المشكلات أكثر مما يولد من الحلول. ما من مـــشكلة تجـــد حلها اليوم بصورة نهائية، بل كل مشكلة تعالج كي تبقى معلقة تـــولد النـــزف والهدر أو التورط والتخبط، تماما كما أن الاتفاقات تعقد كي تنتهك باستمرار.

هـــذا هو الواقع اليوم: ما يعرفه الانسان أو يصنعه أو يبنيه أو يدعيه هو دوماً نـــاقص أو مبـــتور أو مشتبه أو ملغوم أو منتهك أو يرتد عليه. الأمر الذي يجعل المشاريع والدعوات الايديولوجية أو السياسية بمثابة أفخاخ وكمائن تطلق عفاريت لا يمكن السيطرة عليها، أو تفتح أبواب جهنم في غير مكان، وكما يحصل في العالم العربي بنوع خاص.

وهكذا بات الانسان أسيراً لأدواته وصنائعه وأنظمته، ينوء بهمومه ومطالبه أو يــرزح تحــت أشباحه وكوابيسه، بقدر ما بات عبداً لأسمائه ونــزواته وسلطاته ومواقعه وأمواله... أي ما يجره إلى كل هذا التأله والتوحش.

ولا غــرابة في الجمــع بين الصفتين: ذلك أن مفهوم السيادة، بما هي سيطرة الــنفس علــى زمامها، أو على الأشياء لحسن استخدامها، يقع على النقيض من مفهــوم الالوهة، كما صاغه اللاهوتيون وعلماء الكلام ورواة الأحاديث القدسية، حيث الله خلق آدم مع علمه بأنه يسفك الدماء ويفسد في الارض، أو أنه ما خلق الخلــق إلا ليعــبدوه. والله، كما يعرّفه الإمام الغزالي، على سبيل المثال، هو مالك الملــك الــذي يتصرف في ملكه كما يشاء، وهو الذي يَسأل ولكنه لا يُسأل عن فعله. نحن هنا إزاء مفهوم للإله ينفتح على معاني الاستبداد واللعب والعبث وانعدام المسؤولية والبربرية.

بالطبع ثمة مفهوم آخر يقع على النقيض من المفهوم السابق، المنفلت من كل قيد أو شرط، نجده لدى الفلاسفة، أو لدى بعض علماء اللاهوت، وفيه لا يوصف الله بكونه مشيئة مطلقة وقدرة كلية، أي كخالق يفعل ما يشاء. وإنما هو أقرب ما يكــون إلى مــبدأ معقول لتفسير البداية والنشأة، هو بمثابة محرك للعالم، أو واجب للوجــود، أو ناظم للأشياء، أو غاية للسعي، أو مهندس وصانع، أو مدبّر ومبرمج يقدر الأشياء حق قدرها...

نحــن هنا إزاء وصفين أو وجهين لعملة بشرية واحدة، هما صيغتان من صيغ الوجــود، أو نمطــان مــن أنماط الفهم، أو شكلان من أشكال السيطرة والادارة والعمــل، ولــذا يتــرجم كل منهما ترجمة مختلفة، إذ كل واحد يتصور الله على شاكلته، وبحسب مفهومه ومعياره.

وإذا كــان المفهــوم الثاني ينفتح على معاني المعقولية والمشروطية أو الحكمة والــتدبير، فــإن الــسائد هو المفهوم الأول الذي يترجم من جانب القوى الدينية المتطرفة، على نحو ينتج الإقصاء والإرهاب أو البربرية.

ولعــل هذا ما يفسر لنا طغيان الهوس الاصطفائي والجنون اللاهوتي والخطاب الاحــادي الاقــصائي والعدواني، بعد صعود الاصوليات التوحيدية على المسرح

الكوني، كي نعاني ونذوق الجحيم قبل اليوم الموعود، على يد الموجات الجديدة من الـــدعاة، مما يعني أن ما نحصده من الخراب، ليس مرده أنّا تركنا تراثنا التوحيدي وشرائعنا الالهية، بل لأننا أصبحنا آلهة بقدر ما فقدنا السيادة على أنفسنا.

الخلاصـــة مـــن ذلـــك، عند من يقرأ التجارب المريرة والانتهاكات الفظيعة للـــشرائع والقـــوانين والمواثيق الدينية والمدنية، هو الاقتناع بأنه ما من شيء يطرح على الأرض يملك قدسيته، تماماً كما أنه ليس كل من طرح شعاراً يملك مصداقيته. بهـــذا المعنى، وفي ما يخص معالجة النـــزاعات والأزمات المستحكمة، يجدر القول: "لا احـــد فوق رأسه خيمة مقدسة" تعصمه من الخطأ، لاننا جميعاً نسهم في المأزق الـــذي نحن فيه، والذي يهرب بعضنا من استحقاقاته برمي التبعية على الغير. وإذا كان الدِّين هو المعاملة، كما قيل قديماً، فالعقل هو المداولة، والقضية هي بالشراكة مع كل من يعنيه الأمر، والحلول تجري بلغة المفاوضة والتسوية، من غير احتكار أو مـــصادرة ومن غير وكالة حصرية أو أحادية، وإلا نحصد ما ندعي محاربته، ونتعلق بالأشـــياء حتى أضدادها، على ما هي علاقتنا بالله والعقل والدين والحداثة والحرية والعدالة والحقيقة.

والعمل بمنطق الحوار والمداولة والشراكة والتسوية يحتاج إلى مراس عقلي من التواضع الوجودي له أربعة وجوه:

- الأول الاعتـــراف المتبادل بكسر وحدانية الذات على نحو يفتح الامكان لقبول الواحد الآخر، بوصفه مختلفاً عنه بالهوية، ولكنه مساو له في الحقوق والكرامة والحرية.
- الثاني هو التقى الفكري الذي يجعل الواحد يقتنع بأنه أقل معنى وشأناً مما يدعي وفي ما يدعو إليه. وهذا شأن كل من يؤمن بدنيويته، وبأنه لا وجود على هذه الارض إلا للنـــسبي والعـــارض، أو للمتعدد والمتنوع، أو للناقص والمتغير، أو للمتحول والمتجدد.
- الـــثالث هـــو التعامل مع المعالجات كتسويات، لا كحلول نهائية أو قصوى. وأســـاس ذلك الاقتناع بأن الهوية، الفردية أو الجمعية، هي مجرد سوية مركبة، مبنية من "ازدواجية الاصل" أو القطب أو المنـــزع، بقدر ما هي منسوجة من

"تعـــدد الـــبعد" او الوجه والمستوى. الامر الذي يفتح امكان التفكير والعمل لانتاج صيغ مركّبة او انظمة متحركة من الفصل والوصل[1].

- الـــرابع هو الوعي النقدي في مواجهة الذات قبل الغير، بما يعنيه النقد من فتح الأبـــواب واجتراح الإمكان، لصوغ أطر وقواعد جديدة تتيح العيش المشترك على نحو سوي، سلمي، تبادلي. وهذا هو الممكن والملحّ الآن، في وقت يتكاثر فـــيه العاملون على زرع الخنادق الرمزية والمادية بين الناس في الداخل أو مع الخـــارج. هذا هو الرهان، ما دام لا انفكاك للواحد عن الآخر: كيف نبتكر لغات ومساحات وقواعد للبناء المشترك.

صحيح أن الجماعات والهويات والتكتلات الثقافية والقومية أو السياسية تُبنى باللُّحمـــة والعصبية، كما تحتاج إلى المدافعة والنُّصرة أو إلى التأييد والتبجيل. لكنها لا تحـــتاج إلى من يتعصب ويُشحَن لاستعداء الآخر، كما لا تحتاج إلى من يبصم ويـــصفق أو يهلـــل بصورة عمياء. انها لا تحتاج الى قادة ملهَمين، او غير ملهمين، يخطـــئون في التقدير، بقدر ما يتفردون بالقرار. والأهم أنها لا تحتاج إلى من يمارس طقـــوس العبادة تجاه الزعماء والأبطال، كي يصنع آلهة يتحولون بدورهم إلى عبيد لألقابهم ومواقفهم وخرافاتهم واخفاقاتهم أو لبطولاتهم وأمجادهم وانتصاراتهم.

إن مجتمعاتـــنا وتياراتنا واحزابنا وتكتّلاتنا وساحاتنا أُتخمت حشداً وتصفيقاً والـــتحاماً ومماهاةً حتى العبادة للشخصية او الذوبان في القضية، كي نمارس عماءً واستبداداً او نحصد خراباً. لعلّ أكثر ما نحتاج اليه هو قياديون مسؤولون يستمعون الى الآخر لخلق وسط للتفاهم او خط للتواصل، ويديرون القضايا والمصالح بعقول تداولـــية، وسطية اجرائية، هي بنّاءة بقدر ما هي بنائية ومركّبة، وذلك على سبيل الاجتـــراح لآفاق وأطر وادوات تساعد على الخروج من المأزق الذي يضع الجميع بـــين فكّـــي الكماشـــة: أنفـــاق الطوائف وانظمة الاستبداد، المشاريع الامبريالية والمـــنظمات الارهابية، جنون العقائد الاصطفائية وجحيم الآلة العسكرية... كما

(1) ولعل هذا ما يحتاج اليه بنوع خاص بلد كلبنان، إذ هو "محكوم بالتسوية"، بقدر ما تشكل منذ الـــبداية علـــى تـــسوية مركبة بين طوائفه ومجموعاته في الداخل، ثم بين القوى الفاعلة من الخارج العربية والدولية.

نحتاج إلى من يفكر كي يفهم ويشخص، أو كي يتعقل ويدبر، أو كي يحسن التواصل مع سواه، في عصر تتعولم فيه الهويات والمشكلات. ولذا، فالحاجة ماسة إلى ذوي عقول نقدية، يحتفظون باستقلاليتهم الفكرية ويستعصون على الاختزال والتصنيف، بقدر ما يقفون على التخوم بين المعسكرات، كي يمارسوا هويتهم بصورة منفتحة، مرنة، متحركة، عالمية.

هذا شأن من ينظر إلى المسائل على مستواها الوجودي، في ما وراء الشعارات الخادعة والأقنعة الايديولوجية المزيفة والمتاريس العقائدية المنصوبة، وذلك حيث علاقة الانسان بذاته، هي بوجه من وجوهها، علاقة جهل وظلم وفساد وعدوان وخسران، وسواها من الآفات المتفاقمة، كما يشهد العصر على أهله. ومَن يفكر على هذا النحو يسلط الضوء على الوجوه السلبية عند نفسه وأهله وقومه، بقدر ما يرى وجوهاً إيجابية عند من نعتبره الخصم أو الضد أو الغير أو الغريب. إن ذوي الهوية المنفتحة والعقول المركّبة، التي يرى أصحابها بعين نقدية بنّاءة، هم حاجة حيوية، بقدر ما يشكلون صلة وصل بين الجماعات المتراصّة والهويات المتصارعة. ولذا فهم صمّام أمان في مواجهة منطق الصدام الثقافي أو الاحتقان الطائفي أو التشنج السياسي.

ولا يعني ذلك أن ليس للمثقف ميوله السياسية التي لا يعرى منها أحد. ولكن لا يجدر به إلغاء المسافة الفكرية بينه وبين رجال الدولة وأصحاب السلطة، حتى ولو كان يتعاون معهم أو يؤيد خطهم السياسي. فما ينتظر منه أو يناط به هو أن يحتفظ باستقلاليته ويمارس حريته في التفكير، بحيث يعمل بخصوصيته كمنتج للافكار التي قد يفاد منها في فهم العالم وتحليل الوقائع، أو في قراءة المجريات وتشخيص الازمات[1].

---

(1) من الشواهد على ذلك يقدمه الاستراتيجي الاميركي ريتشارد هاس الذي لا يعد معارضاً، ولا منشقاً كنعوم تشومسكي، لأنه قريب من صناع الرأي في الفريق الحاكم بالادارة الاميركية. ومع ذلك، فإنه فيما كان الرئيس الاميركي جورج بوش الابن يعلن عن رسم خارطة جديدة للشرق الاوسط، كان التحليل يقود هاس الى صوغ فكرة جديدة تقول بنهاية الهيمنة الاميركية على الشرق الاوسط. وهذا الشاهد هو مثال يجسد التمييز بين الموقف والتحليل، بقدر ما يكشف كيف أن المواقف السياسية التي نتخذها، قد لا تفضي الى الحلول، بل تسهم في تفاقم المشكلات.

أيّـــاً يكن، لا يليق بالمثقف أن يتخلى عن استقلاليته الفكرية، خاصة إذا كان صـــاحب مهـــنة معرفية أو لقب علمي او فلسفي، كي لا يفقد ميزته ويتحوّل الى مجرد خادم للأنظمة أو مروّج للسياسات أو تابع للزعامات. ذلك أن مهمته الاولى، كـــدارس ومحلـــل، هـــي أن يقـــرأ بعينه النقدية ما لا يراه الساسة، وأن يشخّص المشكلات بأدوات حقله من اللغات المفهومية والصيغ العقلانية.

الإنسان ضحية أم مشكلة؟

أثار كتابي "الإنسان الأدنى" (أمراض الدين وأعطال الحداثة) التعليق في الصفحات الثقافية، من جانب عدد من الكتّاب والصحافيين، منهم الأصدقاء ومنهم ممن تجمعني بهم عداوة الكار والمهنة، ومنهم من لا أعرفه و لم أقرأ له من قبل.

والتعليقات تتفاوت، أو تتراوح، على قلتها، بين الثناء الخجول والاعتراض أو السجال، بين من يعترف بأنك تقول شيئاً يستحق المناقشة وبين من ينفي عليك كل ما تقوله منذ بدأتَ تكتب؛ أو بين من يكتب عنك فيستعرض حرفياً أقوالك، وبين من يحمل عليك لأنك تحاول أن تتقن عملك.

وبدوري سأنطلق في تعليقي، على سبيل الإيضاح وربما التوسيع، من مهنتي كعامل في أحد ميادينَ المعرفة، همه الأول أن يعمل بخصوصيته كمشتغل بالأفكار ونقد المفاهيم، على سبيل التوسيع والتطوير أو التحويل والتجديد أو التجاوز والتركيب.

ولعل هذه ميزة الصناعة الفلسفية: أن تخترع لكل شيء معادلته الوجودية أو لغته المفهومية أو صيغته المعقولة... ولذا فبحسب هذه الصناعة مشكلة كل شيء تكمن في مفهومه بالذات.

وبالطبع هذا شأن الشعارات والقضايا، كما هو شأن المشاريع والدعوات: إن معضلتها تأتي من جهة مفاهيمها، على ما حاولت تبيانه، سواء في كتابي: "مأزق المشروع الحضاري العربي"، أو في كتاب "العالم ومأزقه". وعلى هذا النحو أفهم أزمة الديموقراطية أو العقلانية أو الحرية. ولنأخذ الحرية مثالاً. إن أزمتها، على ما أقرأ وأشخص، لا تتأتى فقط من جهة الطاغية أو الكاهن والشيخ، بل هي كامنة في طيات الفكرة وثنايا المفهوم، أي في التعامل مع الحرية بطريقة فردوسية أو قدسية، تصدر عن مخيلة استبدادية أو إرهابية.

ولـــذا لم يعد يكفي أن نفسّر الاستبداد، لا بمبدأ الطاعة، ولا بعقلية الكواكبي الذي ينتقد الدين ما دام ذلك يحيد عن مرجعيته الدينية المقدسة، إذ بذلك نهرب من الجـــواب علـــى السؤال المستجدّ على وقع الفشل الفاضح والصارخ في مشاريع التحريـــر: كـــيف نفهم أن دعاة الحرية، قد مارسوا الاستبداد في مواجهة منطق الخضوع والامتثال، من حيث لا يعترفون أو لا يحتسبون؟ مثل هذا المأزق يحثّنا على التقدّم خطوة أخرى، بعمل النقد، نحو المنطقة المستبعدة من دائرة الدرس والتحليل، كما تتجسّد في أنساق الثقافة ومعاييرها المعيقة والمستهلكة أو في أبنية الفكر وآلياته اللامعقولة أو المعتمة.

الانشطار الوجودي

ومؤدى هذا النقد أن نُعيد التفكير في مفهوم الحرية بالذات. فنحن لسنا على مقـــاس مـــا ندعيه، في هذا الشأن، سواء من حيث القصد والاختيار أو من حيث القـــدرة علـــى القبض والتحكم. ولا يعود الأمر إلى مجرّد انحراف خُلُقي أو خبث سياسي أو قصور معرفي، وإنما يعود إلى أن ما نتكلم عليه ليس هو ما نريده، أو أن مـــا ننطق به ليس هو ما نفكر فيه، أو أن ما نبتغيه ليس هو ما نصل إليه، أو أن ما نعرفه يتغيّر بفعل المعرفة نفسها.

نحن هنا إزاء انشطار كياني أو إنشقاق أنطولوجي تعبّر عنه مفردات الازدواج والتـــردد والتعارض والتيه والتناهي والنفاد، وكلّ ما يندرج تحت خانة الهشاشة أو المفارقـــة مـــن أحوال الكائن البشري. وكما يتجسّد ذلك في الهوّة بين مستويات الوجود الخمسة، الموجود والمفهوم والمقول والمكتوب والمعمول، أي بين المقولات والكائـــنات، او بين التصورات والخطابات، أو بين البيانات والممارسات، أو بين المـــبادئ والآلـــيات. وإذا كان هذا الانشطار هو الذي يجعلنا أبعد ما نكون عن المماهاة والمساواة والتطابق والتحكّم، من حيث علاقتنا بأنفسنا وأفكارنا وهوياتنا أو بقـــضايانا ومشاريعنا وأدواتنا، فإنه هو نفسه منبع قدرتنا على التوسّط والتدخّل والتدبّر، وهو الذي يتيح لنا أن نصنع أنفسنا وعالمنا كإمكان مفتوح على الاجتراح والانتهاك أو على الخرق والتجاوز. وتلك هي المفارقة، الأمر الذي يعني أن مسألة

الحرية، شأنها شأن سائر المسائل، ليست شيئاً يكتسب بصورة نهائية، وإنما هي مراس دائم بقدر ما هي عمل تحويلي متواصل على الذات والمعطيات.

وعلى هذا النحو نفسه يمكن أن تفهم أزمة التنوير. إنها تكمن في مفهومنا له أو في طريقة تعاملنا مع الشعار. هذا ما حصل مع التنويريين العرب الذين تعاملوا مع هذا الشعار بطريقة أصولية لاهوتية؛ مما جعلني أقول، يومئذ، إنهم ليسوا مؤهلين لتنوير الناس، لأنهم هم الذين يحتاجون إلى التنوير[1]. وهذا ما يفعله الآن كتاب عرب يحدثوننا عن محنة التنويريين العرب، بعد سنوات من الكلام على إخفاق مشاريع التنوير في العالم العربي.

ومؤدى هذا المراجعة أن لا نثق كثيراً بما نطرحه أو ندّعيه، وأن نغيّر رؤيتنا إلى الأدوات المفهومية والقوالب العقلية، بحيث لا يجري التعامل معها كأقانيم مقدّسة أو جواهر محضة أو حقائق متعالية على الأحداث والتجارب واللغات والمؤسسات والأهواء والمصالح. الأحرى النظر إليها بوصفها منتجات لغوية وبضاعة رمزية منسوجة من الالتباس والتوتر أو التعارض والتناقض، بقدر ما تحمل من الظلال والترجيعات، أو تتغذى من الأطياف والهوامات، أو تشحن بالميول والرغبات، مما يفخّخ الشعار أو العنوان، على نحو يؤول به إلى ضده أو يجعله يرتد على أصحابه وحملته، أو على الأقل يؤول إلى استهلاكه وتآكله، كما هي حال الشعارات، في العالم العربي: لقد اعتراها الصدأ من فرط لوكها وفشل أصحابها في تحويلها وصرفها.

التنوير وأزمته

هذا ما يفسّر لنا كيف تولّد الحرية الاستبداد، أو كيف ينتج العقل اللامعقولات، أو كيف يتحوّل داعية الإخاء إلى ممارسة الإقصاء والإلغاء، أو كيف تؤول مشاريع التقدم أو التنمية إلى تخلّف أو إلى نهب للثروات وهدر للموارد، أو كيف تؤدي مشاريع الوحدة والتوحيد إلى الصراعات والانشقاقات؟ إنه استهلاك الشعارات وخواء المقولات، بقدر ما هو التباس المفاهيم وتواطؤ الاضداد.

---

(1) راجع كتابي، أوهام النخبة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة.

ومن هذا المنطلق، بالذات، كان دخولي النقدي على هابرماس في ما اعترضت عليه، منذ سنوات. ذلك أن صاحب "العقل التواصلي" كان يصرّ على أن مشروع التنوير لم يستكمل بعد، وأنه إذا كان ثمة أزمة، فهي متأتية من تطبيقات المشروع أو من سوء فهمه، أي هي في نظر هابرماس أزمة عارضة تتعلق بأدوات المشروع وآلياته، في حين أن ما أذهب إليه، هو أن أزمة التنوير والحداثة، باتت منذ زمن أزمة بنيوية، تطال شكل الوعي ونظام الفكر كما تطال صيغ العقل ولغة الفهم، بقدر ما تكمن في طيات الفكرة وإزدواج الحقيقة أو في استهلاك المقولة وارتداد الأطروحة أو في اشتباه الألفاظ وتوتر النصوص بين الأضداد والمتعارضات.

غير أن هابرماس، وكما هو معلوم، قد تخلى، مؤخراً، عن خطوط دفاعاته الإيديولوجية عن مشروع التنوير، على نحو ما كان يفعله من قبل، منتقلاً من طور فكري إلى طور آخر، باعترافه بأزمة العقل التنويري، وكما تجسّد ذلك في طرحه لمقولة "مجتمع ما بعد العلمانية"، وكما يتضح من المناظرة التي جرت بينه وبين البابا بندكت السادس عشر قبل تسلمه سدة البابوية[1]. وإذا كنت لا أعتبر هذا النقد الذاتي من جانب هابرماس، مصدر اعتزاز، فإنه يعزز موقفي النقدي من الحداثة والتنوير العقلي والمثقف النخبوي...

لا أنكر أن بعض من علّق على كتابي، قد أشار إلى هذه النقطة المحورية، أي كون أزمة العناوين والمشاريع تكمن في مفاهيمها بالدرجة الأولى؛ ولكنهم لم يولوها العناية الكافية، أو مروا عليها مرور الكرام، ربما لمقتضيات العجالة الصحفية، والأرجح لأن ما يشغلهم ليس العمل المفهومي. ولذا فقد تعامل بعضهم مع الكتاب بعين الداعية والمناضل، على ما هو دأب أكثر المثقفين العرب الذين يتعلّقون بالشعارات على نحو قدسي، إيماني، ثبوتي. ولذا فهم يؤمنون بالحرية والاستنارة والإنسانية، حتى الاستبداد والعتمة والبربرية، بقدر ما يؤمنون بالحقيقة والحق والعدالة حتى الكذب والمحق والظلم.

من هنا ليست المسألة انني أتعسف في نقدي الحداثيين أو العلمانيين أو التقدميين... بل المسألة كيف استحالت الشعارات الحديثة، بعقولنا المفخخة

(1) راجع بصدد هذه المناظرة كتاب الإنسان الأدنى، المصدر السابق.

وعقلانيتنا القاصرة ومقولاتنا الخاوية، إلى أضداها، أي إلى إعادة إنتاج البنى والأطر والتقاليد القديمة، بشكلها الأسوأ أو الأفدح. وهذه هي حصيلة التعامل مع العناوين الحديثة، بوصفها معسكرات تبشيرية أو حتميات تاريخية: إنتاج حداثة هشّة هامشية عقيمة.

إعادة البناء

هناك وجه آخر للمسألة يتعلّق بما سميته "العقل التداولي"، فإذا كنا نسعى إلى اختراع مفاهيم جديدة، أو إلى تطوير العناوين القديمة، فإن ما يبينه النقد والتحليل، أن أحد وجوه الأزمة هو التعاطي مع المفاهيم بعقل نخبوي أو بمنطق ماهوي أو بتوجه نظري محض، بوصفها مقولات تحتاج إلى التعميم والنشر والتطبيق. هذا عطب أساسي يعرقل أو يشلّ حركة الإنتاج الفكري والمعرفي. ذلك أن المفاهيم ليست كيانات ما ورائية معزولة عن الوقائع، وإنما هي وقائع تختزن إمكاناتها وتترك أثرها ومفاعيلها على صعيد من الصعد، بقدر ما تخلق وسطاً أو سياقاً أو حقلاً أو صيغة أو معادلة أو قيمة... ولذا فهي لا تصح بذاتها ولا تنطق بالحقيقة العارية، وإنما هي علاقتها المتغيّرة بالواقع والحقيقة، أي هي شبكات تحويلية وليست مرايا عاكسة. بهذا المعنى إن الفكرة الخصبة هي قدرتها على خلق مجالها التداولي، بقدر ما يجري صرفها في ميادين الممارسة وتحويلها إلى واقع حيّ أو إلى فاعلية مجتمعية. ولذا، فالفكرة الخارقة والفعّالة هي التي تُسهم في تغيير الواقع، بقدر ما تفتح الإمكان دوماً لإغنائها وتطويرها أو لولادة أفكار جديدة.

من هنا أيضاً لا تتجدد الأفكار فقط من داخل حقولها الخاصة المنتجة فيها، بل أيضاً من حركة الانفتاح المزدوج على بقية الحقول المعرفية والقطاعات المجتمعية. بهذا المعنى تقدّم النظريات التي ينتجها العلماء والباحثون أدوات مهمة للفهم وتشخيص المشكلات الحسّية، بقدر ما تتغذى أو تتجدد من التفاعل مع الذين يفيدون منها أو يتداولونها في مختلف مجالات الإنتاج وأنشطة الحياة.

هكذا فالأحداث والأفكار تتفاعل، تداولاً وتحويلاً، على نحو يجعل كل منها إمكاناً لانبثاق الآخر وتشكيله أو لتحويله وتغييره. فالفكرة قد تصنع الحدث أو

تفتح باباً للعمل، بقدر ما تقود الأحداث أو الأعمال إلى إعادة النظر في الأفكار، على سبيل التغذية والتلقيح أو التوسيع والتطوير أو التغيير والتجديد.

طبعاً للمفهوم طابعه التنويري. ولكن التنوير ليس مجرد وحي يوحى يكشف لنا ما لم نكن نراه من الواقع الماثل، وإنما هو واقعة لغوية ودلالية ورمزية، لها مفعولها التحويلي أو التحريري، بقدر ما هي مراس وجودي وجهد فكري وتركيب لغوي أو نشاط مؤسسي أو عمل بنائي تنشأ معه علاقات جديدة بين الأشياء أو بين الكلمات أو بين الأشياء والكلمات. الأمر الذي ينقل لغة الدرس والتحليل، في مسألة التعامل مع الحقيقة، من مفردات الثبات والوصف والمطابقة واليقين والصحة، نحو مصطلحات هي ذات طابع علائقي، ديناميكي، تحويلي، بقدر ما تشير إلى معاني الخلق والبناء والتركيب.

بهذا المعنى، لم تعد المسألة اليوم أن نفاضل بين هذا المعتقد أو ذلك المذهب، بل كيف يجري تداول الفكرة أو صرف المقولة على أرض الواقع؟ أو ما هي الإمكانات التي تخلقها المفاهيم والمآلات التي تقود إليها؟

فما جدوى المفاهيم والعناوين إذا لم تطلق طاقات أو تتفتق عن إمكانات تجعل الحياة أيسر أو أغنى أو أجمل، أو على الأقل تخفف من الأعباء والضغوط أو تتدارك المآزق والأفخاخ؟

ما جدوى كل ما نطرحه أو نختلف عليه من المشاريع والبرامج، إذا كانت لا تحول دون انتشار العنف أو تلويث البيئة أو الحدّ من الفقر والقهر والاستبداد؟

هذه أيضاً أسئلة تحتاج إلى الإجابة في ضوء الاخفاقات والتراجعات والانهيارات والكوارث التي تعني أن المآلات والنهايات هي بعكس البيانات والادعاءات، كما تعني بأن الكل، على اختلاف المرجعيات، قد أسهموا في الوصول إلى المأزق.

من هنا، فالمهمة هي العمل على تفكيك ما هو راسخ وسائد أو شائع من البنى الفكرية واللغات والمفهومية والنماذج الثقافية والقوالب العقلية والأنساق المعرفية، لا من أجل نفي العقل أو الحداثة، كما يحسب من أسدل الستار على عقله، بل من أجل إعادة التركيب والبناء. فلا شيء مما يحدث يمكن نفيه أو محوه،

إذ بذلك يعود على النحو الأسوأ والأرهب، كما تشهد عودة الأصوليات المقدّسة والأســـاطير المؤسسة. الممكن الاشتغال عليه، تفكيكاً وتحويلاً، لإعادة تركيبه في صيغ أو معادلات جديدة أكثر مرونة واتساعاً.

وإعـــادة البـــناء، تحويلاً وتجاوزاً وتركيباً، إنما تتم بمفردات "العقل التداولي" وأدواته. وهذا المركب المفهومي يفيد بالطبع من "العقل التواصلي" لدى هابرماس، ولكنه يفيد، أيضاً وخاصة، مما تغاضى عنه هابرماس أو نفاه في طور الأول، أي من مجمـــل الفـــتوحات والمـــوجات والطفـــرات التي تصنع العالم الراهن، أياً كانت التسميات.

في ضـــوء هـــذه الإيـــضاحات، يمكن لي مناقشة بعض الآراء والمواقف التي تعرضـــت لكـــتابي، أو التي تتعارض تحديداً مع مفهوم الإنسان الأدنى مباشرة أو بـــصورة غـــير مباشـــرة، وذلـــك من غير مدخل، كالجرأة، والهوية، والعنصرية، والضحية، والحداثة، والعقدة، والنرجسية.

العنصرية

ثمـــة من رأى أن مفهوم الإنسان الأدنى يحمل دلالات عنصرية، على ما جاء في الحوار الذي مع الكاتب الفرنسي جان ميشال فاي[1]. ومع أن هذا الأخير قُدّم في هذا الحـــوار بوصفه فيلسوفاً وروائياً ومؤرخاً... فإنني أحسب بأنه أدنى من ذلك في كل هـــذه الحقـــول التي لم يبرع فيها. وهذا شأنه في الفلسفة: ليس صاحب مقولات أو مختـــرع مفاهيم. أما وصفه لمفهوم الإنسان الأدنى بأنه اختراع عنصري، فهو في منتهى السخف والعنصرية. ذلك أن العنصرية هي سمة العقائد الاصطفائية الدينية والقومية التي تعلـــي من شأن الأنا لتخفض من قدر الآخر تمهيداً لاستبعاده أو استئصاله. هذه عملة نجـــدها في الـــديانات التوحـــيدية الثلاث، كما نجدها في الديانات الحديثة كالنازية والـــستالينية والماويـــة والـــصهيونية، وهي جميعها نسخ عن بعضها البعض، بقدر ما تـــستجمع مساوئ بعضها البعض، من حيث إرادة الاستئصال والممارسات الفاشية أو البربرية ضد البشر بسبب انتمائهم العرقي والديني أو القومي والطبقي.

---

(1) أشير إلى الحوار الذي أجراه معه أنطوان جوكي في جريدة "المستقبل" اللبنانية.

الفزاعة

من فضائح النقد عندنا أن بعض الذين يدعون ثقافة وعلماً ومعرفة، يتعاملون مع بعض مناهج التفكير كفزاعة على ما هو موقف الكثيرين، من منهج التفكيك. إنهم يخشون منه على الهوية والعقل والأصل، وسط كل ما نعانيه من العجز والتفكّك أو الفوضى والشعوذة، في حين أننا ازاء منهج هو فاعلية فكرية خصبة وفعّالة في درس المشكلات وتحليل الأزمات، لاجتراح إمكانات جديدة للتفكير والعمل. والذين يتعاملون معه كبعبع، كما يفعل بعض أدعياء الفلسفة والمعرفة، يشهدون على أنهم أقل شأناً بكثير مما يدعون، بقدر ما يشهدون على أميتهم الفلسفية وسذاجتهم العقلانية، أي على كونهم معادين لأخص ما يميّز النشاط الفلسفي: تشخيص الواقع فكرياً ومفهومياً.

بذلك يشهدون على جهلهم المركّب بالمعطى الوجودي الذي ينخرطون فيه، وهم غافلون عنه: أولاً جهلهم بالنشاط الفلسفي بطابعه العالمي وبُعده الكوسموبوليتي؛ ثانياً جهلهم بما يكتبونه، لأن أكثر مصطلحاتهم ومعارفهم هي ذات مصدر غربي حديث؛ ثالثاً جهلهم بالواقع الكوني حيث نلجّ اليوم إلى عصر الاعتماد المتبادل، بما يعنيه ذلك من تنامي واتّساع ظاهرات ومجالات التواصل والتفاعل والتهجين بين الجماعات البشرية، بفضل تصدّع الحدود المادية والرمزية بين الهويات الثقافية.

بالطبع إن الأصوليات من كل نوع، قديمة وحديثة، دينية وعلمانية، تقاوم الواقع الجديد، لا من أجل إعادة بنائه، بل بالعمل على نفيه. ولكن ردّات فعلها التي تتم على المستوى العالمي تثبت ما تحاول نفيه، أي أنه لا مجال بعد للتمترس وراء الهويات المغلقة أو الجامدة، لأن ذلك يحيل صاحب الهوية إلى ناشط إرهابي أو إلى مخرب أممي، بقدر ما يصنع هوية كاريكاتورية بائسة، فقيرة، عدوانية، كما تشهد حروب الكتب والنصوص المقدّسة.

الحداثة المفجوعة

لا مراء أن مقولة الإنسان الأدنى تصدم الحداثيين، دعاة ومنظرين، ذلك أن الحداثة قد تشكّلت ببروز الإنسان، كفاعل بشري وحيد، على المسرح الكوني،

بعد تراجع صنوه أو اختراعه، كما تجسّد ذلك في صورة الله. وإذا كان هذا شأن الكثيرين من الغربيين، فإن المقولة تصدم المثقف العربي، بقدر ما يستثيره موقفي النقدي من الذات والهوية والحداثة، إذ هم يعتبرون ذلك من قبيل "ظلم ذوي القربى"، من جانبي بحق قبيلتي وأهلي من العلمانيين والتنويريين، بقدر ما هو خروج مني على الاجماع الحداثي. وأصحاب هذا الموقف يريدون للواحد أن يكون فرداً في قطيع، عليه أن ينتصر للخانة التي يصنّف فيها، ولو على حساب استقلاليته الفكرية. وهكذا فهم يتعاملون مع الحداثة التي تشكّلت كموقف نقدي من العقائد والمذاهب، بعقل تقليدي، بوصفها ديانة جديدة، مما يعني أنهم أقل حداثة واستنارة بكثير مما يحسبون.

والأهم من ذلك، أنني لست أنا من يمارس ظلم الحداثيين، بل دعاة الحداثة الذي يشطبون بجرة قلم أو بتصريح صحافي ما صنعه العرب من الحداثة الفكرية والثقافية منذ عقود. وهكذا فهم يطمسون واقع الرؤى والتصوّرات والتشكّلات والسيرورات والمنتجات الحديثة، من شبلي الشميل ولطفي السيد وطه حسين، إلى المعاصرين، كالشاعر الذي ينثر قصيدته، والفنان الذي يؤلف لوحته، والإعلامي الذي يدير شبكته، والمرأة السافرة الخارجة إلى العمل على قدم المساواة مع الرجل. وإذا كان العرب قد انخرطوا في التحديث، و لم يصنعوا حداثة فكرية، كما يقول منظرو الحداثة، فالمسؤولية تقع عليهم، بقدر ما تشهد على عجزهم، هم، عن تطوير الأفكار وتحديث المفاهيم.

وعلة ذلك أنهم وقعوا أسرى الحداثة بقدر ما تعاملوا معها بمنطق قدسي إيماني، ثبوتي، أقنومي. لقد آمنوا بها حتى باتت مجرد تقليد أو تحجّر أو لغو وتكرار لشعارات فقدت مصداقيتها من فرط خوائها أو من فرط انتهاكها.

وهكذا ليست الحداثة ما يقف وراءنا من ثوابت ونماذج وشعارات علينا الرجوع إليها والدفاع عنها أو احتذاءها وتطبيقها، لكي نزداد تراجعاً، وإنما هي أمامنا، أي ما نقدر على خلقه واختراعه في الأدوات والأفكار، أو في المعايير والقوانين، على نحو يمكننا من أن نصنع حياتنا ونبتكر صيغنا ونماذجنا، لكي نسهم في صناعة العالم الراهن، أيّاً كانت التسميات. فلا يجدي بعد كل هذا الاخفاق أن ننتصر للحداثة، بأي ثمن كان.

ولذا، إذا كان ثمة عوائق حالت دون تحقيق نجاحات أو تجارب فذّة في المجال الفكري، والفلسفي بوجه خاص، خارقة للسقف المحلي نحو الأفق الكوني، فليس لأننا لم نأخذ بعين الاعتبار شروط التحديث ومكوناته، بل لأننا وقعنا أسرى الثوابت والمسبقات التي تصنع عجزنا أو إعاقتنا، ولم نحسن خرق الشروط بخلق وقائع فكرية أو اجتراح أدوات مفهومية نسهم من خلالها في صناعة المشهد الفكري الراهن. فالذي يفكّر بصورة حيّة، خصبة، خارقة، راهنة، ليس هو الذي يبحث عن الشروط المسبقة التي تشده إلى الوراء، بل الذي يفكّر دوماً بخلق ما يحقق به السبق، أو يخربط الحسابات ويعيد ترتيب الأولويات.

الجرأة

هناك من يتعامل مع محاولاتي النقدية بوصفها جرأة فكرية، خاصة عندما يتعلّق الأمر بنقد الأصولية الإسلامية، متغاضياً عن نقدي لكل الأصوليات. وبالإجمال هذا هو دأب المثقفين العرب الذين يتصرفون ككائنات أيديولوجية، أو يرون إلى الأعمال الفكرية بعين أيديولوجية نضالية، على سبيل المدافعة والتبجيل، أو بالعكس على سبيل الهجوم والتبخيس. إنهم يريدون للواحد أن يكون جريئاً في نقد هويته، أو بالعكس مقداماً في الدفاع عنها. ولذا فهم يتعامون عن الجانب المعرفي والجدة في اللغة المفهومية. لأن ما يستهويهم هو الجرأة الفكرية في الدفاع عن النهضة والتنوير أو عن العلمانية والحداثة. بذلك هم يفكرون بعقلية نهضويي القرن التاسع عشر، حيث تغلّب منطق اللاهوتي والمناضل العقائدي على شواغل الإنتاج المعرفي. ولعلّ هذا ما يفسّر لنا كيف لم تنجب النهضة فيلسوفاً مبتكراً أو عالماً مرموقاً.

وإذا كان لأعلام النهضة عذرهم يومئذ، فلا عذر لنا في أن نكرر مواقفهم لنحصد الإخفاق والإحباط. وإذا كنا في العالم العربي، وكما يلاحظ الكثيرون، نتراجع في مجال الفكر، عن طور النهضة، وأنا لست من هذا الرأي[1]، فإن ذلك

(1) لأنني أعتبر، وكما أذهب في تقييمي للحداثة الفكرية العربية، بأن الموجة الأخيرة التي تشكلت مع نقد العقل ونقد النقد، هي من أغنى وأهم أطوار الفكر العربي الحديث. راجع كتابي: "هكذا أقرأ"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005.

يعدّ سبباً أولى، كي لا نتعامل مع العناوين الوجودية والحضارية بمنطق الثبات والجمود، حتى لا نعيد إنتاج المآزق. فالأولى أن نشتغل بما هو مهم: تجديد العناوين وتحويل المفاهيم. هذا هو الرهان عند العامل في أحد ميادين المعرفة.

فلا تجدي مجابهة التحدّيات والمتغيرات المتسارعة بعدة فكرية مفلسة. وأقل ما يمكن فعله هو حقن العناوين القديمة بجرعات جديدة، على سبيل التلقيح والتهجين. فالعقلاني ليس هو الذي يفكّر بعقلانية القرن الثامن عشر، بل الذي يعيد تركيب الصيغ والأنساق العقلية في ضوء الأزمات الراهنة. والتنوير ليس كما نحسب مصدر الحيوية أو أداة المعرفة. بالعكس إنه الحصيلة والثمرة لجهد فكري وفعل معرفي وعقل نقدي وتحوّل مفهومي، بقدر ما هو مجلى لتجارب وجودية غنية أو لمغامرات عقلية فذّة.

هنا أيضاً يمكن الإشارة إلى عطب أساسي لدى المثقفين الحداثيين جعلهم يتعلقون بالإسماء أو يفزعون منها، على نحو طفولي أو سحري، لكي يقفوا عند حدود النهضة العربية، أو على أسوار التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر، متعامين عن كل ما يشهده العالم من الانفجارات والطفرات والانعطافات والتحوّلات في فروع المعرفة ومناهج الدرس وأنماط التفكير وخرائط الفهم، الأمر تجلى في عجزهم عن المشاركة في ورشة المعرفة، بقدر ما أفضى بهم إلى الغرق في السجالات العقيمة حول ثنائيات الأصالة والحداثة أو الحداثة وما بعد الحداثة أو الهوية والعولمة. وهكذا فقد تمترسوا وراء الأسماء وتشبثوا بالألفاظ على نحو أدى إلى استنفاد المعاني وتآكلها.

الهوية

والأطرف هم الذين يخشون على العروبة من تعددية القراءة للنص المفتوح، كما يخشون على الإنسانية من نقد النماذج الثقافية والمشاريع البشرية، الإيديولوجية، ولكن المفلسة، سواء على جبهة الدين واللاهوت أو على جبهة الفلسفة والعلمانية. وحجتهم في ذلك أنه من غير الجائز أو المشروع أن نقرأ في النص كل ما نريد قراءته أو نتوهم معناه.

ولكن هؤلاء يخترعون خصوماً لمقارعتهم بصورة بهلوانية، وعلى سبيل التهويل أو التهويم. ذلك ان قابلية النص لتعدد القراءات واختلافها، لا يعني بسذاجة، أن نحمّل النص ما لا يحمل من المعنى، أو أن نسقط عليه ما نشاء من الدلالات والمعلومات، على ما يفعل المفسرون الذين يقرأون النص القرآني، بصورة ذاتية اعتباطية، لكي يسقطوا عليه بنوع من السطو، ومن غير حياء، كل النظريات التي أنتجها العلماء المحدثون والمعاصرون في مختلف فروع العلم.

فليس هذا مثار الاختلاف، ذلك أن تعددية القراءة تعني أولاً أن النص ليس ذا بنية مغلقة أو محكمة، ولا هو أحادي الوجهة والدلالة، وإنما هو كتشكيل خطابي وفضاء رمزي، متعدد الوجوه والمستويات والأبعاد. وهذه مفاعيل الآثار الفكرية ومرجعيات المعنى، التي هي دوماً محل لبؤرة أو فجوة أو طبقة أو شبكة أو موجة أو إشكالية، بقدر ما هي منسوجة من كثافة الدلالة وطيّات الفكرة، أو من اشتباه اللفظ والتباس المفهوم، أو من إزدواج المقولة وثنائية الأصل والنشأة.

وهي تعني من جهة ثانية أن قراءة النص لا تأتي من فراغ أو تصدر عن وهم، وإنما هي التي تدخل على المقروء من تجربة فذّة، أو من استثمار علم جديد، أو من استخدام أداة منهجية مبتكرة، أو من اقتحام منطقة وجودية جديدة لعمل الفكر.

وبالطبع هذا شأن القراءات الحيّة والخصبة، الفعّالة والراهنة، أكانت شرحاً وتفسيراً أم صرفاً وتأويلاً أم تفكيكاً وتحويلاً. وهذا ما يشهد به تاريخ القراءات المبتكرة، المتعددة والمختلفة بغناها، سواء للكتب الدينية أو للأعمال الفلسفية، لجمهورية أفلاطون أو للنص القرآني، لمنطق إبن سينا أو لمقولات ديكارت.

ولذا، فكل قراءة لنص من النصوص تجدد المعرفة به بقدر ما تغني عالم المعرفة؛ كل قراءة حيّة للماضي هي تخيّل خلاّق يفتح أفقاً رحباً أمام المستقبل، وكل تشريح ناجح وكاشف للتراث تكتسب معه الهوية غنى وقوة، وكل جرح نقدي في الخطابات والروايات تُجترح معه إمكانات جديدة للقول والسرد؛ تماماً كما أن كل تأويل مبتكر للوقائع يفتح إمكاناً للعمل على نحو غير متوقع. باختصار كل قراءة خلاّقة للعالم تشكّل هي نفسها واقعة تترك أثرها في مشهد الواقع على صعيد من صعده.

وهكذا ليست المسألة أن نختار بين أحادية القراءة وتعدديتها، ولا أن نقرأ في النص المقروء ما نرغب قراءته، من غير مسوغ مفهومي أو دليل عقلي أو مستند معرفي، ولا هي بالطبع أن نتشبث بأدواتنا المنهجية القديمة والمستهلكة، لكي نعود إلى ما قبل الثورات والانعطافات والتحوّلات التي تغيّرت معها نظرتنا إلى النصوص وإلى أنفسنا والعالم. المسألة هي أن نحسن قراءة معطيات الوجود ووقائع العالم أو نماذج الثقافة ومشكلات الهوية، على نحو خلاّق وخارق أو فعّال، لكي نساهم في ورشة المعرفة على الساحة العالمية.

وهذا هو التحدي الذي يهرب من مواجهته حراس الهوية وشرطة المعرفة وملالي الحداثة الذين لم يجددوا حرفاً، في ما يتداولونه من قضايا وعناوين، حول القومية والأمة أو حول الحداثة والمعاصرة: اجتراح قراءات للنصوص والرموز والتراث والثقافة، تسهم على أقل تقدير في تجديد المعنى وإعادة البناء، ذلك أن كل قراءة خصبة ومبتكرة، تفتح أبواباً للمعنى، بقدر ما تشكّل فرصة لاختراق الحدود وإعادة ترتيب الأولويات أو صياغة المعادلات.

وهم بذلك يشهدون على أنهم أقل مما يدعون. فهم يعلنون أنهم ضد أحادية التفكير، ولكن فقر المعنى وضحالة الخطاب وإفلاس العُدّة الفكرية يقودهم إلى عكس ذلك، أي إلى النص الواحد والمعنى الوحيد والزعيم الأوحد، ولا عجب أن تتساقط مشاريعهم وأن تتراجع معهم القضايا التي يدافعون عنها، إلى الحضيض الأسفل، سواء ما تعلّق منها بالقومية أو بالإنسانية.

الضحيّة

ثمة مقاربات يحاول أصحابها معالجة المشكلات والأزمات، التي تعاني منها المجتمعات المعاصرة، بعقلية التباكي ولغة الرثاء للإنسان بوصفة الضحية. هذا شأن الكتابات التي تصدر عن منزع إنساني وتجسّد منطق الأنسنة للطبيعة والعالم والكون، وذلك بالتعامل مع الإنسان بوصفه خليفة الله ومثاله، أو بوصفه أشرف الخلائق أو الكائن الأعلى والأرقى.

وبالطبع يندرج في هذا الاتجاه ويتفرّع عنه، بنوع من التبسيط، رأي الذي

يـــتحدثون عـــن الإنسان المهدور أو عن هدر الوعي والفكر والثقافة. وما أراه أن تشخيص المشكل، على هذا النحو، يسدّ الأبواب ولا يفتحها أمام الحلول، بقدر ما يجري التمسك بثوابت ونماذج وصور فبركها الإنسان لنفسه، قد فقدت مصداقيتها ومشروعيتها، ولم تعد تنتج سوى المزيد من المآزق والكمائن..

فلـــم يعد يجدي أن نفكّر بنفس العقلية والوجهة والعدة والطريقة، وسط كل هـــذا الإفلاس الأمني والخراب الكوني. الأولى التعامل مع الإنسان بوصفه مصدر الهدر والفساد والدمار، سواء في ما يتعلق بخيرات الطبيعة وثرواتها، أو في ما يخص جهود الآخرين وأعمالهم وحقوقهم. والمثقفون ليسوا براء من ذلك، أي مما يتهمون بـــه الغـــير؛ أولاً بـــصفتهم بشراً يشاركون في عملية نهب موارد الطبيعة وتدمير كائناتها؛ ثانياً من حيث علاقتهم بعضهم ببعض، في قطاعهم الخاص، إذ هي لا تخلو مـــن النهب والسطو على نصوص الزملاء وإنتاج الأنداد؛ ثالثاً في تأليههم لذواتهم ومهنهم وأعمالهم، كما يفعل الذين تضربهم النرجسية على نحو يجيز لهم القول بأنه يحـــق للشاعر أو للفنان ما لا يحق لغيره. مما يقدّم مثالاً على أنهم أدنى مما يدعون، وأبعد ما يكون عن الصورة التي يقدّمون بها أنفسهم إلى الناس، كأمناء على الحقيقة والعدالة، بقدر ما يعني أنهم هم مصدر ما يشكون منه ومنا يدعون مقاومته.

ولـــذا، أرى أن الإنـــسان ليس الضحية، بل هو المشكلة، بمركزيته وتألّهه، بتكالـــبه وجـــشعه، بشراسته وعدوانيته، بظلمه واستبداده... ولنتوقف عند مثال يجـــسّد وعي الإنسان لذاته ولعلاقته بالحيوان. إن بعض الكتّاب الإنسانويين، أي المفـــرطين في إنـــسانيتهم، عندما يفرقون بين الحبّ والخلاعة، يعتبرون الحبّ ميزة إنسانية، بينما الخلاعة صفة حيوانية. وهذا إسقاط سافر وجائر على عالم الحيوان. ذلك أن أفعال الخلاعة والعهر والفحش هي ممارسات إنسانية بامتياز؛ تماماً كما هو الهـــدر والـــنهب والغدر والفتك أو السفك... وهذه حال الذين يصفون الأعمال الجهنمية بكونها شيطانية، فيما هي أفعال إلهية، إذ الجحيم هو اختراع إلهي. وهكذا فنحن ننـــزه أنفسنا ونعلي من شأننا أو نقدّس أعمالنا، لكي نخلع سيئاتنا أو آفاتنا أو أفعالـــنا الشنيعة والفظيعة على الغير، مما يعني أننا أقل علوية ومثالية وفضيلة مما نحـــسب. وهكـــذا، فمشكلة الإنسان هي مع نفسه بالدرجة الأولى، أي مع وعيه

وتصوراته ومعاييره وثقافته، وبالطبع مع نخبه الذين يقدّمون أنفسهم بوصفهم رموز الإنسانية ومثلها وأعلامها.

ولذا لا معنى للكلام على الهدر الذي يتعرض له الإنسان. فالهدر هو أصلاً أثر الدهر في ما يحدث ويتشكّل أو في ما يتداعى ويتآكل على مستوى العالم والكون. وهـذا الأثر هو أضعاف مضاعفة، بالنسبة للكائن البشري، بما هو كائن ملتبس، مزدوج، يملك القدرة على الخروج على حتميات الطبيعة واللعب في مسار التطوّر، بابتكاراته وتقنياته، بصنائعه ومؤسساته. ومعنى الازدواج أن ما نسعى إليه ونصنعه هو سيف ذو حدين: نحن نتكاثر وننمو، أو ننتج ونستهلك، أو نتقدّم ونـزدهر، حتى الهلاك والفناء. وفهم المشكل على هذا النحو، يحملنا على كسر منطق الأنسنة لتفكـيك صور الإنسان عن نفسه بأطيافها النرجسية وتهويماتها العلوية، لا التشبث بها لرمي المسؤولية على آخر، شيطاني أو إلهي، يجري اختراعه.

ولا يعـني ذلك القول بخروج الإنسان عن طبيعته أو انسلاخه عن إنسانيته. فالإنـسان هـو ثقافة بقدر ما هو طبيعة. وكسر منطق الأنسنة يعني كسر منطق التـراتب الذي صنعه الإنسان لكي يحل نفسه، على صعيد أول، في المرتبة الأولى، سيداً على الخلائق ومتحكماً بمصائرها؛ ثم لكي يصنع على صعيد آخر، تراتباً داخل المجتمع البشري، بين آلهة وشياطين أو أسياد وعبيد أو مصطفين ومنبوذين أو نخب وعامة.

إن نقـد الأنسنة معناه أن نفكّر ونعمل على شق أفق جديد للعمل البشري كوني، وغير إنساني بالمفهوم السائد. فالرؤية الإنسانية بوجهيها، الديني والعلماني أو التراثـي والتقدمـي، هي رؤية مركزية نرجسية قد أفلست ولم تعد تصلح لإدارة الشأن الكوني، بمفردات التراتب والتطابق، أو الطبقة والنخبة. إن الدراسات المنتجة الـيوم، في غـير حقل من حقول المعرفة، تفتح الإمكان للتفكير والعمل، بصورة جديـدة ومختلفة، وذلك بالتعاطي مع العالم، بوصفه شبكة التبادلات والتحوّلات، بـين مختلف كائناته وعناصره أو بيئاته ومجالاته. فلا مهرب من تغيير أو تجديد في المفاهيم والمعايير.

مـن هنا لا يجدي عمل النقد والدرس بعقلية التباكي والندب على إنسانيتنا الضائعة أو المهدورة بصورها ومعاييرها السائدة أو الراسخة. فلنفتح ملف إنسانيتنا،

لأن ما نحسبه المرتجى والحل هو الداء والأشكال. لن ينفعنا أن نتباكى على الإنسان بعد دهر من الدعوات الإنسانية، أثمرت المزيد من الهدر والفساد أو الإرهاب الخراب.

العقدة

هناك من نظر إلى مفهوم الإنسان الأدنى من زاوية نفسية بوصفه مجرد "عقدة". هذا ما يفعله الذين تركبهم العقد وتتحكم في ضمائرهم مركبات النقص لعلّة في النفس، إما لأنهم يعجزون عن الابتكار، أو لأنهم لم يجدوا دوراً يلعبونه، أو لأنهم يعتقدون بأن نجاح غيرهم يتم على حسابهم، أو لأنهم يكتبون وينشرون فلا يجدون من يقرأ مؤلفاتهم، فيحملون على سواهم باستخدام لغة الكره الأعمى والحقد الأدنى، سعياً إلى القتل الرمزي للآباء أو الأنداد على ما يتوهمون. مما يجعل كتاباتهم مجرد سجالات خاطئة هي ردات فعل لا تساوي الفعل نفسه. وأصحاب هذا الموقف يشهدون أيضاً على أنفسهم بالدونية الخُلُقية، بقدر ما يصدرون في حملاتهم عن عقدة الأدنى تجاه الأعلى.

النرجسية

وأخيراً هناك من يعترض على المفهوم، ممن ليسوا من أصحاب المصلحة، أي ممن لا عداوة بيني وبينهم، من عموم القراء والناس. وهؤلاء هم معنيّون بالطبع، بقدر ما يصدمهم كسر الصورة المثالية والمتعالية التي تكوّنت منذ آلاف السنين عبر الإنسان، سواء بالمعنى الديني أو الخلقي، بوصفه الأنبل والأرقى والأشرف بين الكائنات، لامتيازه بخواص النطق والعقل والوجدان، على ما هو الاعتقاد الشائع عن الإنسان.

غير أن هذه الرؤية المثالية قد تعرضت دوماً للنقد والجرح، وتلقّت الضربات من غير اتجاه؛ قديماً كما يتجلى ذلك في النقد القرآني للإنسان، أو حديثاً كما يتجلى ذلك بشكل خاص في أعمال علماء وفلاسفة أمثال داروين وماركس ونيتشه وفرويد وفوكو وسواهم، ممن بيّنوا الأثر الحاسم الذي تلعبه في مصائر البشر، من

وراء الوعـــي والفكـــر والـــنطق، الـــبنى والشيفرات والآليات التحتية، اللاواعية واللامعقولة، أو البيولوجية والاقتصادية، أو الرمزية واللغوية. فبحسب هذا المنحى في التفكير والتشخيص، ليس الإنسان ما يعلنه، ولا هو كما يقدّم نفسه. ربما هو ما يـــستبعده مـــن نطاق التفكير والوعي والعقل. ولا مراء أن مؤدى ذلك هو كسر النرجسية البشرية إذا لم نجارِ الذين يقولون بموت الإنسان.

قـــد يُعترض هنا بالسؤال: هل يُعقل أن نتحدث عن دونية الإنسان، فيما هو يطمـــح دومـــاً إلى الرقي والتقدّم والكمال والسموّ؟! ولكن ما يقوله الإنسان عن نفسه لا يجسّد هويته. بالعكس، قد يموّه حقيقته ويطمس مشكلته أو يزيّف واقعه. وإلا كـــيف نفهم أن تفاجئنا أنفسنا بما لا نحب أو أن تقودنا أعمالنا إلى حيث لا نريد؟!

بالطـــبع نحن لا ننفك نتباهى على الحيوان بكوننا الأرقى والأذكى والأقوى. ولكـــن ها هي نفاياتنا تكاد تلوث الأرض والسماء. أما العنف الذي نمارسه ضد بعـــضنا البعض فهو الأشرس والأكثر وحشية، والأكثر ضرراً على النوع الإنساني وعلـــى بقـــية الأنواع. فما أظلم الإنسان بحق نفسه، وبحق الحيوان، وبحق الأرض وثرواتها!

أخلـــص إلى ذلك الى القول من جديد: المهم أن نقرأ الوقائع ونهتم بتشخيص المـــشكلات. وكل عامل يدخل عليها من مجال اختصاصه وبأدوات حقله، أي بما يميّـــزه وممـــا ينجـــزه. وصاحب الصناعة الفلسفية، إنما يسعى قبل كل شيء إلى تـــشخيص الواقـــع، فكرياً أو مفهومياً. يمكن للدفاع عن الهوية أو عن الحرية أن يـــشكّل حافـــزاً لدى الفيلسوف يدفعه لكي يعمل عمله، أما أن يتحوّل إلى مجرد مدافـــع، فإنه بذلك يُحيل الفلسفة إلى منظومة لاهوتية أو إلى أدلوجة كفاحية. غير أن مـــا يـــسود عـــندنا، على الساحة الفكرية، لدى الكثيرين من الكتّاب والنقاد والمعلقـــين، هـــو معاداة الفهم والتشخيص، وغلبة منطق الدعوة، وإرادة الحجب والمحو، ولغة البغض والحقد، ومنطق التشبيح والتهويم.

وأنـــا إذ أؤكـــد على أن مهمتي الأولى، هي أن أعمل بأدوات حقلي، فهماً وتشخيصاً وتعقّلاً، طبعاً لا أقول بأنني أقلب الأمور رأساً على عقب، أو بأنني آتٍ

بمـــا لم تستطعه الأوائل. فنحن نأتي من بعضنا البعض ونعتمد على بعضنا البعض، والفرق بين واحد وآخر، هو بين مَن يقلّد وينقل وبين مَن يجتهد أو يبتكر، أو بين مَـــن ينقل ويفيد من غير إحالة أو اعتراف وبين مَن يعمل على ما يفيد منه تصنيعاً وتحويلاً وترتيباً. فقد ولى الزمن الذي يملك فيه فرد أو مثقف حلولاً لمشكلات بلد أو مجـــتمع. ومـــا يرضيني أن تجد أعمالي صدى لدى البعض القليل على الساحة الواســـعة. ومـــثالي على ذلك مقالتي حول الموجات الجديدة من الغناء التي أثارت حفيظة بعض النقّاد من رجال ونساء. ولكنها حظيت بإعجاب أستاذ اللغة والأدب الذي لم أكن أعرفه، والذي قرأ نصّاً منها على تلامذته، وهذه شهادة تُعَدّ بألف من شهادات كهول الحداثة وديناصورات الذائقة الفنية.

القسم الثانى

الجرثومة الاصطفائية للديانات التوحيدية

الإساءة والفضيحة
في قضية الرسوم الكاريكاتورية

غزوة الأحَد

مـــا حـــدث مـــن ردود فعـــل عنـــيفة وعشوائية، احتجاجاً على الرسوم الكاريكاتـــورية، التي نشرتها إحدى الصحف الدانماركية، في غير مكان وخاصة في لبنان، قد استدرجني إلى كتابة هذه المقالة:

مـــا جرى في بيروت في مطلع هذا الشهر (شباط 2006)(*)، يستدعي القراءة من جانب المُعاني والمنخرط أو المراقب والمشاهد، من غير وجه:

1 – ما كان ينبغي أن تسير تظاهرة إسلامية في حي يعتبر معقل المسيحيين التقليدي في مدينة بيروت، سواء أحدث شغب أم لم يحدث، لان هذا العمل يثير، على أقل تقدير، الحساسية الطائفية، إن لم يعتبر بمثابة تحدٍّ واستفزاز لسكان المنطقة، في بلد ما تزال تتغلب فيه العصبيات الطائفية على الولاء الوطني الجامع. وهكذا فالتظاهـــر مـــن جانب شيوخ معمّمين في شوارع الأشرفية هو اعتداء رمزي واستفزاز معنوي.

فمـــا الذي كان يحدث، مثلاً، لو سارت تظاهرة حاشدة أو غاضبة من جانب المـــسيحيين قرب دار الفتوى أو في الضاحية الجنوبية معقل حزب الله، هذا اذا كـــان ذلك ممكناً في الأصل؟ بالطبع ما لا تحمد عقباه! فكيف، إذاً، غاب مثل هـــذا الأمر عن عقول المسؤولين السياسيين والساهرين على الأمن؟ وإذا كان

(*) أشـــير إلـــى التظاهـــرة التـــي سارت في شوراع الأشرفية في بيروت، في 5 شباط 2006 بجماهيـــرها الغاضبة، باتجاه السفارة الدانماركية، احتجاجاً على الرسوم الكاريكاتورية، وما أعقب ذلك من شغب واضطراب.

ثمة مدسوسون، كما قيل أو تبيّن، فإنهم قد استفادوا من الأجواء التي خلقها المتظاهرون بقرارهم الخاطئ وجهلهم الفاضح بمعطيات المجتمع اللبناني بنعراته وحساسياته.

ولكن أهالي المنطقة، الذين كانوا موضع الاقتصاص أو الانتقام على ما لا ذنب لهم فيه، قد تصرّفوا بوعي وطني وسلوك مدني، فتعقّلوا وكظموا الغيظ ليفوّتوا الفرصة على فتنة محتملة. بمثل هذا الموقف الذي يستحقّ الثناء يُبنى لبنان المستقبل، لا بالشعارات التي تدّعي حبّ لبنان أو الدفاع عنه حتى قتله أو تخريبه.

من المحتج ومن المسيء؟

2 - من سمات الاجتماع البشري، بما هو مسرح للتنافس والمجابهة أو للمفاضلة والاعتداد، أن الناس، أفراداً وجماعات، يعملون على خلق صور نمطية سلبية تسيء من الواحد إلى الآخر أو تشوه سمعته أو تنتقص من قدره، خاصة عندما تسود بينهم علاقات الكره والعداء، كما هي حال العلاقات بين أتباع العقائد والمذاهب القديمة والحديثة، وبخاصة بين أتباع الديانات التوحيدية، حيث الواحد يلجأ إلى أبلسة الآخر، بأن يخلع عليه أسوء النعوت أو أبشعها. بالطبع هناك استثناءات على منطق الهوية وأفخاخها، من جانب ذوي العقول التنويرية والنقدية المنفتحة، من الذين يرون مساوئ الذات ومحاسن الآخر، أو من الذين يتمرأون مع الآخر، فيرون فيه ما كُنّاه أو ما قد نكونه أو ما نتمنى أن نكونه، كما نجد المثالات البارزة على ذلك لدى ابن عربي أو لدى غوته.

غير أن التشويه لا يأتي دوماً من الغير. قد يقدم الفرد أو المجموع من الناس على أعمال ترتد عليه سلباً وتشوه سمعته، سواء بين نظرائه وأنداده أو في مجتمعه وبين قومه. والسؤال الذي يمليه الحدث هو: مَن يشوّه سمعة مَن؟ هل الغربيون والدانماركيون هم الذين يسيئون إلى الإسلام ونبيه أم المسلمون هم الذين يفعلون ذلك، بفبركتهم صوراً ونماذج عن النبي والإسلام كاريكاتورية، هزلية، بائدة، هي التي ينتقدها أو يسخر منها الآخرون؟ أليس هذا ما يقوله ويفعله

الأصوليون الناشطون على المسرح العالمي في غير جانب من جوانب الحياة، من العودة إلى برقع المرأة إلى الفتوى التي تُجيز ملامسة الأنثى ولو رضيعة بقصد الاستمتاع، ومن طعن كاتب كنجيب محفوظ للفوز برضوان الله كما هي الفتوى أيضاً، إلى خطف مدنيين أبرياء وقطع رؤوسهم أمام الملأ، فقط لأنهم غير مسلمين، للفوز بالحور العين في جنة الفردوس[1]؟

أليس هذا أيضاً ما فعله المتظاهرون، في بيروت، بحجة الردّ على الإساءة، بما أحدثوه من شغب واضطراب واعتداء همجي على الأشخاص والمؤسسات والممتلكات: الإساءة على نحو مضاعف إلى الذات، لكي يكونوا موضع السخط والهزء من جانب الغير. وهكذا فنحن الذين نقدم أنفسنا بصورة تجعل منها مادة السّخرية، وتلك هي الفضيحة.

بهذا المعنى، فالسخرية، عند مَن يحسن القراءة، لم تكن من النبي الغائب، بل من أتباعه المعاصرين، الذين يعيشون علاقتهم بالماضي والسلف والتراث، بصورة كاريكاتورية، بائسة، فقيرة، هزيلة، مقلوبة، إذاً، غير راهنة بل غير حضارية، بما هي نقيض العصر بلغته وقيمه ومعارفه ومفرداته. وذلك هو الزيف والادعاء، في دعوى تطابقهم مع السلف. نعم إنهم يشبهون الأُوَل من حيث الحرف والرمز أو الطقس والشكل، ولكنهم أبعد ما يكون عنهم، من حيث القدرات الخارقة والطاقات الحية والمبادرات الفذة والفتوحات الكونية والمنجزات الحضارية. فلا نهوّلن إذاً بالاحتجاج على الإساءات، فنحن نسيء إلى أنفسنا أكثر مما يسيء إلينا الغير، كما هي المثالات والنماذج البشرية التي نصنعها ونصدّرها إلى العالم، لكي تشهد علينا بأننا غير جديرين بما نطرحه، وأننا أقل بكثير مما ندّعي، مقدمين بذلك الدليل، تلو الدليل، على أن ما نقوم به هو مجرد ردات فعل لا تساوي الفعل نفسه، بل ترتد علينا بالضرر والخسران.

---

(1) ولنتوقف عند ما يقوله قائد بارز من قيادات العمل الإسلامي على ساحة من ساحاته: إن أعمال بعض الأصوليين الجهاديين "تسيء إلى الإسلام وتشوّه سمعة الحركة الإسلامية والمشروع الإسلامي". هذا ما صرّح به الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله في حديثه إلى الأستاذ غسان شربل رئيس تحرير جريدة "الحياة" (2006/1/18).

هــذه حــال مَــن يعسكر وراء هويته وتراثه أو يعصم نفسه وينــزه أفعاله، بالــتعامل معهــا كأقانــيم متعالية على الأحداث والتجارب أو على الأهواء والمــصالح: أن يمارس الحجب والمحو أو النبذ والاستئصال للآخر، لكي ينتهك بالــذات مــا يــرفعه من شعارات، سواء تعلق الأمر بالله أم بالعقل، بالنبي أم بالمسيح، بالمقاومة أم بالسيادة، بالحقيقة أم بالحرية. أليس هذا ما تفعله الحرب على الإرهاب: المزيد من العنف الفاحش؟!

وهــذه حال من يفكّر ويعمل تحت مفردات الألوهة والقداسة والعصمة، لكي يدّعي القبض على الحقيقة، أو لكي يزعم التماهي مع الأصل، أو لكي يحتكر المــشروعية، تحت شعار من الشعارات: أن يخرج على الشرعية وينتهك قواعد الحياة المدنية. وهذه حال من يعمل على تجييش جموع المؤمنين في الساحات أو حشدها إلى التظاهرات، غضبى، هائجة، ترفع قبضات الأيدي، وعيداً وتهديداً: خروج التنين الديني والمذهبي، بنــزعته التدميرية، من دهاليز الذاكرة وكواليس الوعي، لكي ينفجر عنفاً وتخريباً أو فتناً واضطراباً.

مقدساتنا هي مصنع أزماتنا

3 - ولذا، ما جرى يوم الأحد، لم يكن دسيسة، ولا هو بالطبع، مجرد انحراف عن الخط المستقيم، كما يعلق المعلقون الذين صدمتهم التصرفات الفاشية والأعمال البربرية، أو كما يفتي المفتون بتجريم التظاهر، ولكن بعد فوات الأوان.

فما نستنكره من تصرفات أولئك الشبان، الذين كان الشيوخُ يحاولون صدّهم عن التخريب يوم الغزوة، هو ما زرعناه، منذ عقود، في العقول والنفوس، من نــصوص وتعاليم ومعايير وأحكام وفتاوى لا تعترف بالآخرين الذين نطالبهم بــأن يعترفوا بنا وبمقدساتنا، بقدر ما تولّد أجواء من البغض أو تطلق موجات من العداء ضدهم في الداخل والخارج.

وهكــذا فمــا نُدينه ونتبرّأ منه، هو من بنات فكرنا الأحادي وعقولنا المغلقة وعقائدنا الاصطفائية وهوياتنا النرجسية وتعاليمنا الأصولية ومتاريسنا المقدسة. باختــصار: إنــه ثمرة ثقافتنا ومؤسساتنا التعليمية الدينية التي أنتجت النموذج

الإرهـــابي والمخــرب الأمي، كما أنتجت الأبله الثقافي المقلّد لشيخه أو أميره تقلــيداً أعمـــى، فــضلاً عن المفسر المشعوذ الذي يدّعي أن كل ما أنتج من المعارف العلمية الحديثة، منصوص عليه في القرآن. وإلا كيف نفهم أن يتحول المظلــوم إلى ظـــالم، والمــصلح إلى فاسد، والمخلّص إلى مجرم، والضحية إلى جـــلاد... بـــل كيف نفهم أن يتحول الجهاد إلى فتنة، وصاحب الدعوة إلى إرهـــابي، والمحتجّ على الإساءة إلى مسيء؟! أو كيف يمسي الدفاع عن الوطن فـــوق الوطن وأولى من الدولة؟! إنها مقدساتنا وثوابتنا التي هي مصانع أزماتنا بقدر ما هي مادة انتهاكاتنا المتواصلة والفاضحة.

هـــذه هـــي حصيلة التمترس وراء الثوابت المقدسة وعبادة الأصول والسلف: إقامة علاقة ادعاء أو زيف أو ضلال أو دمار مع القضايا، بالتعامل معها بمنطق إيماني، ثبوتي، قدسي، فردوسي، وبصورة تجعلها تنقلب ضد أصحابها، بقدر ما تجـــرّهم بوعي أو بغير وعي إلى أن يؤمنوا بالله والإنسانية والنصوص والحقيقة والحق، حتى التوحش والبربرية أو التهويم والتشبيح أو المحق والظلم.

فـــلا نـــنخدعنّ إذاً، بمـــا يعلنه الدعاة القدامى والجدد، فنحن لسنا كما نقدّم أنفـــسنا، وكما نعلن عن مقاصدنا، وإنما نحن ما لا نعيه وما نفاجأ به ونصدم، بقـــدر ما نفكر ونعمل بعقول مفخخة ومقولات مستهلكة وخطابات مراوغة ونـــصوص مـــشتبهة ومفاهـــيم تتردّد بين المتعارضات، بقدر ما تتغذى من الصدمات والعُقد أو الترسبات والمعميات أو الهواجس والكوابيس. والثمرة هي بالطبع أن الضد يستدعي ضده ويتسلل إليه، أو يتواطأ معه ويخدمه.

هـــذا ما تشهد به ثنائية المعسكرين المتناحرين، الجهادي والإنجيلي أو الأصولي والإمبريالي، اللذين يلتقيان على تأجيج نار الحرب الأهلية على المسرح الكوني، بمنطق النقاء الثقافي والصدام الحضاري والحكم الشرعي. إنها الجرثومة الأصولية الاصطفائية التي لا تصنع سوى المآسي والكوارث.

الفتوى والشكوى

4 - أمر آخر تستثيره قراءة الحدث الذي هو صناعة دينية وطائفية بامتياز: إنه من الصعب تجاوز المأزق في لبنان، بأفخاخه وألغامه، من دون تغيير صورة اللبناني

عن نفسه، بحيث تنكسر الثنائية التي تقسم اللبنانيين، بصورة أبدية، إلى مسلمين ومسيحيين، كما نعلن ونقسم أمام الحشد العظيم[1]. فهذا هو بيت الداء وأصل العلة، في ما نشهده من أحداث متلاحقة وعصبيات متناحرة وفتاوى بائدة يشتغل اصحابها بالتكفير والتحريم، كتلك الفتوى التي أصدرتها منظّمة أصولية سنّية، والتي تقضي بتكفير رجل ديني شيعي وتنذره بالخروج من دار الاسلام[2]. من هنا فإن الذين اجتمعوا، من سنة وشيعة، يومئذ، لاستنكار تلك الفتوى الجهادية، قد تحدثوا بلغة الديبلوماسية او الخديعة، بقدرِ ما شهدوا على جهلهم بما تمليه الثقافة المذهبية لدى كل من الطرفين اللذين يختلفان بالمضامين والرموز، ولكنهما يتطابقان من حيث منطق الإقصاء والتفكير بعقلية الفرقة الناجية وحدها من دون سواها.

هذا المنطق هو الذي جعل الشيخ الشيعي، يُعامل مواطنيه، من أبناء طائفته، بمثل ما عومل به، اي بلغة التحريم والتأثيم، إذ أفتى بتحريم دخول الحكومة، على أي لبناني من الطائفة الشيعية[3]. الامر الذي استثار الكثيرين الذين اعتبروا مثل هذه الفتوى، تدخلاً في شؤونهم السياسية واعتدائهم على حقوقهم المدنية، فرفعوا دعوى ضده بموجب أحكام القانون المدني اللبناني.

وكان من الطبيعي أن تتعاطف المراجع الدينية، بغالبيتها إن لم يكن كلها، مع

---

(1) إشارة الى القسم الذي أطلقه، إبّان ما سُمّي في لبنان "انتفاضة 14 آذار"، الصحافي جبران تويني، الذي كان ضحية المسلسل الارهابي الذي بدأ باغتيال رئيس وزراء لبنان رفيق الحريري في 14 شباط 2005. ومن المفارقات ان هذا القسم: "نقسم بالله العظيم، مسلمين ومسيحيين، أن نبقى موحّدين، دفاعاً عن لبنان العظيم"، يتعارض مع التوجّه الذي شكّلته الانتفاضة المذكورة، خاصة بأجيالها الشابة التي كانت تتطلع الى بلورة صيغة جديدة للبنان، على أسس وطنية جامعة، لكسر احتكار الطوائف لقانون الأحوال الشخصية.

(2) إشارة الى الفتوى التي أصدرتها المنظمة الجهادية العاملة تحت اسم "جند الشام"، ضد شيخ شيعي من تجمع علماء جبل عامل (جبل عامل)، لتطلب منه الخروج من مدينة صيدا بوصفها مدينة أحد الصحابة، فلا يجوز له البقاء فيها.

(3) هذا ما حصل بعد انسحاب الوزراء الشيعة الذين يختارهم "حزب الله" و"حركة أمل"، من الحكومة، أول مرة، قبل حرب تموز. والانسحاب والمقاطعة والاستقالة، هي مثالات على حق النقض، أي الفيتو، التي تمارسه الآن الطائفة الشيعية بأحزابها وقواها السياسية، والذي مارسته او تمارسه عموماً الطوائف اللبنانية في دولة المحاصصة، وذلك حيث الأفراد هم رعايا لا مواطنون.

الـــشيخ، بخصوص الدعوى التي رُفعت ضده. وهذا ما فعلوه من قبل في قضية الـــزواج، حـــيث الجمـــيع عارضوا مشروع الزواج المدني، لمن شاء الخضوع لأحكامـــه، لكـــي يقدموا الدليل مرة أخرى، على أن البيانات ضد التطرّف والانغـــلاق، وأن الإعلانات من أجل دعم الولاء الوطني والقيم الإنسانية، هي مجرد ديكور إعلامي لا يصدر عن أصالة الموقف الوطني والحس المدني والموقف العقـــلاني. فالكـــلّ يمارسون الفيتو ضداً على الدولة. هذا ما تفعله كل طائفة كـــبيرة، بالتناوب، عندما تشعر او تتوهّم بأن حقوقها منقوصة؛ او بالعكس، عندما تظن بأنها تملك من القوة ما يتيح لها نقض نظام المحاصصة للمطالبة بحصّة أكـــبر. من هنا فإنّ أهمية الدعوى، التي تُرفع لأول مرة، ضد رجل الدين، من قبل لبنانيين يتصرفون كمواطنين في بلدهم، لا تأتي فقط لكونه ينتهك القانون اللبـــناني والحـــياة المدنية بفتواه ومحرماته، بل لأن الشكوى، بمدلولها الرمزي، تحـــاول كـــسر منطق الفتوى الذي يخرب صيغ التعايش بين اللبنانيين، أو بين المسلمين، أو بينهم وبين الناس أجمعين.

ولا يعـــني ذلك أنه ليس لرجل الدين أن يعمل بالسياسة. فهذا العمل هو حقه المـــشروع، كـــأي مواطن، ولكنه عند ذلك يفقد حصانته الرمزية ويخرج من معاقلـــه القدسية، لكي ينخرط في المداولة العقلانية ويخضع للمناقشة العمومية من غير محرمات أو مصادرات.

أيـــاً يكـــن الأمر، إن التعامل مع الفرد من خلال هويته الطائفية هو اختزال لشخـــصيته إلى بعد واحد من أبعادها، لعله ليس الأهم. والممكن، الآن، فيما ينفـــتح أمامـــنا الأفـــق، كـــسر القوقعة الطائفية أو الوطنية أو الأيديولوجية للاعتراف، بأننا عندما نجلس إلى بعضنا البعض، على طاولة المداولة، لسنا مجرد مسيحيين أو مسلمين ولا مجرد دروز أو سنة أو شيعة أو موارنة أو كاثوليك أو أرثوذكس أو أقباط أو لاتين... وإنما كل واحد منا هو متعدد الانتماء، بتعدد البيـــئات والحقول والدوائر والأمكنة التي يحيا في كنفها أو يعمل فيها أو يتردّد إلـــيها أو يتـــنقل بينها، كالأسرة والحي والشارع والمقهى والنادي، والنقابة والحزب والتجمّع، وبخاصة المهنة والمصلحة.. فضلاً عن الندوة الإقليمية والهيئة

الدولية. بهذا المعنى، فما يجمع بيني وبين من تجمعني بهم حرفة الكتابة ومن أجتمع بهم يومياً، في المقهى أو في أمكنة العمل، ممن هم من غير الطائفة التي أُحسب عليها، ليس أقل مما يجمعني بأبناء طائفتي الأصلية وبيئتي الأولى، بل لعله الأقوى والأدوم، والأساس في إعادة البناء. أما إذا كانت شخصية الواحد منا تختزلها علاقته بالشيخ والكاهن أو بالجامع والكنيسة والخلية، كما يراد لنا في لبنان، وفي غير بلد عربي، فلا نتحدثن عندئذ عن النهوض والإصلاح والاتحاد وإعادة البناء.

5 – خلاصة القول: لسنا دوماً ضحايا الغير، وإنما نحن في الأكثر ضحايا أفكارنا التي تصنع أحداثاً ترتدّ ضدنا أو تقودنا إلى ما ندّعي محاربته. ولا غرابة فالأفكار والأحداث تتفاعل، بقدر ما تشكل إمكانات بعضها لبعض. قد تطلق الفكرة الحدث وتسهم في صناعته. ولكن الحدث قد يتعدّى صانعيه، لكي يحملهم على إعادة النظر في الفكرة، على سبيل التغذية والتجديد، أو التوسيع والتطوير، تجاوزاً وتركيباً. مما يعني أن الممكن هو أن نراجع ثوابتنا وعقائدنا ومقدساتنا، إذا شئنا أن لا تصرف، بما يسيء أو بما لا نحب ونشتهي. وهذا أقل ما يمكن فعله، بقدر ما يعني أن التغيير، بصورة إيجابية وبناءة، للسيطرة على الأحداث أو المساهمة في صنعها وإدارتها، لا ينجح من دون تغيير يمسّ خرائط الفهم وأنماط التفكير وقواعد التعامل.

ومؤدى ذلك على مستوى العلاقة بين النظراء أو الأنداد، أو بين الهويات الثقافية، هو الكف عن تأليه أو تنـزيه الذات لأبلسة الغير. فالآخر هو شطرنا الذي لا مفر منه، خاصة في عالم اليوم، إنه وسيط لا غنى عنه. وأما محاولة نبذه أو إلغائه أو أبلسته، فإنها ترتد علينا سوءاً بقدر ما تجعله أسوأ مما كان عليه، لكي تجعلنا في الوقت نفسه الوجه الآخر له، أي أسوأ مما كنّا فيه. وتلك هي المفارقة: مزيد من التأليه والتنـزيه، لمزيد من الحرائق والخرائب.

الأكذوبة والخديعة
في قضية الدين والعلمانية

مـــا أراه أن المتعارضـــات التي نقيمها بين الدين والدنيا أو الدين والدولة أو الإسلام والعلمانية، باتت ثنائيات تطمس الوقائع وتموّه المشكلات، بما تنطوي عليه مـــن التبسيط أو الخداع والزيف. ولذا فهي تحتاج إلى التشريح والتفكيك، لإعادة البناء والتركيب من غير وجه:

1 – الـــدين هـــو تجربة بشرية لا ينفصل فيها الطابع القدسي أو المتعالي عن الواقع الدنـــيوي، أي لا ينفك المعنى عن لغته ولا الفكرة عن حاملها ولا العقيدة عن مؤســـساتها وتأويلاتهـــا أوترجماتها. وهذا شأن الإسلام، سواء بنصه الأول أو بتفاســـيره وقـــراءاته، فهو لم يكن يوماً متعالياً، كما يعتقد الذين يلعبون لعبة الفـــصل بين القرآن وتفاسيره أو بين المبدأ وتطبيقاته، وإنما نحن إزاء خطاب أو كـــلام، كان يتشكل، يوماً بعد يوم، في أتون التجارب ومعترك الصراعات، استجابة لحاجات ومطالب أو لظروف وتحديات وجودية أو معاشية أو سياسية.

بهـــذا المعـــنى فالإســـلام هو معايشاته الدنيوية وتحولاته التاريخية وقراءاته المتعددة ونـــسخه المتبدلة، الإيجابية أو السلبية، البناءة أو الهدامة... وهو بذلك، شأن أي عمل أو كيان أو نص أو شيء، إنما هو معطى وجودي مفتوح على الاحتمالات والخـــيارات والخطوط المختلفة أو المتعارضة، أي هو رهان يتوقف على فهمنا له وطريقة تعاطينا معه أو توظيفنا له. فهو، إذاً، متعدد كما يشهد تاريخه وصراعات الفرق والمذاهب فيه، بسجلّه وسجالاته ومعاركه، وذلك منذ حادثة السقيفة قديماً إلى الحرب الأهلية بين السنة والشيعة حديثاً. فالأجدى أن نعترف بأننا إزاء حقيقة إســـلامية مـــتعددة، حتى لا يحتكر الواحد المشروعية بعقلية الفرقة الناجية، لكي يستبعد الآخر أو يشن الحرب عليه، أو بالعكس.

2 - لا مجـتمع يخلو من وجوهه وأبعاده المدنية أو العلمانية. وهذه حال المجتمعات الإسـلامية، فهـي وإن تشكّلت تحت عباءة المقدّس الإلهي، ونظّمت شؤونها بحسب أحكام الشريعة الدينية، فإنها لا تخلو من توجّهات وأبعاد علمانية، ولا مجال لأن يكون الأمر غير ذلك، ما دمنا نقيم في الحياة الدنيا وننخرط في هذا العالم. وعلى هذا النحو أتأمل الحديث القائل: أنتم أعلم بشؤون دنياكم. فهو إذ يجمع بين صفتين من صفات العلمانية، الدنيا والعلم بها، إنما يعني أن الإنسان ليس قاصراً، بل هو يحمل المسؤولية عن نفسه بالعمل على تدبّر وجوده بالمعرفة والخبرة والدراية.

قد يُقال هنا، على سبيل الاعتراض، بأن الدنيا هي طريق إلى الآخرة، سواء في الإسلام أو في الأديان عامة. هكذا تعلن الأديان عن نفسها. ولكن إذا شئنا أن لا نـؤخذ بما ينطق به الخطاب، لكي نأخذ بما يسكت عنه، نجد بأن الدين هو في الـنهاية نمط للعيش في الحياة الدنيا من بين أنماط أخرى، بقدر ما هو شكل من أشكال السيطرة على البشر أو إدارة شؤونهم. والذين ينفون ذلك، توكيداً علـى الجانـب الغَيبـي والقدسي، ينتهكون المقدسات بقدر ما يجحدون دنيويتهم أو يعيشونها بصورة سيّئة أو مزيّفة[1].

3 - من الأمثلة على الأبعاد العلمانية في المجتمعات الإسلامية حرية التفكيرالتي كان يتمـتع بها الزنادقة والفلاسفة الدهريون والعلماء المنكرون للنبوات، والفلاسفة الالهيون الذين جعلوا الشريعة في منـزلة أدنى من منـزلة الفلسفة، هذا فضلاً عـن المفكرين الذين مارسوا هويتهم المنفتحة والمركّبة بصورة كوسموبوليتية، كمـا هي الحال لدى أعلام كالفارابي وابن رشد أو الرازي وابن الراوندي أو المعـرّي وابـن عربي. ومن المعلوم أن الفلاسفة احتلوا مكانة رفيعة في المجتمع الإسـلامي، وكانوا مقربين إلى الخلفاء والسلاطين، بوصفهم جزءاً من الجهاز العلمـي والقطاع المعرفي. صحيح أن بعضهم تعرّضوا لِتُهَم التكفير أو للمحن. ولكـن ذلك كان استثناء. هناك فقهاء جرى أيضاً تكفيرهم وتعرّضوا للأذى.

(1) راجـع بهـذا الخـصوص كتابي، نقد الحقيقة، اللاهوت والناسوت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة.

وهذا ما ينساه المشتغلون بثنائية الإسلام والعلمانية: الصراع بين المذاهب الإسلامية كان أقوى وأشرس من الصراع ضد من هم معدودون خارج الفلك الديني.

4 – ومن مظاهر العلمانية، أيضاً وخاصة، الانفصال، أو التمايز بين المؤسسة الدينية والمؤسسة السياسية، بين الفقهاء والسلاطين، إذ كان يومئذ لكل جهاز اختصاصه ومجاله ودوره. من هنا لم تُسَمَّ الدول بمسميات إسلامية، بل سُمّيت بأسماء بناها والقائمين بها، كالدولة العباسية أو الخلافة الفاطمية أو السلطنة العثمانية... أما الصفة الإسلامية، فإنها كانت تطلق على ما نسميه اليوم العالم الإسلامي، وما كان يسمى يومئذ "دار السلام" مقابل دار الحرب، وذلك للفصل بين الداخل والخارج. وقد شكّل العالم الإسلامي، كما هو معلوم، فضاء حضارياً واسعاً، ضم توليفة مجتمعية مركّبة من تعدد اللغات والثقافات والأعراق والأديان، وإن تحت يافطة الإسلام وهيمنة اللغة العربية.

5 – ولذا، فإن الهوية في الداخل، لم تكن تحتاج إلى التسمية الإسلامية التي كانت من البداهات، وإنما كانت تتزيّا بأزياء الهويات العرقية أو المذهبية، كما كانت تعبّر عن نفسها التمايزات الحادة أو الصراعات العنيفة بين عرب وفرس وكرد وترك وبربر... من جهة، أو بين سنّة وشيعة ومعتزلة ومرجئة... من جهة أخرى، هذا فضلاً عن الصراعات بين الفرق الإسلامية كلها وبين أصحاب الديانات والفلسفات.

واليوم نجد أن هذه الصراعات القديمة تأتي من أقاصي الذاكرة ومن كهوف التاريخ، لكي تبرز على السطح وتترك مفاعيلها السلبية، كما يترجم ذلك فتناً مذهبية أو طائفية أو عرقية تمزّق المجتمعات العربية، لكي تفضح هشاشة الوحدات العقائدية أو الوطنية. وهذا مآل الفكر الآحادي والاشتغال بمنطق التسامح الذي يقوم على التساهل مع الآخر، مع الاعتقاد بخطأه والانتقاص من مشروعيته. إنه يلغّم المجتمعات والهويات، بقدر ما يطمس أو ينفي ما تنطوي عليه من التنوع والتعدد.

6 – وهكذا فإن التسمية الإسلامية برزت إلى الواجهة وأصبحت العنوان في العصور الحديثة، في مواجهة اجتياح الغرب للبلدان الإسلامية، حيث أُثيرت

مـــسألة الهوية من حيث علاقتها بالدين والغرب معاً؛ هذا ما تجسّد في ثنائيات الأنـــا والآخر، أو المسلمين والفرنجة، أو التقليد والحداثة، أو السلفية والعصرنة... وقد تفاوتت الاتجاهات والمواقف، ما بين متطرف ومعتدل، أو سلفي وحداثي، أو محافظ وثوري، أو إصلاحي وتقدّمي، أو أصولي وعلماني...

وإذا كـــان إصـــلاحيو عـــصر النهضة الذين فاجأهم الحضارة الغربية وبهرتهم بـــتقدّمها وتفوّقها، قد حاولوا، على سبيل الإحياء وإعادة البناء، التوفيق بين الاصالة والحداثة، بين الوفاء للماضي ومطالب العصر، فإن الدعاة الجدد الذين اصطلح على تسميتهم بـــ "الأصوليين"، تمييزاً لهم عن السلفيين التقليديين، قد عـــادوا إلى الوراء، فرفضوا كل ما طرح منذ عصر النهضة، وألغوا الفصل بين الدوائـــر والمجالات أي بين السلطة السياسية والسلطة الدينية. ولذا، فقد رفعوا شـــعار الحاكمـــية الإلهـــية، ونادوا بأن الإسلام هو الحل، لكي يعملوا بمنطق الأســـلمة الـــشاملة للحياة والاجتماع والسياسة والاقتصاد والثقافة، وبصورة تطال مختلف المجالات والمؤسسات والشؤون والمصالح.

هـــنا بـــرزت تسميات مثل الأخوان المسلمين، الجماعة الإسلامية، الحكومة الإســـلامية، الجمهـــورية الإســـلامية، الإمارة الإسلامية، المقاصد الإسلامية، المـــصارف الإسلامية؛ حتى العلوم والمعارف التي كانت، في العصر الإسلامي تسمى بحسب مناهجها ومجالاتها، نقلية أو عقلية، عرفانية أو برهانية، قد أسبغ علـــيها الطابـــع الإســـلامي، فـــصرنا نسمع بعلم نفس إسلامي، بل بأدب إسلامي[1]... وبالطبع فقد استفاد الأصوليون، بطرحهم الحل الإسلامي، من فـــشل المشاريع والبرامج التي طرحت تحت يافطة الحداثة والتقدّم والعلمانية، سواء لدى القوميين أو لدى الاشتراكيين واليساريين عامة.

وهكـــذا، بعـــد أن كـــان الإسلام فضاء واسعاً جامعاً، صار دولة وحكومة ومذهباً ضيقاً أو قوقعة خانقة وحزباً فئوياً. والأخطر أننا صرنا مع "الإسلام هو

(1) ولا ننـــسى العنوان الفاضح الذي سمّى به الاسلاميون في الصومال اسم حكومتهم او دولتهم، اعنـــي "المحاكم"، وكأنهم لم يأتوا الا لمعاقبة الناس، محوّلين الله والقرآن والاسلام، الى بعبع وجلاّد. هذا مع أن المحاكم، هي أحد أنشطة الدولة، وليس أهمها، لأن النشاط الأهم والأولى، هو الرعاية والحماية والتدبير وتحسين الاحوال.

الحـــل"، ازاء نمط وجودي مآله سيطرة البُعد الواحد على الحياة بصورة مرعبة وماحقة، تطال كل حركات المرء وسكناته من المهد إلى اللحد، بحيث إذا أراد المؤمن أن يتنفس، عليه أن يعرف، إذا كان ذلك يتوافق مع أحكام الشريعة، أو بالأصح مع أحاديث شيخه أو فتاوى أميره. وقد بلغ هذا المنحى أقصاه، لدى الـــذين أعلـــنوا رفضهم لكل ما أتى من جهة العالم الغربي من المفاهيم والقيم والنظم والعادات والأساليب، بوصفه غزواً واعتداءاً أو كفراً وضلالاً.

7 – ولكـــن إذا تأملـــنا الحصيلة على أرض الواقع، نجد أن كل ما يجري يكذّب خطـــاب الدعوة ويفضح هشاشة الأطروحة، أي يبين لنا بأن الأسلمة ليست الحل، بل العائق والمشكل والمأزق، وربما الكارثة، بقدر ما يبيّن أننا بعكس ما ندعـــي، على ما يترجم الشعار على يد الداعية التراثي أو الجهادي الأصولي، وذلـــك في مختلف وجوه الحياة وشؤونها، من حجب المرأة إلى تحريم الغناء، ومـــن فتاوى الحسبة إلى مصادرة الحريات، ومن نبذ الآخر إلى تدمير صيغ الـــتعايش، ومـــن ممارســـة الإرهـــاب إلى أعمال القتل والإبادة، مما يحوّل المجتمعات الإسلامية إلى معسكرات طائفية أو إلى سجون عقائدية، ويترجم الأفكـــار والدعـــوات إلى آلات للخراب والهلاك، بقدر ما يحيل الهوية إلى عُصاب أو فخ أو داء.

8 – ومع ذلك، لا يظن بأن الأصوليين ودعاة العودة إلى نقاء البداية وزمن النبوة، باستئـــصال كل ما هو غريب أو غربي وحديث، هم على قدر ما يدعون، بل هم على العكس: فهم يقولون بأن هذه الحياة ما هي إلا محطة عابرة للاستعداد إلى الآخرة، فيما هم يعيشونها بقضها وقضيضها، مستخدمين الترسانة الرمزية القدســـية لتـــشكيل أعتى وأسوأ السلطات الدنيوية. أما الغرب الذي يدّعون مهاجمته فإنه يخترقهم بمعارفه وقيَمه وأدواته من حيث لا يحتسبون. وهكذا فهم يدعـــون الـــصفاء، فيما هم يتعيشون على مبتكرات الغرب وأدواته وتقنياته وطبابـــته وسلعه... ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك. ففي زمن تتعولم فيه الهـــويات والمشكلات، يستحيل على المرء أن ينجو من التأثر بأحداث العصر وصنائعه ومنجزاته، إلا إذا أراد أن يعيش في المغاور والكهوف.

مـــن هنا وجه الخداع في إقامة تعارض بين الدين والدنيا، فيما هما شكلان من أشكال التحكّم والسيطرة. هذا وجه للخداع، أما الوجه الآخر فهو أننا ندّعي بـــأن الإســـلام يحـــضّ على طلب العلم، ولكننا لا نهتم بأن نعلم ما لم يُعلَم، باقـــتحام مناطق جديدة للتفكير أو بتشكيل فروع معرفية جديدة، بل نسطو علـــى المعارف المنتجة في الجامعات الغربية، لنسبتها إلى القرآن، على ما يفعل المفسّرون على سبيل الشعوذة والتشبيح.

هذه هي مشكلة المشروع الإسلامي على اختلاف نسخه وتنظيماته ومؤسساته ونخـــبه أو دعاته: تحويل الفكرة إلى محكمة للإدانة، والهوية إلى محمية عنصرية، والـــصحوة إلى عتمة دامسة، والسلام إلى حرب دائمة، والنهضة إلى مهاوي الـــتهلكة، والدعْـــوة إلى اســـتراتيجية قاتلة، وكلمة الله الجامعة إلى صراعات مجتمعية طاحنة. مما يحمل على القول مرة أخرى بأن المآل هو بعكس الادعاء، وبأن الوسائل تدمر الغايات. وهذا ما جعل المشروع الإسلامي يفقد مصداقيته ويتكـــشف عـــن فضائحه وكوارثه، لكي ينضم في سقوطه إلى ما سبقه من مشاريع قومية أو اشتراكية، من حيث العجز والإفلاس أو التردي التفكك. من هـــنا نلاحـــظ التحالف اليوم، بين الإسلاميين ومعظم القوميين والكثيرين من الاشـــتراكيين، في مواجهة ما يسمونه العولمة والأمركة أو الغربنة وأمثالها من التسميات.

هـــذا هو الوضع البائس والمتأزم، على اختلاف المرجعيات والشعارات، لدى التـــراثيين، والحداثيين، كما لدى الأصوليين والعلمانيين، ممن أعلنوا أنه لا حل إلا بالوحدة أو الاشتراكية أو الإسلام أو حتى الديموقراطية... فالحلول القصوى لا تنتج سوى التعثر والفشل والسقوط.

9 - لا ننـــسى هـــنا السياق العالمي الذي نحن فيه. فالأزمة هي على هذا المستوى كونـــية كوكبية، ولذا فهي تضرب الحداثة على أرضها، مع الدخول في عصر العـــولمة والمعلـــومة والشبكة والصورة، وبصورة تطال مختلف العناوين الحديثة كالعقلانـــية والاســـتنارة والديموقراطية والتقدّم والليبرالية... إذ أصبح من غير المجـــدي مجابهة العصر الجديد بفتوحاته وانفجاراته وثوراته وموجاته وحركاته

وقـــواه، وســـائر تحدياتـــه، بالأنماط والأشكال والأطر والصيغ والمؤسسات والقـــواعد والآليات التي كانت سائدة في العصر الصناعي أو في عصر الحداثة الأولى. ومن هنا فالأزمة ليست طارئة أو عارضة، وإنما هي أزمة بنيوية تعني أن العناوين والنماذج تنتج مآزقها بقدر ما تؤول إلى أضدادها.

هـــذا في الغـــرب، أمـــا في العالم العربي، فالأزمة مضاعفة بقدر ما هي مزمنة ومركّبة، إذ هي حصيلة الفشل سواء من جهة الدعاة الإسلاميين الذين عجزوا عـــن تحويل العلاقة بالتراث إلى معارف حيّة أو إلى ابتكارات معاصرة إو إلى صيغ حضارية راهنة، أو من جهة حملة المشاريع الحديثة الذين كرّروا العناوين طـــوال عقود دون أي تجديد أو تطوير في مفاهيمها وصيغها وآلياتها. وهكذا فالـــذي حـــصل هو التعثّر والتراجع أو التبسيط والافقار أو المسخ والتشويه، يـــستوي في ذلك ديناصورات التراث وعجزة الحداثة، إذ كلاهما اشتغل بعبادة الأصول وتقليد النماذج قديمة كانت أو حديثة.

والأطـــرف أو الأكثر بؤساً، هم أولئك الدعاة والمثقفون الذين كانوا يرفضون من قبل الشعارات الحديثة ذات الطابع الليبرالي، إما دفاعاً عن الحل الإسلامي أو عن النظام الاشتراكي. فإذا بهم يعودون إليها الآن، ولكن بعد فوات الآوان وخراب البصرة، أي يعودون إلى نسخ قد استهلكت وصدئت وباتت محتاجة إلى الـــتغذية والـــتهجين وإعادة البناء، إذ لا يمكن الآن أن تمارس الديموقراطية والليـــبرالية أو المواطنة، في العصر الميديائي وعصر الشركات والثقافات العابرة للقـــاءات، كمـــا كانت تمارس في العصر الصناعي الأول؛ تماماً كما لا يمكن للعقلانية أن تمارس الآن، كما كانت تمارس بمسبقات كنط أو نقائض هيغل أو مادية ماركس أو إنسانيات سارتر أو منطق تشومسكي.

10 - في ضوء هذا التشخيص للأزمة الكونية والعربية، التي تطاول مختلف العناوين والمـــشاريع والاتجاهـــات، أخلص إلى القول: ليست المسألة الآن أن نختار بين الإســـلام والغـــرب، أو بين الدين والدولة، أو بين السلفية الخاوية والعلمانية اللاهوتـــية، أو بـــين الأصولية التكفيرية والحداثة العاجزة، أو بين البيروقراطية المستبدة والامبراطورية الطاغية. هذه ثنائيات عقيمة قد استهلكت وباتت بمثابة

كماشات عقائدية تلهي عن النظر في المشكلات الفعلية، بقدر ما تشل الطاقة الحيوية على الخلق والابتكار، وتسدّ الأبواب أمام فرص التغيّر والتحوّل، سعياً للخروج من المآزق وابتداع الحلول والبدائل.

المسألة هي أن نفرق بين نمطين في التعامل مع الأفكار والهويات والمشاريع والقضايا والمصالح.. ثمة نمط وجودي أصولي، أحادي، مغلق، اصطفائي، أو عنصري أو ديكتاتوري أو امبريالي، يعمل أصحابه على شحن النفوس وحشد البشر وعسكرة المجتمعات واختراع الأعداء لشن الحروب، كما تشهد النماذج والنسخ، عربياً وعالمياً، من الستالينية إلى الماوية، ومن الفاشية إلى الصهيونية، ومن الأصولية الجهادية إلى الأصولية الانجيلية. ولا عجب أن تؤول المشاريع مع هذا النمط إلى أضدادها، ويدمر القضايا حراسها، ويتواطأ حُماة الهوية مع أعدائها. وتلك هي الثمرة السيئة للمعادلة التي تتحكم بحياتنا: آلهة جدد على المسرح العالمي، مزيد من الخراب البشري والكوني.

هذه هي الحال إجمالاً في المجتمعات العربية: نحن نؤمن بالله والعقل والحرية والعدالة والإنسانية حتى الكفر والإرهاب والجنون والخرافة والاستبداد والبربرية، كما نؤمن بالوحدة والعروبة والإسلام والتحرير حتى النزاع والاقصاء والشرذمة أو حتى التخريب والتدمير... وهذه حال الأمن الذي يجري حفظه عندنا حتى تحويل الحياة إلى جحيم، كما تشهد بعض مدننا وأحيائنا، حيث القادة والزعماء المكلّفون بحماية الأمن هم مرعوبون وغير آمنين. فماذا تنفع حقاً الشعارات التي نتصارع حولها، أكانت تتعلّق بالله أم بالانسان، اذا كانت ستوصلنا الى الاقامة في مدن باتت، من فرط تدهور الامن وتفاقم العنف، أشبه بالثكنات العسكرية المسيّجة بمختلف الحواجز والأشرطة. وهذه حال من يتعامل مع الأفكار والقضايا بصورة صنمية، متحجّرة، عدوانية، أي بوصفها أقانيم مقدّسة أو حقائق مطلقة أو نماذج كاملة أو حلولاً نهائية أو هويات صافية ومغلقة.

ولنتأمل ما آل إليه المشروع الأسلامي الذي تُرجم صراعات طاحنة على المشروعية، من حروب الجوامع والمراقد في العراق إلى تمزيق أجساد الأبرياء

وتفجير المقرات المدنية في غير عاصمة عربية، ومن الاشتباكات العنيفة في حرم الجامعات أو المساجد في بيروت إلى الاشتباكات بالسكاكين والبلطات بين مسلمين في جامع أوسلو بالنروج، كما نسمع ونقرأ. مما يشهد على أن البديل الإسلامي ليس الحلّ، بل على العكس، هو الالتفاف على الحلول أو القضاء عليها، بقدر ما يعني أن الذين يشوّهون سمعة الإسلام هم أهله بالدرجة الأولى، وليس أهل الدانمارك أو الغربيين عامة.

وهكذا فنحن نحسب الحل مشكلة لكي ننتج مآزقنا من غير وجه كما تشير الشواهد، مما يعني أن المشكلة الآن ليس في أن الآخر ينكر الحقائق، أو لا يعترف بنا، ولا في كونه يريد تغييرنا أو الهيمنة على مقدّراتنا، بل في كوننا لا نعترف ببعضنا البعض، أو لا نحسن استثمار مواردنا، أو لا نتقن لغة الخلق للوقائع. كذلك ليست المشكلة في أننا ننسى الدين لمصلحة العلم أو نوظّف العلم ضد الدين، بالعكس إن المشكلة هي كوننا نوظّف المنتجات العلمية المعاصرة، على سبيل التشبيح والتهويم، لمصلحة الدين، بدل أن نهتم بإنتاج معارف جديدة أو غنيّة حول الدين أو حول العالم.

ولذا، فإننا لا نحسن سوى خسارة القضايا وتدمير معانيها، بقدر ما لا نعرف كيف نتغيّر، لكي نُسهم في إدارة العالم الذي يتغيّر مشهده بصورة جذرية ومتسارعة. هذا هو محك الجدارة والمشروعية. وهذا هو الاستحقاق الذي يهرب من مواجهته الذي يطرحون شعار الاسلام هو الحل، فيما بات الاسلام عنواناً مستهلكاً. والرهان هو اجتراح عنوان جديد لتجديد الهوية وإغناء الثقافة.

ولنتوقف عند شاهد بليغ على العجز: نحن نقول دوماً بأن الشورى هي البديل عن الديموقراطية أو لا تتعارض معها، ولكننا لم نحسن لا تطوير الشورى ولا تطوير الديموقراطية، ولا الجمع بينهما على نحوٍ مبتكر. ولذا، لم يظهر عندنا مثال ديمقراطي على غرار مانديلا، كما لم ننجح في بناء نموذج تنموي على غرار ماليزيا او تايلاندا، وهذا ما يشهد على عجزنا عن خلق ما به نثبت جدارتنا وننتزع الاعتراف بمشروعيتنا على المسرح العالمي، مما هو نافع أو مفيد أو ناجح من الصيغ والنماذج.

11 – ولذا ليست المشكلة الأولى في المجتمعات العربية مع الغرب ولا مع العلمانية أو الحداثة. هذا تهرّب من المسؤولية وطمس للواقع والحقيقة. فمشكلة الحداثة هـي مـع عجز أهلها، ومشكلة العلمانية هي في تحوّلها إلى لاهوت، كما أن مـشكلة الإسـلام ليـست مـع الغرب بل مع معتقده الاصطفائي ومنطقه الـتكفيري، ومـشكلة الدولـة ليـست مع الدين بل مع نظامها الفاسد أو الاسـتبدادي. وهكذا فالأزمة في المجتمعات العربية تكمن في الوقوع بين براثن المـنظمات الجهاديـة ونظام الزعيم الأوحد، بين الحشود العمياء وبين النخب الحداثـية المعزولة والعديمة الفاعلية، بقدر ما تكمن في العدة الفكرية المستهلكة والـصدئة بـرؤاها التبسيطية وثنائياتها الالغائية ومقولاتها الخاوية وعقلانياتها القاصرة ومناهجها العقيمة ونماذجها البائدة...

بهـذا المعنى، ليست القضية هي المحافظة على الخصوصية أو تعزيز ثوابت الأمة في مواجهة الضغوط الخارجية. بالعكس هذه هي المشكلة الكبرى التي تولّد الأزمات وتصنع الكوارث. ليس فقط لأنه من المستحيل التماهي مع الماضي الذي لن يعود كما هو عليه، إلا فقراً وإرهاباً وتخلّفاً، بل لأن دعاة المماهاة مع السلف الأول هم أبعـد ما يكونون عنهم. ذلك إن أهم وأغنى وأقوى ما عند الماضيين، ليس أنهم كانوا رسل السماء أو حملة شعار الإسلام أو دعاةً للشريعة السمحاء، بل كونهم فـتحوا العـالم وأعـادوا صياغته بقدر ما كانوا خلاقين، مبدعين، سبّاقين، بناة صـانعين. في حـين إن أسوأ وأضعف وأخطر ما عند الخلف المعاصر، هو انهم، مقلّدون، مغلقون، محافظون، عاجزون، تابعون، بقدر ما يتصرفون كدعاة يريدون للناس أن يكونوا نسخاً عن الأولين. والحصيلة برامج مستحيلة ومهام مدمّرة.

وهذا هو الفارق الكبير بيننا وبين الماضيين. فالدين بوصفه علاقةً بالمعنى والغيب، كـان يجـسّد عندهم حيوية الفكر وإرادة الخَلق والفتح، أما عندنا فقد حوّل الدين علاقتنا بالوجود الى قيدٍ وسجن او الى فخّ ومأزق، بل الى داء ووباء.

هـذه هي ثمرة الاشتغال بمنطق التأليه والتقديس والعبادة للأصول والنصوص والنماذج والمثالات والأشخاص، أكانت قديمة أم حديثة: أن نستقيل من التفكير بـصورة حـرّة، حيّة خلاّقة؛ أن تعصف بنا الأزمات وتفتك الأمراض المجتمعية

والثقافية، ثم هرب من مسؤولية المراجعة النقدية، وممانع محاولات تشخيص الآفات أو درس المـــشكلات. والحصيلة لذلك أن نعمل، من حيث لا نعقل، على هدر الجهود أو تبديد الثروات أو تسميم نظام الحياة وتخريب المجتمعات.

12 - مـــن هنا لم تعد القضية الآن، قضية دفاع عن الايمان الديني، أو برهنة على وجـــود الله، بالعـــودة الى أدلة مستمدة من محاججات العصور الوسطى[1]. فالمؤمنون، والمنخرطون في تيارات أو أحزاب دينية، هم اليوم اكثر بكثير ممن لا يـــنطلقون من منطلقات دينية، كما يشهد الانتشار الكاسح للرموز والشارات والازياء الدينية، سيما بعد اجتياح الأصوليات المتحاربة للمجتمعات والثقافات والساحات، بدعاتها وأمرائها وأحزابها ومنظماتها. ومع ذلك، والاحرى القول بـــسبب ذلك، يزداد الفساد والخراب وسفك الدماء. وتلك هي حصيلة الدين العائد، على يد الآلهة والأنبياء الجدد بأساطيرهم ومقدساتهم وثوابتهم وبرامجهم واستراتيجياتهم وحروبهم...

ولذا فما عاد كل من رفع راية الايمان او شهر اسم الله، يملك مصداقيته، بعد كل هـــذه الحرائق والخرائب والكوارث على ساحات العمل الديني. ما عاد كل من يرفع شعار الاسلام، يملك مشروعيته، بعد المآلات البائسة والنهايات المدمرة على يـــد الدعاة الجدد الذين ادّعوا أنهم أتوا للدفاع عن ثوابت الهوية أو لإصلاح الامة والبشرية أو لمقاومة الظلم والطغيان أو لنشر العدل والسلام، فإذا المشاريع تترجم بأضـــدادها: مضاعفة الظلم والاستبداد، تفاقم العنف والإرهاب، فتن أهلية تمزق جـــسد الأمة، ممارسات بربرية تنتهك كل الحرمات والثوابت والمقدسات، وكل ذلـــك يجري تحت يافطة الله المنتقم الجبار الذي يتحول من رحمن رحيم إلى بعبع وجلاّد، فيما الشيطان المتسائل، المجادل، المشكك، يبدو ملاكاً عاقلاً.

---

(1) هـــذا مـــا يفعله الانجيليون الجدد في اميركا، من اصحاب ما سمي "المخطّط الذكي"، إذ هم يعترضون على نظرية التطور، بالقول بأن ما ينطوي عليه الانسان، ككائن حي، من التنظيم الـــبالغ فـــي دقـــته وتعقيده، يعني أنه ليس من صنع الطبيعة بل من صنع فاعل يتمتع بالعقل والـــذكاء. وهـــذه الحجـــة الواهية، التي يستخدمها أصحاب المخطط الذكي ليست جديدة، إذ اســـتخدمها اللاهوتـــيون وعلمـــاء الكـــلام في الماضي، والجديد فيها هو صيغتها وتعزيزها باستخدام المعارف البيولوجية المعاصرة.

لم تعد المسألة إذاً أن نؤمن[1] أو لا نؤمن، وإنما كيف يترجم الواحد إيمانه او معتقده او مذهبه، أيا كان الشعار والاسم. فالدين لا يمكن أن يعود كما كان عليه، الا على النحو الارهابي والمدمّر، إذا لم يخضع لاجراءات تحويلية تطال مفهومه وممارسته، بحيث لا يُعامل كهوية سياسية ولا حضارية، كما يريد له المنظّرون ودعام الصدام والنقاء، بل بمجرد وازع ورادع، أي ممارسة للتقى تضع حداً بين الهويات المتحاربة، أكانت دينية أم طائفية أم مذهبية أم عرقية أم سوى ذلك.

13 – مقابل هذا النمط المدمّر الذي يجرنا إلى مؤخرة الركب العالمي أو يهوي بنا إلى الحضيض الأسفل أو يمزق مجتمعاتنا ويخرب عمراننا، هناك نمط آخر، يتمرّس أهله بالتواضع الوجودي والتقى الفكري والحسّ النقدي والتوجّه المستقبلي، بقدر ما يتقنون لغة الخلق والفتح، وبقدر ما يفكرون بعقل تداولي من مفرداته الفكر التركيبي والمنطق التحويلي والمنهج الوسطي التعددي القائم على الاعتراف بالآخر، والهوية الثقافية المفنوحة على عالم يزداد تشابكاً وتهجيناً.

أ – من هنا فإن أحوج ما يحتاج إليه العرب الآن، ليس الغرق في المفاضلات العقيمة بين الحل الديني والحل العلماني، وإنما هي مشكلة العجز عن الخلق والابتكار للصيغ والأطر والمعادلات الوجودية للمساهمة في صناعة الحضارة، عبر تجديد أو تطوير شبكات الفهم وخرائط الادراك أو انساق المعرفة أو مناهج الدرس أو معايير العمل وأساليب التنمية... فمقتل المشروع الحضاري هو الجمود المرضي عند مثال واحد أو نمط وحيد أو نموذج أوحد أو مذهب يلغي كل ما عداه. والأمم الحيّة والمجتمعات

(1) إذا كان ثمة حاجة للتدين، أو للاعتقاد عامة كما يقول الفيلسوف جاك بوفرس، فإنه وبعد كل هذه الفضائح والفظائع التي ترتكب تحت راية الاديان، لا مفرّ من اجراء تغيير على مفهوم الدين يتيح اعادة بناء المعنى الديني او العقائدي. وما أعتقده في هذا الخصوص، أن البشرية قد تتجه الى نمط من التدين، ذي طابع كوكبي او كوني، وليس ذي مرجعية غيبية او ماورائية؛ بمعنى أن يشعر الناس بأنهم مدينون لبعضهم البعض، على سبيل التوسط والشراكة والمسؤولية المتبادلة، كما يشعرون بأنهم مدينون تجاه الطبيعة وكائناتها، في هذه الحالة يشعر الواحد بأنه مدين لمن يصنع له رغيف الخبز أو الثوب، بقدر ما يشعر بأنه مدين للزهرة التي تزين الدنيا، أو للنبتة التي ننتفع بثمرها أو للحيوان الذي نتغذى بلبنه ولحومه. بالنسبة الى التمييز بين الحاجة الى التدين والحاجة الى الاعتقاد، راجع كتاب بوفرس: هل بإمكاننا أن لا نعتقد؟ منشورات آغون، مارسيليا، 2007.

المزدهرة هي التي تمتلك دوماً القدرة على تجديد الصيغ والأطر أو النماذج والأساليب.

ب - مـا يحتاج إليه العرب أيضاً أو ما يمكن فعله من وجه آخر، هو التمرّس بمـنطق التغيّر لمواجهة التحوّلات العاصفة بصورة إيجابية، بنّاءة أو مثمرة. ومن لا يفعل ذلك لا يحتفظ بثوابته، بالعكس فإنه يهمّش ويخسر ما يريد الحفـاظ علـيه ليزداد تبعية للغير. ولذا لا مبرر للخشية الآن على الهوية والخصوصية، كما يهولون. فتراثنا لن يسلخنا أحد عنه، وإنما هو ينتظر منا أن نستثمره بصورة غنية ومبتكرة.

ج - مـا يمكـن أن نفعله من وجه ثالث، هو التحرر من الثنائيات التي تتحكم بالعقول والمواقف، لكي نمارس علاقتنا بخصوصياتنا وهوياتنا وتجاربنا بصورة عالمـية. فـنحن جزء من العالم نتأثر به إيجاباً أو سلباً، بل إننا نتعيّش على ما ينتجه الآخرون. ولذا فشعارات الصفاء والنقاء والعودة إلى الأصول، لا تعني سوى ممارسة وجودنا على سبيل الزيف. فالممكن هو العمل على إتقان لغة التداول والتواصل، سواء على مستوى الداخل أو مع الخارج.

د - ولعـل ما نحتاج إليه قبل ذلك، هو التعامل مع التراث بنصوصه وتأويلاته ومـرجعياته ومؤسـساته، لا كـسلطات مقدّسة نصدع بأمرها ونخشى مخالفـتها لكـي نـنتهكها أو نمارسها مشوّهة أو عقيمة أو مدمّرة، بل كخبرات بشرية وذخائر رمزية غنيّة، يمكن استثمارها لبناء الحاضر وتدارك المستقبل بأزماته المفاجئة. وهذا مفصل، ذلك أن طريقة تعاملنا مع السلف والتراث والنصوص، هي التي تتحكم بطرق تعاملنا مع أنفسنا وحاضرنا أو مـع الآخر والعالم. فإما أن تستعبدنا النصوص والأصول لكي نكون مرايا الماضي وأصداءه الباهتة، وإما أن نشتغل على التراث ونقوم بصرفه، لكي نشارك في صناعة الحضارة وقيادة المصير العالمي.

هـ - أخيراً ما ينتظر منا أن نفكر فيه ونفعله أو نتمرّس به، عرباً وبشراً، مسلمين وغربيين، خاصة نحن الذين نهرب من المحاسبة والمراجعة، هو خفض السقف الرمزي من الادعاءات من حيث العلاقة بالحقيقة والعدالة أو بالهداية والإيمان أو بالعـروبة والإسلام. فنحن أدنى معنى وشأناً بكثير مما ندعي ونعلن، كما

تشهد علينا النهايات البائسة أو المدمّرة لمشاريعنا. وهكذا كلما رفعنا السقف من المزاعم والدعاءات المثالية المطلقة أو المقدّسة، المتعلّقة بالعروبة والإسلام، أو بالديموقراطية والحرية، تزداد الارتكابات والفضائح والحروب الأهلية والصدامات الثقافية؛ وبالعكس، كما تواضعنا وخفضنا السقف الرمزي، اتسعت امكانات الحوار والتفاهم أو التعايش والتبادل.

14 - أخلص من ذلك إلى أن مشكلتنا الأولى هي في الداخل قبل أن تكون في الخارج. إنها تكمن في هويتنا الدينية والقومية. فهي التي تشكّل بشيفراتها الرمزية وجيناتها الثقافية، بيت الداء والعلبة السوداء التي ينبغي تفكيكها، بآلهتها ومجانينها، بمافياتها المقدّسة والمدنّسة، بآفاتها وعيوبها، بكواليسها وجواسيسها، فضلاً عن دُعاتها ونخبها وسائر وكلائها وحرّاسها الذين يدمرون المعنى فيما هم يحتكرونه، أو الذين ينطقون بإسم الجموع فيما "أنا" الواحد منهم تصنعها مصالحه الضيّقة ونزواته المستبدّة وذاكرته الموتورة وهواجسه المرعبة. والنتيجة أن يقودوا البلاد إلى سوء المصير بأنظمتهم الفاسدة وإدارتهم العاجزة وحلولهم المستحيلة واستراتيجيتهم المدمّرة. وتلك هي المفارقة والأكذوبة والفضيحة، في مسألة الهوية والقضية، الدينية أو القومية، الإسلامية أو العلمانية، التقليدية أو الحديثة: إقامة تعارضات خادعة ومزيّفة بين حلول دينية وعلمانية أو تقليدية وحداثية استهلكت نفسها أو تكشّفت عن أمراضها وأعطالها أو أفضت إلى الهزائم والكوارث، بقدر ما هي أشكال من السيطرة والهيمنة والاحتكار الصادرة عن إرادة التألّه والتجبّر أو القبض والتحكّم أو العداء والصدام.

لا يعني ذلك إنكار المشكلات المتأتية من الخارج، كما تتجسّد في أشكال الضغط والابتزاز أو محاولة الغزو والهيمنة، من جانب القوى العظمى والدول الفاعلة أو الطامعة بالغنيمة والثروة. هذه مشكلات فرعية، ولكنّ المشكلة الأولى تكمن في هويتنا الثقافية التي نمارسها بصورة فقيرة، كسولة، عاجزة، كاريكاتورية، الأمر الذي يعمل على مضاعفة التداعيات السلبية أو الخطيرة للضغوط التي تمارس من الخارج على الداخل. وهذه عاقبة من يحسب المشكلة حلاً وبالعكس، كما هو مصير مَن يسير في الاتجاه المعاكس لسير العالم.

حول كلام البابا عن الاسلام والردود عليه
شهادة جهلٍ مضاعف بالذات والآخر

كان الكاردينال جوزيف راتسنغر قبل ان يصبح بابا روما الحالي، تحت اسم بندكتوس السادس عشر، مستشاراً للبابا السابق للشؤون اللاهوتية، لأنه يعد من الراسخين في هذا المجال بين اقرانه الكرادلة. وقد اتيح لي الاطلاع على بعض آرائه ومواقفه في القضايا الدينية، وفي ما يخص نظرته الى بقية الاديان، وكان مستندي في ذلك المناظرة المشهودة بينه وبين مواطنه الالماني الفيلسوف يورغن هابرماس، والتي جرت قبل تسلم الكاردينال سدّة البابوية، في مدينة ميونخ في شهر كانون الثاني من العام 2004، وكان محورها: في ما يسبق الاسس السياسية للدولة الديموقراطية[1].

كان للمناظرة المثيرة أصداؤها في الاوساط الفكرية في ألمانيا وفي خارجها، كونها جرت بين لاهوتي كبير يُعدّ "حارس الايمان والعقيدة"، وبين فيلسوف كبير ايضاً ومشهور يعد حارس اخلاقية المناقشة والمدافع الاكبر عن الحداثة والعقلانية ومشروع التنوير.

وما لم يكن متوقعاً، هو أن المناظرة افضت بالطرفين الى اجراء نوع من نقد الذات انتهى بخلق وسط للتفاهم والتداول حول لغة أو مساحة مشتركة، إذ أقرّ كل منهما بحدوده، كشرط لكي يعترف بالآخر، ويخطو نحوه "خطوات متبادلة"، على سبيل الانصات والتعلم والافادة.

فالفيلسوف هابرماس اقر بأزمة الحداثة والعقل التنويري، كما اعترف بمشروعية الجماعات الدينية حتى من الوجهة المعرفية، أي بأن لها قسطها من الحقيقة، كما لها حقوقها ومصالحها ودورها في البناء المجتمعي، متجاوزاً في موقفه

(1) راجع كتابي: الإنسان الأدنى، المصدر السابق.

هـــذا خطوط دفاعاته الايديولوجية السابقة عن مشروع التنوير. وهي خطوط ما زال دعاة الحداثة الآفلة والمستهلكة، عندنا، يتشبثون بها او يقفون وراءها. دون ان يعني هذا النقد فشل الحداثة، وطرح الدين كبديل عنها، وكأن شيئاً لم يحدث، كما يسارع الى الاستنتاج العاملون في الحقل الديني على ساحاتنا، ممن يغفلون عن ازمة الدين ومؤسساته، بقدر ما يقفزون عن منجزات الحداثة التي تأثروا بها عرفوا ذلك واعترفوا به، ام جهلوه وانكروه.

وفي المقابـــل لقـــد اعترف الكاردينال جوزيف راتسنغر، الذي سيصبح بابا رومـــا، بـــأن الدين عامة يعاني من "أمراض خطيرة" بل قاتلة مصدرها "التعصب" الذي يمارسه باسمه الاصوليون المتطرفون، وكما يتجسم ذلك في ما تشهده الساحة العالمـــية مـــن التوترات والفوضى والاضطراب والارهاب. ولعل هذا بالذات هو عـــنوان المؤتمـــر الذي عُقد في مدينة جده في خريف العام 2004، لدرس اسباب الآفـــات والامـــراض الاجتماعية والثقافية التي افضت الى التطرف عند الجماعات التكفيرية كما اطلقت عليها التسمية.

ومـــن هذا المنطلق نفسه حاول الكاردينال السابق، اعادة صياغة العلاقة بين الايمان والعقل، بتأكيده على حاجة كل واحد منها للآخر، لاصلاح نفسه واعادة بناء مشروعيته. فالدين يحتاج الى العقل كأداة صالحة لضبطه وتصحيحه، بل ومن أجـــل "تطهـــيره". ولكن للعقل ايضاً آفاته، ولذا فهو يحتاج الى الاقرار بمحدوديته للافـــادة من الدين، بلجم نفسه، كي لا نصل الى الكارثة التي هي "تدمير الذات"، أي كي لا يُدمر الانسان نفسه، بعد ان اصبح يمتلك اسلحة دمار شامل، وتقنيات بيولوجية تتيح له تغيير طبيعته.

ولا يعـــني ذلك أن مثل هذه التسوية تحل المشكلة المتفاقمة، باللقاء بين القوى الدينية والقوى التي لا تنطلق من خيارات دينية. فالمأزق الذي تعاني منه المجتمعات المعاصـــرة، يـــتجاوز المصالحة بين حراس الإيمان وحراس العقلانية، أو بين حراس الايمان أنفسهم، لأنه يطال النوع البشري أو العقل الكوني بمختلف نماذجه ونسخه وقـــواه الـــتي هي تجليات أو أدوات مختلفة لنفس إرادة القوة أو الغريزة الأصلية أو لـــنفس الطاقـــة الحية والاندفاعة الخلاقة، بقدر ما هي وجوه متعددة لعملة بشرية

واحـــده اســـتهلكت وفقدت مصداقيتها في ما تطرحه من العناوين والمطالب. مما يـــستدعي إعـــادة تعريف الانسان الذي نحسبه مؤمناً أو عاقلاً، من حيث هويته وحقوقه ومكانته، وذلك باختراع مفاهيم جديدة أو صوغ معايير مختلفة للاجتماع البشري والعمل الانساني.

لن أستطرد في هذه المسألة التي تناولتها في مكان آخر. لأن مدار الكلام الآن هـــو محاضـــرة البابا الأخيرة، التي ذهب فيها إلى القول بما معناه أن الإسلام انتشر بالعنف، وأن الجديد الذي أتى به النبي العربي هو سيء وغير إنساني[1]. وهكذا فقد بدا البابا في هذه المحاضرة على خلاف محاضرته الأولى. ففي هذه الأخيرة كان ناقداً لذاتـــه، منفـــتحاً علـــى القوى غير الدينية، معترفاً ايضاً بمشروعية العوالم الثقافية والجماعات الدينية المغايرة. فعدا عن كونه اكد على حاجة الدين الى مراقبة العقل، فإنه عندما تطرّق الى الاسلام، لم يتحدّث عنه كعالم أحادي متجانس، بل كفضاء ثقافي تخترقه الصراعات والتوترات، بين قوى التعصب المطلقة لدى الاصوليين وبين القوى المنفتحة على العقل والداعية الى التسامح.

بالطـــبع لا يغيب عن ذهن البابا، ان المسيحية تختلف عن الاسلام، من حيث تأثرها بمنجزات الحداثة العقلية والفلسفية، التي جعلتها تمر بمصفاة العلمنة وتكتسب قدراً من العقلنة والانفتاح على العلم والعالم والآخر. سواء من جهة علاقتها بالفكر اليوناني أم بالفتوحات الفكرية الحديثة. بهذا المعنى فإن ما تعرضت له الكنيسة، التي أمـــست سلطة مقدسة مرعبة في عصورها الوسطى، كما هو شأن كل مقدس، ما تعرضـــت لـــه يومـــئذ من النقد والضغط، وما شهدته من التراجع في نفوذها، في مواجهة الحداثة العلمانية والعقلانية والليبرالية الصاعدة، لم يكن قتلاً للمسيحية كما

---

(1) أشير إلى المحاضرة التي ألقاها البابا في جامعة رغنسبورغ في 12/أيلول 2006. ويبدو أن البابا قد عبر عن رأيه، فيما يخص علاقة الإسلام بالعنف، بنقله أو تبنيه نصاً هو نموذج من محاجات العصور الوسطى. والنص هو عبارة عن كلام لإمبراطور بيزنطي يحتج فيه على مجادلـــه بقـــوله ما حرفيته، وبحسب مترجم النص: "أرني ما جلب محمد من جديد، وستعثر هناك على أشياء شريرة وغير إنسانية وحسب، كإيعاز بنشر الإيمان الذي بشر به بالسيف... والعمـــل بلا عقلانية مخالف لطبيعة الله". راجع ترجمة حسام عيتاني لمحاضرة البابا، جريدة "السفير" اللبنانية، 21 أيلول 2006.

ينظّر عندنا دعاة إسلاميون، وإنما كان على العكس من ذلك، بقدر ما دفع الكنيسة إلى القيام بعملية إحياء وتجديد في أمور العقيدة للتكيف مع العالم الحديث.

ولكــن غاب عن ذهن البابا أن الاسلام، وكما بدا في محاضرته الثانية، إبان عــصور ازدهــاره الحــضاري، افاد من الثقافات القديمة، وبخاصة الثقافة اليونانية بفــروعها المعــرفية وتقنياتها المنطقية ومقولاتها الفلسفية، كما انه مارس عقلانيته وانفتاحه، الى حد كبير، كما يشهد على ذلك تطوير العلوم القديمة، وافتتاح فروع معــرفية جديدة، وظهور حركة فلسفية غنية وخصبة بمسائلها ومدارسها وتياراتها الدهــرية والاشراقية والصوفية واللاهوتية، فضلاً عن تشكيل مساحة نقدية نسبية كانــت تتيح حرية التعبير لكل الخارجين من الزنادقة ومنكري النبوات والشرائع، وهــذا مــا لم تتحه المسيحية إلا بعد هزيمة الكنيسة أمام الحداثة بثوراتها السياسية والاجتماعية والثقافية.

ومــا حــصل في الفضاء الاسلامي يومئذ، من ازدهار ثقافي وانتاج فكري عقلاني، هو بخلاف ما هو حاصل اليوم، حيث تقاوم الثقافة الاسلامية، منذ محمد عــبده الى الــدعاة المعاصــرين، كل محاولة لنقد الذات، كما تُقاوم الحداثةَ (التي اخترقتها) بــصورة فاشلة او عقيمة او مدمرة للذات قبل الغير. ولعل من عوامل فــشل المــشروع الاســلامي كحل بديل، هو فشله في التعامل مع العالم الحديث والمــشاركة في صناعته إختراعاً أو إبداعا. بهذا المعنى تبدو المسيحية اكثر تقبّلاً من الاسلام للنقد الذي يطال مقدسّاتها وثوابتها حتى الطعن والتحريح.

والــسؤال لمــاذا تعامــل البابا في محاضرته الاخيرة، التي سجلت تراجعاً عن محاضــرته الأولى بمنظورها العالمي والكوكبي، مع الإسلام بصورة احادية الجانب، فــيما هــو عالم ثقافي في غاية التعدد بمدارسه العقائدية ومذاهبه الفقهية وتياراته الفكــرية والفلسفية؟ والاهم لماذا تطرّق الى النبيّ العربي على هذا النحو الذي يثير الحساسيات والنعرات، فيما هو، اي البابا، ليس من دعاة صدام الحضارات، بل من دعاة الحوار بين الاديان والثقافات؟!

هــل لأنه تصرف في محاضرته، وكما رأى البعض، كلاهوتي مسيحي يجادل لاهوتــيين اســلاميين، علــى نحو جعله ينسى مكانته كبابا وما لكلامه من الاثر

والاصداء في العالم؟! وهل لأنه ظنّ أنّ الاسلام غدا كالمسيحية الغربية يتقبّل النقد والجـرْح؟! أم لأن الوجه الغالب الآن على العالم الاسلامي، وكما يقدم المسلمون المعاصرون انفسهم، وبخاصة الجماعات الاصولية، ليس التعقّل والانفتاح والتسامح، بـل التعصب والانغلاق والتطرف والعنف المتزايد؟! أم لأنه، أي البابا، وهذا هو الأرجـح، كما يفسر البعض موقفه، يلاحظ انتشار الإسلام في أوروبا نفسها على حساب المسيحية؟!

أياً يكن غرض البابا ومقصده، وسواءً كان هفوةً او عدم فطنة او مكراً، فإنه وبعد ان أبدى أسفه شخصياً، وبعد ان اقدم معاونون له على الاعتذار، فإن ما قاله لا يـستحق كل هذه الردود المنددة والمستنكرة. ما قاله لا يستدعي حملة الغضب والهـياج الـتي وصلت الى الاعتداء على كنائس ارثوذكسية احتجاجاً على روما الكاثوليكـية، وفي فلـسطين التي هي اقل البلدان العربية تعصّباً، ربما بحكم المصيبة الجامعة.

إن العنف العشوائي الذي قوبل به كلام البابا يقدم الدليل له وللآخرين، المرّة تلـو المـرّة، على مصداقية آرائهم ومشروعية نقدهم لنا، وهو ما حدث في قضية الرسـوم الكاريكاتـورية، ومـا رافقهـا من اعمال شغب وعنف واعتداء على المؤسـسات الدينية، وذلك حيث تحوّل المحتج على الاساءة الى مسيء، إنما يؤكد الصورة السلبية المكوّنة عنه في اذهان الغربيين وفي العالم أجمع.

وهذه ايضاً الثمرة السيئة لما نمارسه من العنف الرمزي والمادي بإسم الاسلام، كما يتجسم ذلك في الفتاوى التي تكفّر هذا الكاتب او ذلك الفنان، او التي تقضي بـتفجير المنشآت المدنية والسياحية على رؤوس الناس، فضلاً عن خطف المدنيين الآمـنين وذبحهم امام الملأ فقط لأنهم ليسوا مسلمين. وكلها اعمال تقدم حججاً ضدنا وترتد علينا لكي تشوه سمعتنا في العالم.

والاهم من ذلك انه لا مصداقية لنا في الكلام على التسامح او في الاستشهاد بالآيـات القرآنية، حول قيم التعارف والتواصل. تشهد علينا هذه الحروب الاهلية الوحـشية والاعمـال البربرية الفظيعة في الداخل، وهكذا فنحن يسيء الينا رأي كاتـب او لحـن مطرب، فيما لا تُسيء كل هذه المجازر التي نرتكبها بحق بعضنا

البعض. كذلك نغضب وننتفض، ثأراً للاسلام ونبيّه، احتجاجاً على مشهد هزلي او رسم كاريكاتوري او تصريح كرسي رسولي، فيما نتناسى ما نتبادله من التُهم والمساوئ والعنف الفاحش.

حتى لو افترضنا أن البابا أراد عمداً أن يقول ما قاله بصراحة، حول قضية العنف الديني ومفهوم الله في الاسلام، وأنه لم يشأ أن يعالج المسائل بعقلية المجاملة أو التكاذب المتبادل، من خلال مفهوم التسامح الذي يُبقي العلاقات بين الديانات مجرد هدنة بين فئتين. حتى لو افترضنا ذلك، أي بأن البابا أراد فتح المساجلة الفكرية مع الاسلام، فلماذا لم نرد الحجة بالحجة كي نكون على مستوى الحدث الفكري والسؤال اللاهوتي؟! لقد لجأ أكثرنا، بدلاً ذلك، سوى القلة القليلة، إلى الرد بالعنف، وكأن المطلوب من البابا أن يؤمن بما نؤمن به. فيا للجهل والسذاجة! لقد نسينا أن العلاقة بين الاسلام والمسيحية هي علاقة استبعاد متبادل، إذ المسيحية لا تعترف بأن محمداً نبيّ مرسل، أما الاسلام فقد اعترف بالمسيحية، ولكن بعد إلغائها ونسخها والحلول مكانها.. لنعترف بالوقائع، كي نعرف كيف نتدبّر الازمة. فنحن نسيء الى انفسنا اكثر مما يسيء الينا الآخرون. نحن الذين نشوّه سمعتنا في العالم، بقدر ما نتعامل مع هوياتنا الدينية بصورة متحجّرة وكاريكاتورية، او فقيرة وبائسة، او عنصرية وارهابية.

وكل ذلك يشهد في النهاية، على ضعف حجّتنا وهشاشة دفاعاتنا وفضائح ادّعاءاتنا، بقدر ما يشهد على أن ما يقوله البابا عن امراض الدين وآفاته، يصدق علينا بالدرجة الاولى. فنحن نتّهمه بالجهل بالاسلام، مع اننا، نحن المعاصرين، لا نفتأ نقدم، كل يوم، شهادة جهل مضاعف بأنفسنا وافكارنا وتصرفاتنا، بقدر ما ندّعي اننا اهل عقل، وحوار، وتسامح، وسلام، فيما نحن نمارس علاقتنا بهويتنا وتراثنا وعقائدنا، بصورة احادية، خرافية، كاريكاتورية، فاشية او هدامة تقوم على العنف والاقصاء. واذا كان البابا ومستشاروه قد أسِفوا واعتذروا، فالاولى بنا، بدلاً من ممارسة الوصاية على الناس، الاعتذار منهم عما نسببه من المجازر والمآسي بإسم الايمان والاسلام.

أخلص من ذلك إلى أنه إذا كانت العلاقات، بين الديانات التوحيدية، هي مدار السجال في محاضرة البابا، فلا مجال لأن تتباهى ديانة على الأخرى، إذ كلها

تتأســـس على عنف قدسي أو إلهي، هو جذرها ومسوغ دعوتها. نحن إزاء ثلاث نسخ لعملة أصولية واحدة، من حيث منطقها الاصطفائي: فالاصطفاء المسيحي هو نسخة مؤلّهة عن الاصطفاء اليهودي، فيما الاصطفاء الاسلامي هو نسخة مضاعفة عن الاثنين.

والاصطفاء أياً كانت النسخة، يحمل كل فريق على احتكار مشروعية الايمان والحقـــيقة والاستقامة والهداية، بقدر ما يجعله يعتقد بأنه الأحق معتقداً والأصدق قـــولاً والأشـــرف خلقاً والأنقى أصلاً. إنه نفس الداء الأصولي الذي لا ترجمة له ســـوى الاعتداء الرمزي على الآخر، والسعي إلى اقصائه أو استئصاله. ولذا فالكل يمارســـون العـــنف، والكل يقدمون شهادة جهلٍ مركّب بالذات وبالآخر، والكل ينـــتهكون مـــا يدعون إليه. فالأوْلى بهم جميعاً الاعتذار، والقيام بمراجعة تعاليمهم ومـــشاريعهم وبـــرامجهم التي تسبّب الكره والحقد والعنف والصدام على الساحة الكونية.

إن حـــرّاس الايمـــان ونوّاب الله وخلفاءه والناطقون بإسمه، بمختلف نسخهم الاصولية وكتلهم الدينية ومعسكراتهم الايديولوجية والثقافية، الاسلامية والمسيحية، الـــشرقية والغـــربية، العـــربية والاميركـــية، قد باتوا هم المشكلة والعلّة، بقدر ما يـــتواطأون، تواطؤ الضدّ مع ضدّه، على تخريب السلام العالمي. فإذا أرادوا الحوار فيما بينهم، فإن نجاحه يتوقف على أمرين:

الأول هو التمرس بلغة الاعتراف المتبادل، بحيث يقبل الواحد الآخر، بوصفه مخـــتلفاً، ولكن مساوياً له في الحقوق الأساسية. والثاني هو تشكيل قناعة مشتركة لدى المختلفين بأنهم أقل معنىً وشأنا في كل ما يدعون.

ولـــذا فالإمكـــان المفـــتوح والذي يجدر الاشتغال عليه واشتقاقه، في ضوء الانتكاسات والاخفاقات، أن لا يتمترس كل واحد وراء ثوابته المطلقة للدفاع عن مـــشروعيته بعقليه لاهوتية فقهية، ضيقة أو جامدة، تقارع نصوصاً بنصوص، على غـــرار الانمـــاط الحجاجية العقيمة التي كانت سائدة في العصور الوسطى؛ ولا عبر التشبث الاعمى بثنائيات المؤمن والمشرك، أو المؤمن والجاحد، أو المستقيم والضال، أو مـــن هو على حق ومن هو على بطل. الممكن في ما يخص العلاقات الثقافية بين

الهويات الكبرى، هو العمل على كسر المتعارضات التي تستبطن العنف، والتي يفكر أصــحابها بمنطق الضد والاقصاء، لكي يسدوا أبواب الحوار المنتج وينصبوا جدران الكره بين الناس.

ومــن يفكر على النحو المنفتح، إنما يحاول الزحزحة عن ثوابته والعمل على إعادة بناء مشروعيته، بقراءة النصوص والواقع، وبخاصة التحولات العالمية الراهنة، قراءات حية وخصبة، خلاقة وفعالة، تشكل هي نفسها وقائع فكرية خارقة، بقدر مــا تترجم بابتكار أو اجتراح توجهات ومفاهيم وقواعد جديدة لتنظيم العلاقات بين الجماعات البشرية.فالأحرى أن نقتنع بأنه لا أحد يعرى من إيمان، وبأن كل واحد يصنع حقيقته. والفرق بين واحد وآخر، هو أن هناك من يؤمن بما عنده، لكي يجحد ما يؤمن به سواه؛ مقابل من يعتبر إيمانه مجرد وجهة نظره، أو تأويله للأصل، أو خياره الشخصي الذي يجد فيه راحته واطمئنانه أو خلاصه، ولكن من غير استبعاد الآخرين من حظيرة الايمان أو من مجريات الحقيقة. فليس كل من طرح شعاراً أو ادعى إيماناً أو عقلاً، يملك مصداقيته بعد كل هذه الانتهاكات والانهيارات.

من هنا لم تعد المشكلات تجد حلولها بمنطق الأحادية والثبات والمماهاة وعبادة النــصوص والأصــول؛ الاجدى أن نفكر ونعمل بمنطق الخلق والتعدد والتجاوز والتركيب والتهجين والتحول... ومادام كل معتقد يتأسس على عنف رمزي، أين منه العنف المادي، الذي ينبع منه، لم تعد القضية أن يدافع الواحد عن هويته أو أن يثبت أنه على حق في معتقده؛ وإنما هي كيف تُصرف الهويات؟ أو كيف تصرّف المعــتقدات والقناعات، على أرض الواقع، المعقد والملتبس، وفي ميدان العلاقة مع المختلف أو مع الآخر؟ وهذا هو الرهان: تجاوز التقسيمات الحاسمة والنهائية، لصنع قوى، هادئة، مدنية، تواصلية، بناءة...

هــذه هــي القضية المركزية والملحة في عصر تتشابك فيه المصالح والمصائر، بقدرما تتعولم والمشكلات والصراعات والحروب والهويّات والثروات: كيف نمارس خــصوصياتنا ونديــر قضايانا أو ندافع عن مصالحنا، مذاهب وطوائف، أو أحزاباً وتكــتلات، أو جماعــات وديانات، لكي نتمكن من العيش سوياً، بصورة سلمية تبادلية، أو بأقل قدر من العنف الذي يقتضيه العيش المشترك.

وذلك يحتاج إلى المراس النقدي، في مواجهة الذات قبل الغير، بقدر ما يحتاج إلى التواضـــع الوجودي والتقى الفكري. قد تحتاج الهويات الثقافية أو السياسية إلى الدفاع والنصرة والتأييد، أو إلى من يبصم ويصفق أو يهلل ويبجل. ولكنها تحتاج في مواجهة أجواء التطرف والشحن والاحتقان التي تسمم نظام العيش وتهدد بقطع خطـــوط التواصـــل، في الداخل ومع الخارج، تحتاج إلى أناس ذوي عقول نقدية، يحتفظون باستقلاليتهم الفكرية، بقدر ما يقفون على التخوم بين المعسكرات، لكي يمارسوا هويتهم بصورة منفتحة، مرنة، متحركة، عالمية. فهؤلاء هم صمام أمان في مواجهة منطق الصدام الثقافي أو الاحتقان الطائفي أوالتشنج السياسي.

القسم الثالث

قضية العيش معاً

هواجس الأنا وأبلسة الآخر
الذات هي المشكلة*

مداخلتي هي محاولة لإعادة بناء إشكالية الأنا والآخر في ضوء المتغيرات البارزة او الهامة والخطيرة على المسرح الكوني.

التقهقر

ومـــن يحـــاول أن يقرأ ما يحدث ويتغير يجد بأن البشرية المعاصرة ترزح اليوم تحـــت المـــشكلات المزمنة والتحديات المتراكمة. وهذا وجه من وجوه الأزمة التي تعـــصف بالمجـــتمعات المعاصرة، كما تتمثل في كوننا أصبحنا أسرى لنظام للحياة نـــصنعه ويـــصنعنا، على نحو يفبرك من المشكلات على قدر ما يبتكر من الحلول والمعالجـــات، وربما أكثر، أي اننا نتغير نحو الأسوأ والأخطر لكي نتراجع ونتقهقر. وهذا أحد المتغيرات البارزة في المشهد العالمي.

هذا ما تشهد به مصائر العناوين والشعارات. لو توقفنا مثلاً عند قضية حقوق الانسان، نجد بأنه كلما تكاثر المدافعون في قضيته، تزداد الاساءات والانتهاكات، وتفاجئنا الجرائم بحق الانسانية من الجماعات والشعوب.

الفتن المذهبية

وهـــذا مصير الدعوة الى اعتماد لغة الحوار والتسامح في ما يخص العلاقة بين الهـــويات الثقافـــية والخصوصيات المجتمعية... فبعد كل هذه المؤتمرات واللقاءات

(*) ورقة ألقيت في ندوة "الحوار بين العرب والغرب"، وقد عقدت في تونس بين 19 و22 كانون الأول 2006، بدعوة مشتركة من الجمعية الإنجيلية القبطية للخدمات الاجتماعية في القاهرة، والمعهد العربي لحقوق الإنسان في تونس.

والبيانات والاقتراحات، وسوى ذلك من الانشطة، في هذا الخصوص، على مدى عقد او عقـــدين، نجد بأن منطق الصدام هو الذي يتغلب على نحو يفضي الى قطع جسور التواصل وتسميم نظام التعايش بين الناس. وتلك هي واحدة من المفارقات. ففي عصر الاتـــصالات والاعـــتماد المتبادل. حيث تنفجر اطر المكان وتتآكل الحدود بين الدول والقارات، وحيث تتشابك المصالح والمصائر، تبرز استراتيجيات الرفض المتبادل وتسود لغـــة العـــداء، لكي تنصب حواجز البغض والحقد بين الجماعات والطوائف العرقية، والدينية بشكل خاص، الأمر الذي يعيدنا إلى لغة العصور الوسطى، لكي نعيد انتاجها، ليس كما عاشها أهلها، بل على النحو الأخطر والأرهب[1].

وهـــذا متغير آخر على الساحة العربية والاقليمية، كما يتمثل في تغيّر خريطة القـــوى، بالانتقال من الصراع بين قومي واسلامي او بين سلفي وحداثي او بين رجعـــي وتقدمي، الى الصراع الوحشي بين المذاهب الاسلامية، كما يتجسم ذلك على الساحة العراقية في المجازر الجماعية وحملات التطهير المتبادلة.

والحـــرب بين المذاهب داخل الديانة الواحدة، كانت دوماً هي الأشرس، إذ النـــزاع بين الاشقاء او المنشقين هو الاكثر ضراوةً وضرراً، كما جرى في الحروب الدينـــية في اوروبا، وكما جرى ايضاً في الحروب المذهبية في العالم الاسلامي؛ من هـــنا يـــبدو الصراع في العصر العباسي بين مسلمين ومسيحيين ثانوياً قياساً، على الصراع بين المسلمين، بحيث أن مفهوم أهل الذمة كان يومئذ اسماً على غير مسمى. ربما أصبح هذا المفهوم شغّالاً في العصور المتأخرة وخاصة في العصر العثماني.

---

(1) إذا شـــئت الاستشهاد بتجربتي في هذا الخصوص، فأنا شاركت، منذ اكثر من عقد، في غير ندوة، وفي تونس بالذات، حول ثنائية الأنا والآخر او حول العلاقات بين الغرب والشرق او بين الاسلام والغرب..

ولـــن أعمـــد هـــنا الـــى تكـــرار ما كتبته في هذا الخصوص، سواء حول نقد مقولة صدام الحـــضارات او حول تحليل الصور النمطية السلبية التي تصنعها الجماعات المختلفة بعضها لـــبعض، او حـــول تحلـــيل انمـــاط العلاقة بين الأنا والآخر، وإنما اشير الى انني أتيت من المـــشرق حيث الصراع، يتعدى الآن النـــزاع بين مسلمين ومسيحيين، على ما تتفجر الفتن المذهبـــية بـــين سنّة وشيعة في العراق؛ وأشير بشكل خاص الى أني آتٍ من مدينة بيروت، حـــيث تخيم أشباح الحرب الاهلية المذهبية، بين المسلمين أنفسهم، بعد أنْ بدأت حرباً طائفية منذ ثلاثين عاماً بين مسلمين ومسيحيين.

الصور النمطية

وأراني أتوقف هنا لأقول بأن الصور النمطية التي يصنعها الواحد للآخر، فرداً كـــان أم مجموعاً، هي من حقائق الاجتماع وعاداته وممارساته. فالمجتمع هو مصنع للـــرموز والصور والنماذج، مما يجعل الواحد يرى الى نفسه والى الآخر، عبر مرايا مجوفة او مقعرة او مهشّمة، وذلك بحسب الحالة والموقف.

والـــصور النمطـــية السلبية تعبر عن حالة العداء وتجسد استراتيجية الرفض المتـــبادل، بـــين الجماعات، سواء على اساس ديني او قومي او حضاري، بقدر ما تعكس حالة الجهل المزدوج بالأنا والآخر. ولذا لا تعرى منها جماعة بشرية. ما من مجتمع، صغر ام كبر، أكان عائلة أم قرية أم مدينة أم أمة، الا ويصنع صورة للآخر علـــى سبيل القدح والتبخيس او التشنيع والتشويه، بنعته بالكفر والشرك او البدعة والهـــرطقة او العمالـــة والخـــيانة أو الرذيلة والدناءة أو التخلف والهمجية... وفي الحالات القصوى من العداء يجري التعامل معه كشيطان أو بعبع.

وبـــالعكس، يمكـــن أن نصنع للآخر صورة ايجابية، عندما يكون صديقاً أو حليفاً، او على الاقل عندما لا تكون العلاقة معه علاقة عداء، حيث يجري امتداحه والثـــناء علـــيه؛ وفي الحالة القصوى المضادة، حالة العشق، يغدو الآخر ملاكاً أو قديساً أو إلهاً معبوداً.

ولذا فصورة الآخر في مرآة الذات ليست ثابتة. قد تتغير وتنقلب بتغير الموقف مـــنه او العلاقة معه. وبالطبع فهي تتغذى من مخزون الذاكرة الموتورة او الجريحة، عـــندما تنشب الصراعات او عندما يُراد للفتن النائمة ان تستيقظ وتشتغل، خاصةً إذا كان تاريخ العلاقة بين الطرفين هو تاريخ مظلم وحافل بالتحدّيات والصراعات والهجمات المتبادلة. عندها يعود الواحد الى خطابه الداخلي والى معجمه الضدي، لاســـتخدام المفـــردات التي تصف الآخر على النحو الأبشع والأشنع. وفي أحيان كـــثيرة، لا نستعدي الآخر، لأنه شرير أو ظالم أو معتد، بل لأنه ناجح أو متفوق، أو لأننا نعجز عن مضاهاته واللحاق به، أي لقصورنا أو لعلة في النفس الأمارة.

وهكـــذا فالعلاقـــة بين الأنا والآخر ملتبسة ومركّبة، تتراوح بين الاعتراف والاســـتبعاد، أو بين الصداقة والعداوة، أو بين المماهاة والاستئصال. ومن الأمثلة

على ذلك، أنه لوعدنا الى النص القرآني الذي هو حمّال أوجه، نقف على ازدواجية في ما يخص التعامل مع المسيحيين. فهو يصمهم من جهة بالشرك، ولكنه من جهة اخرى يمتدح الرهبان الذين تفيض اعينهم بالدمع مما عرفوا من الحق، كما يتحدث عن النصارى بوصفهم اقرب الناس مودة الى المؤمنين.

ومن الأمثلة المعاصرة على ذلك علاقة التحالف التي كانت سائدة بين الاسلام السياسي، وبين الولايات المتحدة، والتي كانت تشبه عقد الزواج في مواجهة العدو المشترك: المعسكر الاشتراكي والتيار القومي. ثم انفرط التحالف وتغيرت الصورة، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وبالأخص بعد 11 ايلول 2001، لتنفجر العلاقة بين الطرفين، وتسود الاتهامات المتبادلة، عبر الصور النمطية.

تغير خارطة الصراعات

وهــذا مــتغير ثالث على الساحة العالمية: الانتقال من حقبة الى اخرى، من الصراع بين رأسمالي واشتراكي او بين قومي واسلامي، او بين اصولي وعلماني، الى الصراع بين اصوليات مهيمنة على الساحة العالمية هما: الاصولية الجهادية والاصولية الانجيلــية، الاسلاميون الجدد والمحافظون الجدد، مجانين الله ومجانين المسيح. بذلك تتغير خريطة الصراع العالمي بالانتقال من حرب النظريات والمدارس الايديولوجية والسياسية الى حرب الآلهة والنصوص المقدسة، فضلاً عن حرب الجوامع والمراقد. وبالطــبع لا ننسى الصراعات القديمة والمتجددة بين العرب أنفسهم دولاً وأنظمة ومحــاورات اســتراتيجية. ولكل حرب مفرداتها وعدتها، كما لها دعاتها وأنبياؤها وآلهــتها أو أبطالها وجزّاروها. من هنا بروز مصطلحات جديدة، مثل محور الشر، ثنائــية الفــسطاطين، الشيطان الاكبر، الحملة الصليبية، الفاشية الاسلامية، البعبع الإسلامي، فضلاً عن الثنائيات الذائعة، خاصةً في بلداننا، مثل الوطني وغير الوطني أو الأسياد والأدوات، أو الشريف وغير الشريف.

وهكــذا نحــن إزاء متغيرات اقليمية ودولية، لجهة خريطة الصراع ووجوهه ودلالاتــه، تعكــس مــنطق العــصر، بقدر ما تعبر عن ازمة أكثر غوراً تتعدى التقــسيمات الايديولوجــية والثقافية لكي تطال الوضع البشري برمته. إنها ازمة

وجودية بنيوية شاملة تطال اشكال المصداقية والمشروعية المعرفية والخلقية والسياسية، كما تتجسد في فقدان الانسان المعاصر البوصلة والحصانة والثقة واليقين، فضلاً عن فقدان الامن الذي يتدهور على الساحة الكونية، لكي ينفجر صراعات دولية وحروباً أهلية، أو جرائم وحشية وهجمات ارهابية تزرع الرعب وتنشر العنف الاعمى والفاحش الذي يجري تعميمه وعولمته، بقدر ما يفيد نجومه من ثورة الاتصالات وعصر الصورة والمعلومة[1].

هذا التدهور على صعيد الأمن يحيل الحياة المعاصرة الى حالة طوارئ دائمة، بقدر ما يدخل البشرية في أتون حرب أهلية كونية، كما يقول الفيلسوف بول فيريليو. وهذا ايضاً احد المتغيرات الهامة الطارئة على المسرح العالمي. إنها الصراعات الفائقة، كما يصفها جاك أتالي، في أزمنة الحداثة الفائقة. والسؤال هنا: ماذا تجدي شعارات مثل الله والإيمان والديموقراطية والسيادة والتحرر والمقاومة والتنمية، إذا كنا عاجزين عن حفظ الأمن وضمان السلامة؟

في ضوء هذه المتغيرات بات من التبسيط والاختزال والخداع أن نشخص المشكلة بوصفها صراعاً بين الاسلام والغرب او بين المسيحيين والمسلمين. إنها مشكلة الانسان مع نفسه كما تتجسم في عجزه عن تدبر الازمات ومواجهة التحديات او ادارة التحولات.

الإسلام ومشكلته

ومعنى كونها كذلك، أن مشكلة الاسلام هي مع نفسه من جهة اولى. وهذه المشكلة تتجسم في داء الاصطفاء وفخ الاستثناء ومنطق الالغاء، كما تتجسد في خرافة المماهاة مع الذات او في جرثومة التضاد مع الآخر. هذا هو الداء الاعظم

(1) مرة اخرى استشهد بتجربتي. فأنا آت من مدينة تكاد تتحول الى ثكنة، إذ يجري فيها بالتدريج، تسييج المقرات والمراكز والأماكن التابعة للرؤساء والزعماء وقادة الاحزاب والسفارات والهيئات الدولية والمؤسسات التربوية والمنشآت السياحية... كلها باتت مسيجة بالحواجز الاسمنتية او بالاشرطة الصفراء. واذا كانت بيروت تشكل الآن استثناءً أمنياً، فإني أتخيل أنها سوف تشكل نموذجاً لما يمكن أن تكون عليه مدن المستقبل، حيث يحتاج كل واحد الى حارس لضمان أمنه الشخصي.

الـــذي يفتك بالمجتمعات العربية. انها النرجسية الثقافية، التي تجعل العرب يستقيلون من مهمة التفكير الحي والخلاق لكي يشتغلوا بعبادة السلف بوصفهم خير امة، او بـــتقديس النصوص بوصفها تنطوي على مفاتيح الحقيقة والهداية. ويبلغ هذا الداء النرجسي مفعوله الأقصى لدى الدعاة الذين يسطون على المعارف والنظريات التي تنتجها العقول في مراكز البحث لنسبتها الى القرآن والاسلام. وتلك هي الفضيحة.

واذا كـــان هذا شأن ديناصورات التراث من الدعاة القدامى والجدد، فليس الوضع بأفضل مع عجزة الحداثة وكهولها من اتباع المدارس والمذاهب والاتجاهات القومـــية او الاشتراكية او التقدمية، لأنهم لم يحسنوا ترجمة عناوينهم إلا بأضدادها بقدر ما تعاملوا مع الحداثة والتقدم بصورة تقليدية تراجعية.

الغرب ومشكلته

هـــذا أيضاً شأن الغرب من جهته وعلى جبهته: إن مشكلته الاولى تكمن في نماذجـــه في الـــرؤية او مبادئه في التصنيف والتقييم، كما تكمن في نهاية مشاريعه ومآلاتهـــا التي هي بعكس الادعاءات والبدايات. ولذا فهي تتجسد اولاً في استنفاد المـــوجات الاولى للحداثـــة عناويـــنها ونماذجها وادواتها، مع الطفرات والثورات والتحولات العلمية والتقنية والحضارية التي تدخل البشرية في عصر الحداثة السيالة والفائقـــة؛ وتتجسد ثانياً في نظر الغربيين الى انفسهم بوصفهم استثناء حضارياً من حيث قيمهم ومثلهم وثقافتهم وانماط حكمهم وأساليب عيشهم؛ وتتجسد ثالثاً في نـــزعة الهيمـــنة والتوســـع، كما هي علاق الغرب بالعالم العربي، بدءاً من حملة نابلـــوين الى غـــزوة بوش؛ وهي تتجسد اخيراً في محاولة فرض قيمهم بالقوة وعبر الحروب الاستباقية، على ما تفعل الاصولية الانجيلية بقيادة المحافظين الجدد.

وهكذا فنحن اليوم ازاء اصوليات هي وجوه لعملة عقائدية واحدة من حيث الفكـــر الاحـــادي والمعـــتقد الاصطفائي والمنطق الالغائي والمنـــزع الاستبدادي الامـــبراطوري او الارهـــابي. ولذا فهي تتواطأ على تهديد السلام العالمي وتخريب العمـــران البـــشري. ولا عجب، فهذا شأن الضد مع ضده: إنه يستدعيه بقدر ما يتغذى منه، ويعمل على تقويته وتجديده بقدر ما يقدم له المبررات والذرائع، خاصة

في هذا العصر حيث تتشابك المصالح والمصائر، وتتعولم الهويات والمشكلات والصراعات، بقدر ما تتعولم الخيرات والموارد والثروات، كما تشهد المعضلات الامنية والبيئة والصحية والاجتماعية. ولعل هذا التغير من أهم التحولات في المشهد العالمي، كما يتجلى في نشوء فاعل بشري جديد، هو المواطن الكوسموبوليتي، الذي ينشط ويتدخل أو يعمل وينتج، أو بالعكس يفسد ويخرّب على المستوى الكوكبي.

كسر منطق التضاد

في ضوء هذا التحليل والتشخيص تنشأ الحاجة النقدية الى اجتراح امكانات جديدة بزحزحة المشكلات وتجاوز الثنائيات، لاعادة تركيب الحلول وبناء المعالجات[1].

من هنا يبدو لي الآن مكمن الخلل ومصدر الخطر مع اصحاب العقلية الاصطفائية والنفسية المعطوبة والموبوءة التي ينزه اصحابها أنفسهم من خلال اطياف الالوهة والقداسة والعصمة، لكي يدينوا الآخر بالعمل على أبلسته والتعامل معه من خلال مفردات الشبح والبعبع او الشيطان والجحيم. ذلك هو الوباء الفتاك الذي ينخر بمجتمعاتنا كما يتمثل في الجرثومة الاصولية الاصطفائية التي لا يحسن اصحابها أن يفكروا إلا باختراع اعداء لهم في الداخل او في الخارج، وأن يعملوا على استنفار الطوائف والجماعات لصنع انظمة شمولية او مجتمعات مغلقة ومعسكرة، أو لاطلاق دعوات مستحيلة تُترجم استراتيجيات قاتلة ومدمرة. باختصار: هذا هو بيت الداء: الكتل المرصوصة والحشود العمياء التي تمارس طقوس التقديس والعبادة تجاه زعمائها وآلهتها الذين هم في الوقت نفسه جلّادوها. وما

(1) بهذا المعنى ليست مشكلة العرب مع أمريكا التعددية الديموقراطية التي تتيح لأبرز مفكر يساري، نعوم تشومسكي، الذي يعد منشقاً لا معارضاً، أن يأتي إلى لبنان لكي يجتمع بالأمين العام لحزب الله ويعلن دعمه له. قد تكون المشكلة مع أمريكا الإنجيلية البوشية، ومع نظرائها في العالم العربي، كما هي مع ثقافتنا ومجتمعاتنا التي تختم على العقول وتحول التراثات الحية والأفكار الخصبة إلى أقانيم مقدسة وأصنام نظرية وسجون عقائدية، تدمر منابع الطاقة الحية وتشل القدرة على الخلق والإبداع.

تتقنه الحشود والجماهير، ليس أعمال التواصل والبناء، بل أن تتعصب وتشحن لكي تكـــون مـــصنعاً للكـــره والعـــداء، أو مادة القهر والاستبداد، أو أداة الإرهاب والاستئصال.

تواطؤ الأضداد

أخلـــص مـــن ذلك الى أن المشكلة الاصلية لم تعد بين العالم العربي والعالم الغربي، إذ كلاهما عالم يتسم بالتعدد والتنوع والتعارض بين كتله وقواه واتجاهاته، وإنمـــا هـــي بـــين كتلـــتين عالميتين تتألف كل منهما من تعدد اللغات والثقافات والأعراق والمذاهب والتيارات والمشروعيات:

1 - الاصـــوليات المتعارضـــة بـــرموزها وشعاراتها الثقافية والايديولوجية، ولكن المـــتماثلة من حيث منطق الفكر الاحادي والانغلاق العقائدي والنقاء الثقافي والـــصدام الحضاري، كما هو شأن الذين يفكرون ويعملون تحت خانة المطلق والمقدس والثابت والكامل والنهائي. والحصيلة هي تواطؤ الأضداد على انتهاك القـــضايا التي يدافعون عنها، بقدر ما يتعلقون بالأشياء حتى اضدادها، على ما تـــشهد العلاقة بالله والحقيقة والعقل والحرية والاسلام والعروبة، إذ هي تترجم جنوناً وارهاباً ونفاقاً، او فوضى وشعوذةً وشرذمةً.

2 - مقابـــل ذلك هناك كتلة القوى والفاعليات التي يفكر أصحابها بعقلية الحوار والاعتـــراف والمـــبادلة والتـــسوية، والذين يشتغلون على فكرهم وهوياتهم وواقعهـــم، بالـــنقد والمـــراجعة، على سبيل الزحزحة والاحالة، او الصرف والـــتحويل، او اعادة البناء والتركيب، لاجتراح امكانات جديدة وفتح آفاق مغايرة امام العمل الحضاري.

إن ادارة الـــشأن البـــشري والكـــوكبي، في عصر الاعتماد المتبادل والمواطن العالمـــي، بالعدة الاصولية السائدة، فكراً ونهجاً وعملاً، سواء من جانب الجهادية الاسلامية او الاصولية الانجيلية او العقيدة التلمودية، لا تنتج الا ما تعاني منه البشرية المعاصرة من المساوئ والمخاطر او الآفات والامراض، كما تتجسم عنفاً فاحشاً في الزمن الفائق، وحروباً اهلية كونية، تحيل الحياة الى جحيم لا يطاق.

العقل التداولي

خلاصة القول: نحن إزاء إمكانيتين: (1) الانخراط في منطق الاصطفاء والتمييز والتقوقع والعسكرة والانفراد والاحتكار والصدام؛ (2) أو إتقان لغة الاعتراف والحوار والتوسّط والتعدّد والمباحثة والشراكة والمبادلة...

ولكل خيار ثمنه ومفاعيله. أن نخشى ونتقوقع على الذات لكي نتمترس وراء خصوصيتنا على نحو عنصري، مآله المزيد من التوتر والتأزّم والاضطراب على المسرح الكوني، حيث ما هو عالمي أو خارجي بات، بتأثيره وفاعليته، بأهمية ما هو محلي أو وطني.

من هنا الأمل الكبير بأن تستثمر فتوحات ثورات الاتصال والمعلومات، على نحو إيجابي، لصياغة العلاقات بين الدول والمجتمعات، في مناخات الاعتراف والتلاقي والتلاقح والتعاون، وبصورة تتيح للخصوصيات أن تتجلى على سبيل النفع المتبادل والإثراء المتبادل.

ولذا فإن الخروج من المأزق هو العمل على التمرّس باستراتيجية فكرية جديدة من مفرداتها: الاعتراف المتبادل، لغة التسوية، عقلية الشراكة، البعد المتعدد، ثقافة التهجين، العقلانية المركبة، المنطق التحويلي، الانسان الادنى، وكل ما ادرجه تحت مصطلح "العقل التداولي".

المراجع

- جاك أتالي، موجز في تاريخ المستقبل، فايار 2006.
- علي حرب، العالم ومأزقه، (القسم الأول: العلاقة بين الإسلام والغرب، صدام الحضارات)، المركز الثقافي العربي 2002.

نحن ضحايا أفكارنا(*)

I- المسألة الطائفية وخطرها الزاحف

محنة المفكّرين

لا مراء أن المسألة الطائفية أمست واحدةً من قضايا الساعة، بقدر ما أمست، بخطرها الزاحف، هماً وهاجساً في البلدان العربية والإسلامية. وأنا لا أتناول هذه المسألة، في هذا اللقاء، على صعيد مجتمعي أو إناسي أو سياسي، وإنما أعالجها على صعيد فكري، بما يتعدى الطائفية إلى ما يعيد إنتاجها، في العقول والخطابات، لكي تترجم على النحو الأخطر والأرهب على أرض الواقع. من هنا أعطيت لمحاضرتي عنواناً آخر: "نحن ضحايا أفكارنا".

ولعلّي بذلك أدخل مباشرة الى موضوع حديثنا بقدر ما أشير الى محنتنا، نحن الذين نشتغل بصناعة الافكار او نتصدى لقيادة الرأي العام: فكيف نفسر، أن يحصل ما يحدث من دماء ودمار، بعد كل هذه المشاريع الثقافية والعناوين الحضارية، منذ الطهطاوي والافغاني ومحمد عبده حتى اليوم؟ كيف نعقل أن نعود القهقرى بعد حوالي قرنين من الدعوة الى النهوض والاستنارة والتحديث والتقدم؟

ولا أحسبني أبالغ في توصيفي للوضع العربي البائس الذي يثير الحزن والمرارة، وربما يثير الخوف والفزع ما دمنا نسير بهذه السرعة نحو التردي والتفكك، بقدر ما نغرق في دوامة هذه الحروب الاهلية الدائرة على ارضنا من العراق الى لبنان، ومن دارفور الى فلسطين، حيث يقتتل ابناء الطائفة الواحدة والقضية الاولى؟

فكيف يحدث أن تستيقظ الفتن المذهبية وتعود الحروب الطائفية من حيث لا نعقل ولا نحسب، بعد سنوات طويلة من الدعوات والمؤتمرات حول الحوار والتقريب؟

(*) محاضرة ألقيت في "جمعية المنتدى"، في مملكة البحرين، مساء الأحد في 2007/2/18.

وكيف نفسر أن يؤول النصر الالهي الى تطاحن بشري على المناصب والمقاعد؟

بل كيف يُترجم شعار الحاكمية الإلهية، حيث الله هو حدٌّ بين الانسان ونظيره، الى انتهاك كلّ الحدود والحُرُمات؟

بعد كل هذا، وفيما يعنينا نحن، كمثقفين، كيف نفهم أن الكتلة الحداثية، بمختلف منوعاتها وتياراتها، الوطنية والاشتراكية واليسارية والليبرالية، تكاد تساوي صفراً من حيث فاعليتها وتأثيرها، كما تشهد غير ساحة عربية، من مصر الى لبنان؟ وهذه واحدة من فضائح النخب الحديثة.

لنطمئن الى عجزنا. لسنا نحن فقط في الدوامة. فالاسئلة المقلقة تتعدى النطاق العربي الى الفضاء العالمي الذي بات ساحة واحدة. ولكننا لاهون عن الأسئلة العالمية والكونية بهواجسنا المذهبية والطائفية.

والاسئلة هنا كثيرة: كيف نفهم أن يفتتح القرن الواحد والعشرون بمثل ما افتتح به من عنف يفوق التصوّر؟ كيف نعقل بعد اربعة قرون عناوينها العقل والتنوير والتقدم والتحرر، أن تغرق البشرية في ما يشبه الحرب الاهلية الكونية؟ وإذا شئت تجاوز الطابع الايديولوجي نحو الطابع الانساني بل الكوني تثور في ذهننا أسئلة من هذا العيار: القيم الى اين؟ المجتمع الى اين؟ كما يتساءل الكثيرون. وأنا أضيف الى ذلك فأسأل: الانسان الى اين؟ بل الارض بمن وما عليها الى اين؟

مثل هذه الاسئلة هي ما يحركني الى الكتابة، وما يكمن وراء محاضرتي التي تنطوي على قسمين: التحليل والتفكيك على سبيل الفهم والتشخيص، ثم اعادة البناء والتركيب على سبيل المعالجة والتدبير.

متغيرات المشهد العالمي

وانا إذ احاول، أن أقرأ وأشخص، لا افصل الوضع العربي عن الوضع العالمي الذي هو جزء منه يتأثر به كما يؤثر فيه. والمشهد العالمي سجل في العقدين الاخيرين تغيرات سريعة وجذرية ذات طابع سياسي واستراتيجي او ايديولوجي وثقافي تغيرت معها خريطة الصراعات بين القوى والكتل والدول الفاعلة، سواء على المستوى الدولي

او علـــى المستوى العربي والاقليمي، سيما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وأحداث ايلول الاميركي، وكما تجسد ذلك في صعود الأصوليات الدينية على المسرح الكوني[1].

يضاف إلى ذلك، بل قبل ذلك المأزق الذي تواجهه البشرية في هذا المنعطف الحضاري والتاريخي: كون الانسان يطرح قضايا تفوق قدراته، او يرفع شعارات لا يحـــسن ســـوى انتهاكها، او يدعي محاربة اعداء يتواطأ معهم على صناعة الخراب والهلاك؛ وكأن البشرية اصبحت اسيرة ما تصنعه من الانظمة والشبكات والادوات والاســـواق... وكـــأن هناك نسقاً أعظم يتحكّم بتصرفات البشر، من وراء كلّ الإدّعاءات حول التيقّن والقبض والسيادة.

هـــذه الازمـــة المستحكمة[2] هي التي تحمل على اثارة اسئلة القيم والمصائر، وســـط مـــا يحفل به المشهد العالمي من الفوضى والاضطراب والارهاب والدماء والعبث والجنون...

هشاشة المثقفين

كيف نفسر كل هذا الفشل والتراجع والخراب العميم والفساد في الارض، خاصـــةً في بلدانـــنا ومجتمعاتـــنا؟ كيف نفهم هذا الارتداد من كوادر الحزب

---

(1) ولـــذا فالأصـــولية، تنشط الآن، ليس فقط عندنا، بل في الولايات المتحدة بالذات، البلد الاكثر حداثة في نظامه وتقنياته، وكما تشهد الحملات التي يشنها الانجيليون الجدد ضد منطق العلم والتطور. فهم كانوا يطالبون، قبل عقود، بتدريس نظرية الخلق على قدم المساواة مع نظرية الـــتطور، أمـــا الـــيوم فإنهم يطالبون، في بعض الولايات، بإلغاء نظرية التطور من برامج التعليم.

ولكـــن هناك فارق بيننا وبين الغربيين: هم يسلطون الضوء على الآفات ويضعون المشكلات علـــى طاولـــة الـــدرس والتـــشريح، تشخيصاً للازمة، وبحثاً عن المخارج، ولا يستسلمون لمحاولات التسلط والهيمنة او المصادرة والاحتكار او الحجب والخداع او التشبيح والشعوذة. فمقابـــل الدعوة الى اقصاء نظرية التطور في اميركا، ثمة من يكتب كتاباً ضخماً للدفاع عن دارون، او للحـــديث عـــن "وَهْـــم الله"؛ ومقابل الدفاع عن ارتداء الحجاب في فرنسا او في اوســـتراليا، ثمة من يضع "مصنفاً في الالحاد"؛ وهناك نساء يصعدن لكي يمارسن جدارتهن الوجـــودية والسياسية كما تفعل «بغولين رويال التي أقامت مع والد ابنائها علاقة شراكة او صـــحبة، لا علاقـــة زواج تقلـــيدي، وقـــد تكون على كل حال، بوصفها علاقة علنية، اكثر مشروعية، من زواج المتعة او الزواج العرفي، حيث تجري العقود في الغرف المعتمة.

(2) راجع بشأن أعراض هذه الأزمة ووجوهها أعلاه: أسئلة القيم والمصائر.

الحديث الى قواعد الطائفة التقليدية؟ او هذا الانتقال من جلباب الأب الى عباءة الفقيه؟

أبـدأ بقطاعـنا وقبيلتنا الحداثية، فهي أحد وجوه الازمة وعرض من اعراض الداء، ذلك ان الحداثيين لم يكونوا كما ادّعوا، بل كانوا أقل من ذلك، وربما على عكـس مـا ادّعوا. نعم هم قدّموا أنفسهم بوصفهم دعاة نهوض وتقدم، واتهموا غيرهـم بالـرجعية والتخلف، فيما هم أنفسهم كانوا رجعيين، إذ تمسكوا بحداثة مـستهلكة عمرها اربعة قرون، و لم يحسنوا المشاركة في صناعتها على سبيل الخلق والـتجديد في عناوينها وموجاتها؛ كذلك، ادّعوا بأنهم اصحاب عقل نقدي وفكر تاريخـي، ولكـنهم تعاملوا مع شعاراتهم بمنطق لاهوتي، فانتقلوا من عبادة الانبياء والاصول الى عبادة الحداثة وتقديس العقل، فضلاً عن تقديس الزعماء من لينين الى مـاو، او مـن جيفارا الى كاسترو، او من عبد الناصر الى صدام. فكانوا اصوليين حداثـيين. وهذا من اسباب ضعفهم وهشاشتهم، إذ الاصولية الدينية كانت اكثر رسوخاً وفاعلية، و لم يستطيعوا منافستها على ارض القداسة المنتهكة باستمرار.

مـن هـنا مـدى الخداع في رميهم التهمة على الغير، وقولهم بأن الانظمة الاسـتبدادية قـد ابتلعت قوى المجتمع الحية والمدنية بنخبه وجماهيره، وأنها كانت المـسؤولة عن دفع الناس الى احضان رجال الدين ومؤسساته واحزابه. ولو كانوا يـشكلون فعـلاً قوة ديناميكية، لما جرى ابتلاعهم. وهم يشهدون على انفسهم بهشاشتهم، ليس فقط على الصعيد السياسي، بل على الصعيد الفكري بالذات، أي مـا يُفتـرض أنه ميزتهم وسلاحهم. إذ كان أكثرهم مرعوباً من الطفرات المعرفية والثورات الحضارية، كما تمثلت في منهج التفكيك، او في فلسفة الاختلاف، او في موجة ما بعد الحداثة، او في فتوحات العولمة. ومن يكن على مثل الهشاشة الفكرية، يفقد مصداقيته وفاعليته ولا يشكّل قوة يحسب لها حساب.

وهكذا لم ينجح الحداثيون في تغيير المجتمعات، كما لم يحسنوا هم ان يتغيروا، وكانـت الحـصيلة سقوط شعاراتهم وفشل مشاريعهم وتحوّلهم الى مُلحق لرجال الدين بشعاراتهم ومشاريعهم.

ويا لها من آخرة، ان ينتهي المثقف الحداثي، التنويري والعقلاني، تحت ذريعة مقاومة اميركا، الى العمل تحت يافطة الاسلمة، كما فعل الشارع العربي بجماهيره،

ونخبه الهائجة والعاجزة او الفاشلة، إبان حرب تموز 2006. حقاً يا لها من نهاية ان ينـــتقل الكلّ من جلباب الأب الفعلي، او الأب السياسي، الرئيس القائد او الزعيم الأوحـــد، الى عباءة الفقيه الذي بات القائد والرمز او البطل والاسطورة، والناطق بإسم الله، بل الاله على الارض.

إرهاب الداعية

انـــتقل بذلك الى الوجه الآخر للعملة في محاولة تشخيص الداء، وأعني صعود المـــنظمات الاصـــولية الجهادية، على المسرح في العالم العربي، مستفيدةً من نجاح الـــثورة الايرانية، ومن هزيمة الاتحاد السوفياتي في افغانستان وسقوطه على ارضه. وكانـــت بـــذلك مدعـــومة من بعض الانظمة العربية، عن قناعة او عن عدوى وخوف، بقدر ما كانت مدعومة من جانب الولايات المتحدة، التي تحالفت معها، او استخدمتها، في صراعها مع المعسكر الاشتراكي.

بالطـــبع أفـــاد الاسلاميون من انهيار المشروع القومي، والمشروع الاشتراكي الـــذي ولد اصلاً ميتاً. لقد اعتبروا ذلك حجة ساطعة لمصلحتهم، وفرصة للتأكيد على شعارهم: الاسلام هو الحل والبديل...

ولكـــن هـــا هي النتيجة، على ما نعاني ونذوق: استجماع مساوئ المشاريع السابقة، إذ اضافوا الى التخلف والاستبداد والفساد، الارهاب والفتن الاهلية؛ كما تـــندلع الحرب الطائفية في العراق، وكما يخشى أن تندلع في لبنان، حيث الفتنة لا تحـــتاج الا الى عـــود ثقاب للاشتعال وسط الجماعات المستنفرة وفي ظل حملات الشحن والتعبئة.

داء الاصطفاء

وتلـــك هي حصيلة محاولات تحويل الدين الى نظام شمولي يهيمن على مختلف مناحـــي الحـــياة المعاصرة بفقه العصور السالفة. وهذا هو مآل احتكار المشروعية لممارســـة الوصاية على الأمة والهوية، بفكر أحادي مغلق، او بمنطق دغمائي ثبوتي، او بعقلية اصطفائية نرجسية، تشكّل اعتداءً رمزياً على الآخرين، كما يتجسد ذلك في جملة اعتقادات او ادعاءات مثل خير امة، او اشرف الخلق، او سيد الشهداء، او اهـــل الحـــق، او المـــصطفين والمنتجبين، او الفرقة الناجية وحدها من بين الفرق،

وســوى ذلك من المزاعم التي توهم اصحابها لدى هذه الجماعة او ذلك المذهب، لــدى هــذا الداعية او ذلك الامير الجهادي، بأنه يمتلك مفاتيح الحقيقة والهداية، لاصلاح الامة، بل لانقاذ البشرية، بوصفه الأحق والأشرف والأفضل.

بالطبع لا أزعم ان هذه المزاعم والعقد هي خاصة بنا، إذ كل العقائد القديمة والحديــثة، تتأســس على عنف قدسي رمزي، كلها تمارس الاحادية والنرجسية والاقصاء.

ولكن هذا الداء هو مزمن عندنا ومستحكم في النفوس والعقول، الى حد يصادر حرية التفكير، ويشلّ ارادة الخلق والتحول، بقدر ما يدمّر مصادر القوّة والحيويّة. وهذا هو الاخطر. كل الامم لديها تراثات تهتم بحفظها والعمل عليها لاستثمارها في صناعة الحاضــر؛ باســتثناء العرب الذين قرروا، وعلى عكس اسلافهم، الاستقالة من مهام التفكير الحي المستقل والخلاق، لكي يشتغلوا بعبادة الاصول والنصوص.

عودة مرعبة

وهكــذا عــاد الدين، ولكن لم يعد كأفيون مخدّر، للسيطرة على الشعوب وضبط الحشود، كما كان يصفه ماركس، ولا هو بالطبع عاد كفيتامين للضعفاء، كمــا يرد الآن ريجيس دوبري على ماركس، وانما عاد كفيروس قاتل يفتك بجسد الامــة ويهدد وحدتها ويعيدها الى الوراء، كما يتجسّم ذلك في الجرثومة الاصولية الاصطفائية التي تصنع كل هذه الكوارث والممارسات البربرية.

وتلــك هــي حصيلة رفع شعار الحاكمية الالهية والسعي الى اسلمة الحياة، والعمــل بمــنطق الفــتوى. فالحاكمية تترجم ارهاباً وانتهاكاً فاضحاً للحرمات والحدود، على يد الأنبياء والآلهة الجدد الذين يزرعون الرعب حيث أمكنهم ذلك في أرجاء الكرة الأرضية؛ والأسلمة تترجم فقراً وجهلاً وسطواً على منجزات الغير وممارســة للهوية بصورة كاريكاتورية، بقدر ما تدمر صيغ التعايش بين المسلمين وغــير المسلمين، في البلاد العربية وفي البلدان الاجنبية التي يقيم فيها مسلمون. أما مــنطق الفــتوى، على هذا المذهب او ذاك، فإنه يدمّر القضايا التي يدافعون عنها، بقــدر ما يسمّم نظام الحياة ويدمر صيغ التعايش بين المسلمين أنفسهم، كما هي الوقائع الصارخة والمحن المريرة.

كوارث التقديس

في خلاصة هذا التشخيص، يستوي الكلّ، الداعية والمثقف، القومي والاسلامي والاشتراكي، إذ كلّهم أحالوا المكتسبات والمنجزات القديمة والحديثة الى آلات لانتاج التخلّف والفقر والعماء والاستبداد والخراب. كلّهم ترجموا العناوين والشعارات بأضدادها، فتواطأوا مع أضدادهم، بقدر ما قدّسوا الاشياء وتعلّقوا بها حتى أضدادها. فالقومي ترجم الوحدة الى فرقة وشرذمة، واليساري ترجم الاشتراكية الى فقر، اما الاسلاميون فإنهم يشنّون حرب استئصال وابادة، ضد بعضهم البعض، تحت كلمة الله الجامعة.

وهذه هي ثمرة تقديسهم لعناوين مثل الحقيقة والحرية والعروبة والشريعة والديموقراطية: إنتاج آلهة وطغاة او عبيد وضحايا. بهذا المعنى فالطغاة الذين يدّعون محاربتهم هم صنيعة أفكارهم، والانسانية التي يتباكون عليها هي مصدر البربرية التي تصدمهم[1].

لنعترف نحن ضحايا افكارنا، كما تتجسّم في أشكال الوعي وأنماط التفكير ونماذج الرؤية وقواعد المعاملة: الأحادية الفكرية، النرجسية الثقافية، الطوباوية الايديولوجية، الخوف من التغيرات، استعداء الآخر والعالم، التهرب من حمل المسؤولية والاحساس بالمظلومية، فضلاً عن أخطر الآفات والامراض، كما يتمثل ذلك في عبادة الاصول وتقديس النصوص وإرادة التألّه، أي كل ما يصنع الهزائم والكوارث.

هذا هو بيت الداء الذي يولد العجز والفقر والجهل والعماء والاستبداد. وهذه هي العلبة السوداء التي تفاجئنا، بما لا نحسب ولا ننتظر، من شرور انفسنا وبربرية اعمالنا: تأليه الاشخاص والاسماء والافكار، او بالعكس رفضها والعمل على أبلستها، كشيطان رجيم او كبعبع وجحيم.

مثل هذا المنطق الحاسم يضعنا بين فكّي الكماشة: إما المماهاة والخضوع والذوبان، حيث القضايا الكبرى، كالعروبة والاسلام والمقاومة، أو الحرية

(1) وليس عرضاً أنّ نقابات للمحامين وجمعيات لحقوق الانسان، في بعض الدول العربية، تقيم مجالس عزاء لطاغية بغداد.

والديموقـــراطية والعولمة، تتحول الى نظام شمولي يعسكر المجتمعات، او الى كابوس يسحق الافراد، او الى أقانيم مفهومية أشبه بالتنانين؛ وإما التضاد والنفي والاقصاء، للواقـــع والحدث او للمختلف والآخر، لتحويلها الى عوائق ومطبّات او الى افخاخ ومآزق.

باختصار: نحن لا نتعامل مع الاشياء والوقائع بوصفها امكاناتها التي يجدر بنا اجتـــراحها واســـتثمارها، بـــل نتعامل مع الأزمنة والتراثات والامكنة والهويات والمكتـــسبات، بوجـــوهها الارذل والأســـوأ او الارهـــب والاخطـــر، او الهزلي والكاريكاتوري، أكانت قبيلة أم طائفة ام حزباً ام نصاً... ام مؤسسة ام دولة...

هذا الداء هو الذي يفسر كيف أن كل طرف من اطراف الصراع، بدلاً من أن يسعى الى اجتراح المخارج وتركيب الحلول، بالزحزحة عن مركزيته والتحول عما هو عليه، يعود القهقرى الى البنى والأطر التقليدية او السائدة، اي الى قبيلته او طائفته او جماعته او حزبه...

أخلص من هذا النقد إلى استدراكين مهمين:

الحرب المركبة

أ – **الأول مفـــاده:** أنـــه من التبسيط اعتبار الحروب الأهلية الدائرة على أرضنا، بأجـــسادنا وأرزاقنا، مجرد فتن مذهبية. فما يجري في العراق، أو ما يخشى أن يحـــدث في لبنان، ليس مجرد فتن بين سنّة وشيعة، وإنما نحن إزاء حرب ملتبسة ومركّبة، هي وطنية وعربية أو إسلامية، بقدر ما هي إقليمية وعالمية.

هـــي ملتبـــسة لأن المواقف السياسية ليست واحدة عند نفس الطائفة. فشيعة حـــزب الله، مثلاً، هم في لبنان ضد المحور الأميركي، ولكنهم عاطفياً مع شيعة العـــراق الذين هم مع أميركا. وفي المقابل، إن سنّة "تيار المستقبل" هم سياسياً مع المحور الأميركي في لبنان، ولكنهم عاطفياً مع سنّة العراق و"تنظيم القاعدة" المقاومين لأميركا.

والحرب هي مركّبة، لأن القوى والأحزاب المحلية، إنما هي مندرجة في صراع أكـــبر وأوسع، كما يتمثّل ذلك في المواجهة بين محورين، الأول تقوده أميركا وحلفاؤهـــا مـــن الدول العربية والغربية، فضلاً عن إسرائيل، فيما المحور الثاني

تقــوده إيران وحلفاؤها من عرب ولبنانيين. من هنا نفهم تحالف الإسلاميين والقومــيين واليــساريين في العراق على تأييد المقاومة، بما ترتكبه من المجازر وأعمـــال التطهير المذهبي. وهذا البعد الإقليمي والعالمي، هو ما يفسر بالذات، الاقتتال الوحشي بين حماس وفتح على الساحة الفلسطينية.

ولكن المستوى الإقليمي والدولي للصراع، لا يعني أن نتصل من المسؤولية. فإذا كانــت الاستراتيجيات والضغوط الخارجية فاعلة ومؤثرة إلى حد كبير، فإن الثقافة الدينية، بتصنيفاتها الضدية وأمراضها الاصطفائية التي تجعل كل مذهب يدعــي بأنه يحتكر المشروعية الإسلامية، وحده من دون سواه، تشكّل أرضاً خــصبة لإيقــاظ الفتنة وإشعال فتيل الحرب. الأمر الذي يعني أن المعالجة تبدأ على أرضنا وأن الحلول يجري تركيبها من جانبا، على قدم المساواة مع القوى الخارجية.

الأطر الجامعة

ب – **أمــا الاســتدراك الــثاني**، فمفاده أن نقد الطائفية، لا يعني المطالبة بإلغاء الطوائــف. فــلا مجــتمع من دون طوائف. وأنا أستخدم الكلمة هنا بمعناها الأحــدث والأوسع، كما استخدمت، بداية في الفكر السياسي الأميركي، في الــستينات مــن القــرن المنصرم، لدى صعود حركات الاحتجاج من السود والنساء وسائر الجماعات التي تعاني من الاقصاء والتهميش.

بهــذا المعــنى لا تقتصر الطائفة على الجماعات الدينية أو المذهبية، وإنما تشمل أيــضاً كل التجمعات أو التشكيلات المجتمعية التي لها خصوصية ثقافية معينة، دينية، أو مذهبية، أو لغوية، أو عرقية، أو حتى جنسية (من الجنس كفرق بين الذكر والأنثى)...

ان المجتمع، بهذا المعنى، هو بالتعريف منتج للطوائف، بأنساقها الرمزية وثقافاتها الفــرعية مــن التقالــيد والعادات وأساليب العيش. والذين تخيّلوا مجتمعاً بلا طوائــف، يرتبط فيه المواطنون والأفراد بالدولة ومؤسساتها وقوانينها على نحو مجــرد، قد غرقوا في أوهامهم، بقدر ما انخرطوا أو أسهموا في إنتاج تجمعات أسوأ من الطوائف التي عملوا على نقدها أو التحرر من أطرها.

في ضـــوء ذلك، ما هو موضع النقد، ليس الطوائف ولا الهويات، وإنما طرق تعامـــل الفـــرد مع خصوصيته أو انتمائه. والتجارب المريرة أو القاتلة، في هذا الخصوص، تشهد على أن دولاً حديثة رفعت راية العلمانية والتقدّم أو التحرر، في وجه الدين وتقاليده، قد أنتجت مجتمعات تحولت معها العلمانية إلى لاهوت مـــضاعف بحجـــبه واستبداده، إذ أفضت إلى قيام أنظمة، تجمع بين الاستبداد القديم والشمولية الحديثة، بإرهابها وتشكيلاتها الفاشية.

وهكذا فالعلّة لا تكمن في الطوائف، بل في كيفية سوْسها وادارتها وفي طريقة الـــتعامل معهـــا. بهـــذا المعـــنى، فالمـــشكلة، بل الكارثة، هي عندما تتحول الخـــصوصيات الطائفية، الى محميات عنصرية، أو الى مؤسسات فاشية، او الى أنظمـــة شمولـــية بفعـــل ممارسات التألّه والتقديس والمماهاة التامة مع الذات وقضاياها[1].

وما هو خطر في هذه الظاهرة، هو الأوعية الطائفية المتصلة، بين بلد وبلد، مما يجعل السني يتماهى مع السني، والشيعي مع الشيعي. بالطبع يمكن لأي جماعة التواصـــل مـــع ســـواها، في بلاد الله الواسعة، بعد أن أصبحت السمة العالمية للهـــويات واقعـــاً حـــياً وملموساً، ولكن ليس على حساب مجتمعها أو ضد الجماعـــات الأخـــرى في بلـــدها. فمن لا يحسن التواصل مع أبناء الطوائف الأخرى في بلده، لكي يسعى إلى التماهي مع أبناء طائفته، في غير بلده، أكان ســـنياً أم شيعياً، مسلماً أم مسيحياً أم يهودياً، إنما يعمل على تخريب بلده، بما يعود وبالاً على طائفته بالذات.

خلاصة القول: إن نقد الممارسات الطائفية السياسية، لا يعني إلغاء الطوائف. فهذا مُحال وعبث، لأن المجتمع هو في النهاية طوائفه وقبائله وأحزابه. ومحاولة إلغاء الطوائف يزيد من عنصريتها او يحولها الى تشكيلات فاشية. ولكن ذلك لا يعني أن نعود إلى ما قبل الدولة في ادارة الاوطان والبلاد والمجتمعات، للعمل

---

(1) هذا ما تطالعنا به، في لبنان، الحشود المتراصّة التي تنتشي الى حدّ الذوبان في صورة القائد لدى رؤيته او سماعه، بقدر ما ترفع القبضات على سبيل الوعيد والتهديد والاقصاء الرمزي للآخر، تمهيداً لإقصائه السياسي او المادي.

بمنطق طائفي او قبلي، لأن ذلك يعود بالخراب على الطوائف والقبائل. فحيث تغيب الدولة أو تضعف، كما نعاني ونذوق في العراق أو في لبنان، تبرز العصبيات البغيضة، وتنشط الميلشيات والمقاومات من كل نوع، وتنفلت الغرائز والقوى العمياء من عقالها، بما يعيدنا إلى ما يشبه حالة الطبيعة، لكي يترجم ذلك ممارسات بربرية، ولا أقول حيوانية، حتى لا أظلم الحيوان. وبالطبع لا أقول جاهلية، إذ ما أبعدنا عن ذلك الزمن الذي كان من أجمل أزمنتنا، قياساً على حاضرنا.

ولكن تغليب منطق الدولة على منطق الطائفة او القبيلة، لا يعني من جهة اخرى العودة الى الدولة بمفهومها الكلاسيكي، كما يطالب بها الآن مَن كانوا يرفضونها من قبل على جبهة القوى اليسارية والتقدمية، فنحن نتجاوز الآن الدولة الى ما بعدها من الأطر الواسعة الاقليمية والدولية.

ولذا، فالدولة الفعّالة تنفتح اليوم على الخارج، بقدر ما تنفتح في الداخل على المجتمع بمختلف قواه ومستوياته وهيئاته وعناصره، وذلك لبناء معادلة مركّبة تؤلّف، على نحو خلاق ومثمر، بين الأهلي والمَدَني، أو بين الخصوصي والعمومي، او بين البلدي والحكومي، او بين الوطني والاقليمي، او بين المحلي والكوكبي. وهذا هو الرهان، سواء في البحرين او في لبنان، وفي كلّ بلد يعاني من طوائفه الخائفة والمتناحرة: تحويل الخوف المتبادل الى مجالات ومساحات وأسواق للتعايش السلمي والتبادل الغني.

من هنا فإن قضية العيش معاً، لا يقوم بمهامها، من يتصدرون واجهة الدفاع عن طوائفهم وقضاياهم ومعسكراتهم بالعقليات السائدة والأنظمة المتحكمة والمقولات المستهلكة، وإنما ينهض بها من يحسّن الاشتغال على خصوصيته وتحويل هويته، أيا كانت طائفته، لكي ينخرط في بناء عالم مشترك يتيح التعايش والتواصل، على نحو سلمي تبادلي في أطر وطنية أو اقليمية أو عالمية. وذلك يحتاج إلى تغيير العدّة الفكرية، سواء من حيث التوجه الوجودي، أو من حيث شبكة المفاهيم وقواعد المداولة، أو من حيث آليات العمل والنماذج الفاعلة[1].

---

(1) راجع أدناه: "عدّة الحوار وشروطه".

II- ميثاق إسلامي جديد، صورة جديدة في العالم[1]

عندما طلب مني التحدث الى طلاب الكليّة الأهلية في المنامة، لم أتردد لحظة، لأنـــي أعتبر الطلبة مستقبلنا الذي نخشى عليه من أنفسنا، نحن الذين فشلنا في ادارة شؤوننا المجتمعية والطائفية، كما نخشى عليه من ماضينا الذي نسيء استخدامه ولا نحسن استثماره.

ومصدر الخشية، كما تعلمون، هو ما آلت اليه اوضاعنا من التأزم والتمزق. ومـــن المفارقات أن نتطور على الصعد العمرانية والحضارية والتقنية، لكي نتخلف ونعود الى الوراء، على الصعُد المدنية والسياسية والمجتمعية، كما تشهد، في غير بلد عربي، الفتن او التوترات المذهبية التي تلغم أو تسمّم صيغ التعايش بين الناس، لكي تعـــيدنا الى الـــوراء، بعد قرن ونيّف من الاندراج في عصر النهضة ورفع شعارات التحديث والتنوير والتقدم.

هـــذا مـــا حدث بعد أن اكتسحت الحركات والاحزاب الاصولية، بآلهتها وأنبيائها الجُدد، المنابر والساحات والشاشات، بل الجامعات، على نحو جعلنا ننتقل مـــن جلباب الأب الى عباءة الفقيه، ونعود الى الحجاب والبرقع، بعد مائة عام من الـــسفور، لكـــي نتمتـــرس في معاقلـــنا الطائفية، ونحيل هوياتنا الى محاكم للإدانة والاقـــصاء، او الى افخاخ ننصبها للآخر لكي نقع فيها. وإنه لمن المفارقات، ايضاً، أن ننـــصب جـــدران الكره والعداء، فيما بيننا، فيما تتصدع الحواجز بين الدول والمجتمعات بفعل ثورة الاتصالات والمعلومات.

في ضـــوء ذلـــك، أود أن أســـألكم كيف تنظرون الى ما يجري حولكم.من احداث وصراعات تؤثر فيكم وتمسّ مستقبلكم ومصائر الأمة جمعاء. أقصد كيف يتعاطـــى الواحد منكم مع هويته وتراثه؟ وعلى اي وجه يعرّف بنفسه تجاه الآخر والعـــالم؟ هل عبر الأطر التقليدية، الطائفية او المذهبية، كمسلم او مسيحي، كسني او شيعي، أم عبر الانتماء الى الدولة والوطن؟

إذا شئتم جوابي، فأنا بتُّ أعرِّف بهويتي عبر أطر ثلاثة:

---

(1) علـــى أثـــر المحاضرة التي ألقيتها في المنامة، دعيت إلى لقاء فكري حرّ، مع طلبة الجامعة الأهلية، في مملكة البحرين، افتتحته بهذه الكلمة التي قمت فيما بعد بتوسيعها والإضافة عليها.

أولاً: مـــن خـــلال بلدي حيث ترعرت وأقيم واعمل، أي كمواطن يحمل الجنسية اللبنانية، ويعيش في ظلّ دولة راعية أو وطن جامع أو مجتمع مدني، تعددي ومفتوح على المختلف وعلى الآخر، في الداخل وفي الخارج.

ثانـــياً: مـــن خلال مهنتي التي هي المحك لإثبات جدارتي وانتزاع الاعتراف بمشروعيتي، أي من خلال ما أحسن أداءه او صنعه وانجازه. وهذا هو المعوّل عليه لكـــي أمـــارس تـــأثيري في محيطي، أو لكي أشارك في بناء مجتمعي بصورة مثمرة وفعالة.

ولا يـــتعارض ذلك مع الدين، بمعناه الاصلي، كحدّ بين الانسان ونظيره، أي كممارســـة للتقى الذي يردع الانسان عن الاعتداء على الآخرين، بقدر ما يحمله علـــى احترامهم في حقوقهم وكراماتهم وحرياتهم. ثم أن مؤدّى الدين، سواء تعلق الامر، بالاسلام ام بسواه، هو "العمل الصالح". ومن يتقن عمله وينجح في مهنته، يمارس هويته بصورة غنية وبناءة.

بهذا المعنى، نحن لا نسعى أو نعمل لخدمة الدين. بالعكس، إننا نتوسل بالتراث الديني، من القيم التي تحثّ على التواصي والتواصل او على التكافل والتضامن، لكي نحسن أن نتعايش مع بعضنا البعض، بصورة مدنية، سلمية، تبادلية؛ والذين يقولون بـــأن الدين هو الغاية، لا يفعلون سوى انتهاك قيمه، على ما يجري على ساحات العمل الديني، حيث الفتوى تدمر التقوى.

ثالـــثاً: من خلال اللغة الأم، التي أنطق وأكتب بها، اي اعرّف نفسي بوصفي عـــربياً او ينتمي الى المجموعة العربية، اللغوية والثقافية. فاللغة هي أساس في تعريف الهـــوية، بدليل أننا ننـــزلها منـــزلة الأم، بقولنا: اللغة الأم. واللغة هي ايضاً "بيت الكيـــنونة"، كما كان يقول الفيلسوف هيدغر، بمعنى انها تصنع وجود كل واحد منّا، بقدر ما هو كائن ناطق ومفكّر. بهذا المعنى، تأتي اللغة قبل الدين. ومن المعلوم أن اللغة العربية قد أسهمت في صنع الاسلام، كما أسهم بدوره في نشرها، بدليل أن المعجزة التي اختصت بها ظاهرة النبوة العربية، هي بمثابة انجاز لغوي بياني.

ولا أنـــسى انتمائـــي إلى الإطار الأوسع، اي فضاء المجتمع البشري، الكوني والكـــوكبي، سيما ونحن ندخل في عصر عولمة الهويات وبروز المواطن الكوسموبوليتي،

الذي يمارس هويته المركبة بمرتكزها المحلي والوطني، وبأبعادها الإقليمية والعالمية. ثم إن الإنسان هو قبل الاسلام، ومما له دلالته في القرآن أن مفردة "إنسان" ترد اكثر من مفردة "اسلام". أما الافق الكوكبي، فهو الذي يرعى علاقتنا ببقية المخلوقات التي ينبغي الحرص عليها والحؤول دون انقراضها.

وهكذا، فأنا لا أستخدم العناوين الدينية، ولا المذهبية بالطبع، في التعريف بهويتي، وإنما أستبعدها، بل صرت أخشى منها، لغير سبب وسبب:

الاول: أننا لسنا اهلاً لتعريف أنفسنا من خلال الاطر الدينية او المذهبية، بعد أن أمسى الدين مصدر عداء وبغض وصدام. بالطبع ثمة من يقول هنا بأنه لا فكاك من الدين، إذ هو مقوم أساسي من مقومات الهوية. ولكن، وفي ضوء ما انتهى إليه المشروع الديني، من فشل ذريع على يد حملته، بتحوله إلى مصنع للإرهاب أو إلى آلة للإبادة والخراب، الأولى أن لا يعامل كدولة، أو كحكومة، أو كنظام سياسي، أو كبرنامج اقتصادي، ولا حتى كهوية ثقافية، بل كحد رادع بين الهويات المتحاربة تحت راية الدين.

ومن هنا لم تعد المسألة الآن هي قضية دفاع عن الإيمان الديني. فالسؤال الحقيقي، سؤال الكوارث والمخاطر، لم يعد أن نؤمن أو لا نؤمن، بل كيف نترجم إيماننا الديني. وما يمكن قوله هنا أن الدين هو المعاملة، تماماً كما أن العقل هو المداولة.

وهذا أحوج ما يحتاج إليه المسلمون: أن يتقنوا فن التداول لكي يحسنوا التعامل مع بعضهم البعض. ولكنهم يسيرون بعكس ذلك، بعد عقود من المؤتمرات والبيانات الفاشلة حول التقريب بين المذاهب الاسلامية والطوائف الدينية. ومن مثالات ذلك الفاضحة والكاشفة، أن الحوار يتحول الى تراشق بالتهم المتبادلة، او يفضي الى تأكيد طوباوي وخاوٍ على الوحدة الاسلامية الجامعة، كما تشهد وقائعه بين العلماء البارزين من المذهبين، السنّي والشيعي.

وعلّة ذلك أن المتحاورين يتشبثون بمواقفهم ولا يتزحزحون عن قناعاتهم، لأن ما يسكن عقولهم، بوعي او بغير وعي، هو نصوص ونماذج تسوّغ وتشرّع للاقصاء والقطيعة. ولا ينجح حوار يصنعه فقه التكفير او التبديع المتبادل، بمفرداته وأحكامه

ورمـــوزه الـــذين يهيمنون بأطيافهم على عقول المعاصرين ويتحكمون بمواقفهم، كالنـــصوص الـــتي تقضي لدى السنّة بتكفير الشيعة؛ أو بالعكس، النصوص التي تقـــضي، لـــدى الشيعة، بأن لا تُقبل حسنات السنّي يوم القيامة ولو كان صالحاً. وتلك هي الاساءة أو الفضيحة. إنها تأتي من الداخل لا من الخارج.

إن الحوار المثمر مبناه الاعتراف والاعتذار. اعتراف كل واحد بمسؤوليته عن الازمة التي اسهم في صنعها، على سبيل النقد والمراجعة، او اعتذاره من الآخر عما ســـبّبه لـــه مـــن الاساءة. والاولى اعتذار الفريقين، تكفيراً عن سيئاتهما، او عمّا ارتُكـــب، من جانب كل طرف، باسم الله والايمان والاسلام، من المجازر واعمال الابادة او التطهير المذهبي.

فذلك، أقله الاعتراف، يفتح الامكان لملاقاة الآخرين، بقدر ما يحمل الواحد علـــى الخروج من قوقعته العقائدية، ويتيح له ان يعيد تكوين ذاته لاعادة بناء الثقة مع سواه، بحيث يسهم كل واحد أو كل طرف بخلق، ما يتيح التعارف الوجودي أو التعايش السلمي او التبادل المتكافئ، من المساحات واللغات والأدوات أو الصيغ والأطر والوسائل.

ثمة سبب آخر يحملني على استبعاد الدين من التعريف بهويتي، ليس فقط لأن الـــدين، كمـــا آل اليه، على يد حماته، من اهل هذا المذهب او ذاك، هو ذاكرة موتـــورة تمهـــد للفـــتن والحروب، بل لأنه تراث متحجّر ينتظر من يحوله، بالخلق والابتكار، الى عملة حضارية راهنة، أو إلى قيم تواصلية تداولية، او الى تمرس بنقد الـــذات على سبيل التقى الفكري. وانا لا اريد أن أحصر هويتي بذاكرتي الطائفية، كمـــا لا اريـــد ان اكون صدى للماضين فيما رأوه، او صنيعة لهم فيما قرّروه. إذ بـــذلك أتخلـــى عما يميزني ككائن بشري، اي القدرة على التفكير المستقل، الحي والخلاق.

ولذا أرى أنه لا مجال لصناعة حياتنا وتقدّم مجتمعاتنا، لكي نشارك في صناعة العـــالم، من غير تجديد عدتنا الفكرية، المعرفية والخلقية والسياسية. فلم تعد تُجدي ادارة شـــؤوننا الوطنية والسياسية، بالعودة الى اوراقنا القديمة. فمن المعلوم أن السنّة والشيعة (وكذلك بقية الطوائف، كما في لبنان)، اذا كانوا قد خرجوا من عوالمهم

المغلقـــة، لكي ينفتحوا بعضهم على بعض، على سبيل التواصل والتبادل، فبفضل فـــضاء الحداثـــة بمفاهيمها وقيمها ونظمها ومؤسساتها... ولما عاد كل فريق، عن مكتـــسبات النهـــضة والحداثة، إلى منظوماته العقائدية وأنساقه الفقهية، كأساس للعمل الوطني والبناء المشترك، بدأنا نحصد ما نحصده، مما يحفل به المشهد من دماء ومـــدار، من حرائق وخرائب، كما يجري في العراق، وكما يُخشى ان يحصل في لبنان.

مـــن هنا بات الكلام على وحدة اسلامية، مجرد خداع، بل تكاذب مشترك، يطمـــس ما بين الفريقين من الخلاف والانشقاق، ليس فقط على الصعيد العقائدي والكلامـــي، ولا ايضاً على الصعيد الفقهي والتشريعي، بل على الصعيد المجتمعي، الثقافي والرمزي؛ وهذا هو الأخطر. نحن ازاء طائفتين او مجتمعين لكل منهما رموزه التي تميزه عن غيره. وكل فريق يؤله رموزه ويجحد رموز الآخر.

هـــذا الـــتألّه او التأليه، الذي يصدر عن عقول أحادية، نرجسية، اصطفائية، تتجـــسّد، اليوم، في تشكيلات عنصرية او فاشيّة تملأ ساحاتنا بحشودها المتراصة، الغاضـــبة أو المستنفرة، هو الذي يفسّر حروب الآلهة والمذاهب والجوامع، بقدر ما يجعلنا نقتتل ونمارس اعمال الإبادة باسم الله وتحت كلمته الجامعة.

واذا كنا نريد التعايش معاً، وهو امر لا فكاك منه، في ظلّ دولة راعية او وطن جامـــع او بلد آمن او مجتمع مفتوح، فضلاً عن العالم الاوسع، فما ينتظر، او يمكن فعله، على أقل تقدير، للخروج من المأزق، وكما أرى وأقترح، هو حمل المسؤولية الجسيمة والمتبادلة، التي تحتاج إلى جرأة نادرة في مواجهة الذات بقدر ما تحتاج إلى مبادرة استثنائية خارقة، بحيث يجتمع علماء مسلمون، من الذين يمثلون او ينطقون بإســـم مذاهبهم، ويؤثرون في الجمهور الواسع من المتدينين، لكي يعلنوا أمام الملأ بأنه ليس كل ما جاء في كتبنا صحيحاً أو صالحاً للتربية الدينية، أو أن يعمدوا إلى اصدار بيان تاريخي الى الأمة والعالم، يتألف من بنود ثلاثة، كما أرى أو أحلم:

الاول: هـــو إلغاء النصوص والاحكام والفتاوى، التي تولد الاقصاء المتبادل وتـــبث العـــداوة والكـــره بين الشيعة والسنة، من كليات الشريعة وبرامج التعليم الـــديني؛ بحيث يعترف كل فريق بمشروعية الآخر، لجهة علاقته بالايمان والهداية او

بالحقيقة والاستقامة؛ ومؤدّى هذا الموقف الطلب الى الدعاة والوعاظ الذين يحتلون المنابر والشاشات الالتزام بذلك؛ إذ لا يجوز أن يُترك هؤلاء لكي يمارسوا التشبيح او الشعوذة او يحرضوا على الفتنة، من غير رقيب او حسيب.

الثاني: استبعاد النصوص والاحكام التي تتعامل مع المسيحيين، وبقية أهل الديانات، كمشركين أو ضالّين، للتعامل معهم، على قدم المساواة مع المسلمين، كمؤمنين وشركاء في صناعة الحياة وقيادة المصائر، وذلك من غير لبسٍ او تمويه، اي بتجاوز فقه التسامح نحو مفهوم الاعتراف المتبادل.

الثالث: اطلاق حرية الاعتقاد بإلغاء قاعدة الارتداد؛ فالاسلام، كعالم ثقافي، أقوى من أن يتهدده فرد يفكر بصورة حرة، نقدية ومستقلة. وبالعكس، فنحن نحكم عليه بالضعف والهشاشة والجمود، عندما نخشى عليه من النقد، حتى الجرح، لأن النقد سبيل لاجتراح امكانات جديدة للحياة والفكر والعمل.

هذا الاقتراح المثلّث يشكّل نواة ميثاقٍ جديد، لإعادة بناء الثقة، على مستويات ثلاث، بين المسلمين أنفسهم، ثم بينهم وبين المسيحيين وبقية الديانات، ثم بين المتديّنين والذين لا ينطلقون من منطلقات دينية والناس أجمعين. وهو الى ذلك يشكّل بداية توجّه جديد في التعامل مع الهويّة، بحيث نقدّم أنفسنا الى العالم بصورة جديدة، جديرة بأناس يعيشون في زمنهم ويشاركون في صناعة العالم، على النحو الأغنى والأنفع أو الأجملِ.

عُدّة الحوار وشروطه
حول حوار المذاهب والطوائف والعوالم

I- الأزمة الكونية

ليس الحوار موضوعاً جديداً للبحث، إذ هو منذ عقود مطروح للمداولة، في الندوات واللقاءات الفكرية، سواء على مستواه العالمي والكوكبي، كما بين الإسلام والمسيحية أو بين الإسلام والغرب؛ أو على مستواه الإقليمي أو القطاعي أو المحلي، كالحوار بين الدول داخل المجموعة الواحدة، أو بين الطوائف والمذاهب داخل الديانة الواحدة أو بين القوى والأحزاب السياسية داخل البلد الواحد. وإذا كان الحوار مسألة صعبة لما يقتضيه من صناعة الذات بتحويلها عن قناعاتها أو زحزحتها عن مركزيتها، على نحو يتيح لقاء مثمراً مع الآخر، فإن الصعوبة هي مضاعفة، عندما يتعلق الأمر بحوار في بلد يتركب من أقليات متعددة أو مجموعات مختلفة على الصعد الطائفية أو المذهبية أو العرقية أو السياسية.

وإذا كنت قد تناولت هذه المسألة من قبل[1]، فإني أعود إلى صياغة أفكاري ومواقفي، على سبيل الإغناء والتطوير، انطلاقاً من انخراطي في المناقشات والندوات الفكرية[2]، على وقع الإخفاقات والأزمات في المشاريع والدعوات، وبالطبع في ضوء ما طرأ من التطورات والمستجدات التي تعيد تشكيل العالم، بأفكاره وقواه واستراتيجياته وتحالفاته وصراعاته، والأساس في ذلك هو أن نحسن قراءة المتغيرات وتشخيص مشكلات الواقع الراهن للمجتمعات المعاصرة.

---

(1) راجع كتابي: العالم ومأزقه، (فلسفة الحوار وقضية العيش معاً)، المركز الثقافي العربي، 2002.

(2) راجع أعلاه مداخلتي في ندوة تونس، وكذلك محاضرتي في المنامة.

نحـــن إزاء مأزق تواجهه البشرية في هذا المنعطف الحضاري والتاريخي: كون الانسان يطرح قضايا تفوق قدراته، او يرفع شعارات لا يحسن سوى انتهاكها، او يدعـــي محاربـــة اعـــداء يتواطأ معهم على صناعة الخراب والهلاك؛ وكأن البشرية اصـــبحت اسيرة ما تصنعه من الانظمة والشبكات والادوات والاسواق... وكأن هـــناك نسقاً أعظم يتحكّم بتصرفات البشر من وراء كلّ الإدّعاءات حول التيقّن والقبض والسيادة.

هذه متغيرات يجدر أن نعترف بها وأن نحسن قراءتها، لكي نعرف ونعتبر، إذا شـــئنا أن نفهـــم ونشخّص او نعقل وندبر. فمن لا يحسن قراءة المتغيرات تهمشه الاحداث او تدهمه المفاجآت. ومن لا يعترف بالحقائق لا يحسن الدفاع عن الحقوق والمـــصالح؛ ولذلك علاقة وثيقة بالحوار الدائر بين الهويات الثقافية والخصوصيات المجتمعية. فمن لا يعترف بالوقائع ينتهك الحقوق؛ ومن لا يحسن أن يتغير قدراً من التغير هو غير مؤهل لادارة الحوار مع الغير.

وأول مـــا ينبغي الاعتراف به هو أن ما نواجهه من التحديات او نقع فيه من المـــآزق، هو وليد افكارنا بالدرجة الاولى. سواء تعلق الأمر بالغرب ام بالعرب ام بالاسلام، ام بأي مجموعة بشرية اخرى. الأمر الذي يحتاج إلى عدة فكرية جديدة، لسوس الهويات وادارة الحوارات، هذه أبرز عناوينها، كما أحاول صوغها:

II- عدّة فكرية جديدة

1- التّقى الفكري

ممارســـة التقـــى الفكري، ومفاده أن يقرّ الواحد بتناهيه وحدوده، ككائن وانـــسان، بحـــيث يعترف بأنه لا يملك مفاتيح الحقيقة والسعادة، ولا يقبض على ماهـــيات الاشياء ونظام العالم أو معاني النصوص. ومؤدى هذا الاعتراف أن نعمل علـــى خفض السقف الرمزي، بحيث يقتنع الواحد بأنه أقل معنىً وشأناً، مما يدّعي ويعلـــن، من حيث علاقته بما يتعلق به من القيم او يدافع عنه من القضايا كالحقيقة والعدالة والحرية والعقلانية والعروبة والاسلام والمسيحية، فضلاً عن القيم الحضارية والمدنـــية والإنـــسانية. فـــنحن كل ما رفعنا السقف نحو المطلق والمقدس والثابت

والأحادي والنهائي، ازدادت الارتكابات والفضائح، وانتشرت الحرائق والخرائب علـــى أرض المعايـــشات الوجودية. فالأولى والأجدى أن نفكر ونعمل تحت خانة الارضي والنسبي والمتعدد والمتحول او العابر...

2- التواضع الوجودي

الوجه الآخر للتقى الفكري هو التواضع الوجودي، ومفاده أن يعترف الواحد بحدوده تجاه نظرائه، وأن يقتنع كل طرف بأنه لا يملك هوية صافية خالصة من أثر الآخر، ولا هو استثناء، بين الناس، من حيث ثقافته وقيمه ونماذج عيشه، وخاصةً مـــن حيث عنصره؛ وذلك يحتاج الى كسر العقلية الاصطفائية المركزية التي تدمر صـــيغ الـــتعايش مع الآخر وتقطع خطوط التواصل بين الجماعات، بقدر ما توهم اصحابها بأنهم الأحق والافضل والاشرف والأرقى.

والتواضـــع يحملـــنا علـــى تجاوز مفهوم "التسامح" نحو مفهوم « الاعتراف المتبادل». لأن التسامح هو مجرد هدنة بين فتنتين بقدر ما يعني التساهل مع الآخر، ولكن مع الاعتقاد بخطأه او الانتقاص من إنسانيته. اما الاعتراف فإنه يعني الاقرار بـــأن الآخر، وإن كان مختلفاً، من حيث ثقافته او مجتمعه او مهنته، فهو مساوٍ في الانـــسانية والحقـــوق والكـــرامة. وتلك هي اخلاقية الحوار المنتج: أن نكفّ عن احـــتكار المشروعية، تحت أي شعار كان، لكي نعترف بمشروعية الآخر، بحيث لا ننظر اليه بوصفه الادنى، بل بوصفه شطرنا الوجودي الذي لا انفكاك عنه؛ وأن لا نتعامل معه كضد، بل كشريك مسؤول وفاعل في صناعة الحياة وقيادة المصائر.

3- الوعي النقدي

وممارسة التقى والتواضع، كموقف وجودي، تسهم في تشكيل الوعي الضدي والحـــس النقدي تجاه الذات قبل الغير. ومَن يمارس النقد والمراجعة لا يرمي التبعة علـــى سواه، بل يعترف بأخطائه ولا يتستر على عيوبه. وهذه من ألف باء الحوار المنـــتج: الـــتوقف عن التنابذ بالألقاب والتراشق بالتهم، من أجل حمل المسؤولية المتـــبادلة، بحـــيث يعترف الكل بأنهم أسهموا في صنع ما يواجهونه من المشكلات والأزمـــات. والـــوجه الآخر لنقد الذات هو الاعتذار من الغير عما ألحقناه به من الاضـــرار والمساوئ. ومثال التقى والتواضع اعتذار بابا روما السابق عن الإساءات

التاريخية القديمة التي ألحقها الكاثوليك بالارثوذكس[1]. وهذه واحدة من آداب الحوار.

4- عقل تداولي

ومــن يعترف بالآخر، يدير الحوار بعقل تداولي، لا بعقلية سجالية ترمي الى تسجيل النقاط أو نصب الافخاخ او الهروب من الاستحقاق لرمي المسؤولية على الآخـر، فـذلك لا يحـل مشكلة، بل يحول السجال إلى مماحكة عقيمة، بانتظار جولات جديدة من النـزاع والصدام[2].

إن الحـوار المنـتج هو الذي يتوجه فيه كل طرف نحو الآخر، فينفتح عليه وينصت إليه، لا لكي يرد على الحجة بالحجة، أو لكي ينفي التهمة عن نفسه، بل لكـي يأخـذ بعين الاعتبار مخاوف الآخر وهواجسه أو مصالحه، أو لكي يحسن التـبادل معـه، أو لكي يعرف كيف يستفيد منه، على النحو الذي يؤدي إلى بناء الثقة المتبادلة، وذلك بخلق لغة مشتركة أو قواعد جامعة.

ولـذا فإن الحوار المجدي لا تطرح فيه الافكار بصورة مطلقة او نهائية، وإنما يُطـرح فـيه ما هو قابل للصرف والتداول والتحوّل، بقدر ما يدار بلغة التواصل والتوسط والشراكة والتسوية.

5- منطق تحويلي

والعقـل التداولي يشتغل بمنطق تحويلي، لا بمنطق الهوية الثابتة. فنحن نتحاور مع الآخر، لا لكي نشبهه او نصير مثله، ولا لكي يشبهنا او يصبح على شاكلتنا، بل لكي نكسر قوقعتنا ونتزحزح عن مركزيتنا، بحيث نختلف عما نحن عليه او فيه قدراً من الاختلاف، بقدر ما نسهم في تغيير الآخر، وذلك بخلق وسط للتفاهم او صـيغة للتعايش او مكان للتبادل او إطار للبناء المشترك. هذا شأن الحوار الفعال، فمن مفاعيله التحول المتبادل بين اطرافه. ومن لا يحسن أن يخرج من عزلته، او من لا يعرف كيف يتغير، فإنه غير مؤهل لادارة الحوار.

---

(1) كما عبّر عن ذلك أثناء زيارته الى دمشق، بعد استقباله في مقر الكنيسة الأرثوذكسية.

(2) ومثال الحوار المتعثّر أو الفاشل، مرة أخرى، ما يجري في لبنان حيث المتحاورون يخلعون صفات العُصمة والقداسة على اعمالهم او يديرون الحوار بعقلية التعالي والاستعلاء، أو بالقفز فوق الوقائع والمتغيرات.

ومـــثال الحـــوار الناجح الذي يتغير معه اطرافه، تلك المناظرة الخصبة[1] التي جرت بين الفيلسوف يورغن هابرماس وبين البابا بندكت السادس عشر قبل تسلمه ســـدة البابوية (شباط 2004)، اذ اعترف كل منهما بالأزمة، ازمة الحداثة والدين معـــاً، كـــشرط لكي يخطو احدهما نحو الآخر ويعيد بناء ذاته. وتلك هي قواعد المداولة: الشفافية، الاعتراف، الاعتذار، الشراكة، الافادة المتبادلة.

6- عقلانية مركبة

ولـــذا، فالحـــوار الفعـــال يحتاج الى الاشتغال بعقلانية جديدة ذات رؤية منفـــتحة لا مغلقـــة، وصـــيغة مرنة لا جامدة، وبنية مركبة لا بسيطة، ومنهج تعددي لا احادي، ونظام متحرك لا ثابت. خاصة ونحن نلج في عصر تبدو فيه المعطـــيات في حركة متواصلة وسيلان دائم. وهكذا فالحوار المثمر لا يدار بعقل اختـــزالي تبسيطي، بل بفكر مركب، يرى صاحبه دوماً الوجه الاخر للمسائل، بقدر ما يكتشف لدى الآخر وجهاً كان يستبعده، او يرى من نفسه وجهاً كان غـــافلاً عـــنه. بهـــذا المعنى فالحلول التي يبحث عنها المتحاورون، لا تتم بمنطق الـــسجال والنفـــي او المحافظة والعزلة، وإنما هي ثمرة تخط وتجاوز، على سبيل التركيب واعادة البناء، سواء في ما يخص العلاقة بالمختلف والآخر في المكان، او بالتراث والذاكرة في الزمان.

7- البُعد المتعدد

وكـــل ذلك يبنى على وعي المرء لهويته، لا بمنطق أحادي، كأصل ثابت او حقيقة منجزة او بداهة مسبقة او معنى وحيد. مثل هذا النمط من الفهم والوعي ينـــسف جـــسور التواصل والتفاهم منذ البداية، لأن الحوار الممكن والمثمر هو الـــذي يقتـــنع اصحابه بأنهم ذوو هويات مركبة وملتبسة، بقدر ما هي متعددد الوجه والطور او البُعد. ومن يرى الى نفسه كذلك هو القادر على مد الجسور بينه وبين الغير، بقدر ما يرى الى الآخر بوصفه وجهنا الخفي، او ما كناه، او ما نتمنى أن نكونه.

---

(1) راجع كتابي، الانسان الأدنى، المصدر السابق.

8- لغة الخلق

ولا ننسى أن الحوار لا يثمر بين طرفين غير متكافئين، ضعيف وقوي، او عاجز وقادر، او كسول ومبدع... فلا يكفي الموقف الخلقي لكي نتحاور؛ وإنما يحتاج الى شرطه الوجودي، بما يعنيه ذلك من القدرة على الخلق والانتاج، بالاعمال الخارقة والمبادرات الفذة او الاجراءات الفعالة. من هنا فالحوار الناجح هو الذي يدار بلغة الخلق، لما تحتاج إليه الشراكة أو صناعة الحياة، من المجالات واللغات والمساحات والاسواق. ومن لا يتقن لغة الخلق والتحول، هو غير قادر على ادارة حوار بصورة متكافئة وفعالة[1].

9- النموذج الفاعل

وأخيراً، إن إدارة الحوار، والاهتمام بقضية العيش معاً، أمر لا يقوم به من يفكّر أو يعمل بعقل ديني أو قومي، اصطفائي أو فاشي؛ ولا بعقل إيديولوجي نخبوي أو مركزي؛ ومن باب أولى أن لا يقوم به من يفكّر أو يعمل بمنطق الاحتكار والمصادرة أو الاستئثار للهيمنة، سواء تعلّق الأمر بالثروة أو المعرفة أو السلطة. من هنا لا ينجح في إدارة الحوار، لا الداعية الإسلامي ولا المثقف القومي، لا المنظّر اليساري ولا الاستراتيجي العسكري، كما هي نماذجه المعروفة، ممن ينظّرون على بُعد بصورة فاشلة، أو يخططون لحروب مدمرة، وإنما هو يحتاج إلى نموذج جديد، من الفاعلين الخلاّقين، العابرين للمجتمعات والثقافات، أو للطوائف والجماعات المختلفة، وسواهم، من الذين يمارسون هوياتهم بأبعادها المتعددة، المحلية والإقليمية والكوكبية، بقدر ما يفكرون ويعملون بعقل تواصلي، أفقي، وسطي، مدني، تبادلي، سلمي...

III- مأزق الحوار بين الطوائف والمذاهب

ولعل هذا ما يحتاج إليه الحوار الذي يدور، منذ عقود، بين أتباع الطوائف والمذاهب الدينية، لكي يصل إلى الباب المسدود. ومن مثالاته ما جرى مؤخراً في

(1) مرة أخرى، هذا ما يحتاج اليه المتحاورون في لبنان: الخيال الخلاّق، والقدرة على ابتكار مجالات وصيغ وقواعد جديدة لإدارة العمل الوطني والسياسي، فضلاً عن التمتع بقدر من الاستقلالية في التفكير والتقرير.

مؤتمر الدوحة حول الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية. فالمتحاورون يتساجلون لكي يهربوا من حمل المسؤولية، بقدر ما يتشبثون بمواقفهم ويعسكرون وراء ثوابتهم، الأمر الذي يسمم أجواء الحوار قبل أن يبدأ. هذا ما تجلى، بنوع خاص، في السجال العنيف أو العقيم بين الداعيتين البارزين، الشيخ يوسف القرضاوي والشيخ محمد علي التسخيري، كما قرأنا وقائعه في الصحف (2007/1/21)[1]، إذ الأول اتهم إيران بنشر التشيّع في معاقل السنّة، فيما الثاني هرب من المشكلة إلى الأمام بتحميله الاستعمار واسرائيل المسؤولية عن نشوب الفتن التي نصنعها بعقولنا المفخخة وأيدينا الملطخة بدماء بعضنا البعض.

وهذا هو مآل الادعاء، من جانب كل طرف بأنه، وحده من دون سواه، يمثل الإسلام الأصولي الصحيح أو يجسد المشروعية الدينية الإيمانية. وإذا كان هذا مصير الحوار بين المذاهب الإسلامية، فالحوار بين الطوائف المسيحية والإسلامية ليس أفضل حالاً، كما تشهد مصائره في لبنان أو في مصر، إذ تعمل على تلغيمه عبادة الأصول، والأساطير المؤسسة، والذاكرة الموتورة، والصور النمطية، والعقلية الاصطفائية، والألقاب الإلهية، والمزاعم القدسية، والجهل المركب بالذات وبالغير، فضلاً عن النصوص التي تشكل النفوس بمنطق النفي واستراتيجيات الاستبعاد المتبادل.

ومن هنا لا يجدي تقارباً بين المذاهب أن نعلن جميعاً أمام الملأ بأننا لن ننزلق إلى الفتنة، فيما منطق التعصب، وعقلية الثأر، وإرادة الظفر، ولغة التهديد والوعيد، ومؤسسات الجهاد والاستنفار، ومصانع التعبئة المتبادلة للقطعان البشرية والحشود العمياء، لا تولد إلا المخاوف والفتن، بقدر ما تنصب حواجز الكره وجدران العداء الرمزي[2] بين الجماعات المستنفرة. ولا يجدي حواراً أن نعلن بأننا ضد الحروب الطائفية، في حين أن أنماط التفكير الأحادي المغلق، ودعاوى الحسبة والإساءة،

(1) إشارة إلى مؤتمر "الحوار بين المذاهب الإسلامية"، وقد عقد في الدوحة بين 20 – 22 كانون الثاني 2007.

(2) يبدو ان هذه الجدران الرمزية بين الطوائف، أخذت تترجم الى جدران مادية في المدن، بين مناطقها واحيائها، للفصل بين الطوائف المتحاربة، كما تجري محاولات اقامتها في العراق. وتلك هي الفضيحة والكارثة.

وعقليــة الإدانــة بتهم الكفر والشرك، والمتاريس العقائدية، والخطابات الداخلية بــصورها النمطية التي تستعدي الآخر وتشوه سمعته، فضلاً عن التعليم الديني الذي يغلــب نموذج المؤمن ذي العقل المقفل على فكرة الدولة الراعية أو الوطن الجامع أوالبلد الآمن أوالمجتمع المفتوح أو العالم الواسع، فيما كل ذلك لا يولد إلا التوترات المذهبية والحروب الطائفية.

باختــصار لم يعد يجدي أن نعلن، ليل نهار، بأن السلم الأهلي خط أحمر لا ينبغــي تجــاوزه، في حين أن منطقنا وعقلياتنا واستراتجياتنا ومؤسساتنا ومتاريسنا الرمــزية وأدواتــنا في العمل، كلها تعمل على انتهاك كل الخطوط والحدود. بهذا المعنى فالفتنة التي ندعي محاربتها هي الحصاد الأمني لما نــزرعه من المفاهيم والصور والهــواجس والــتهويمات والــشتائم في العقول والنفوس. ولذا فالحوار المثمر يبدأ باعتراف كل طرف بمسؤوليته، بحيث يسأل نفسه عن المأزق الذي أسهم في صنعه، أو يحاسب نفسه عما قدمت يداه، أي عما وصلت إليه أحوال العلاقة بين المذاهب أو بــين الطوائف من التردي والتدهور، بعد سنين طويلة من اللقاءات والندوات والحــوارات، بحــيث يقوم بمراجعة نقدية لمقولاته ومناهجه وبرامجه وسائر أنشطته العقائدية والدعوية.

IV- تجديد أشكال المشروعية

خلاصــة القــول: من يفكر بعقلية امتلاك الحقيقة يعمل على انتهاك الحقوق والاساءة الى الآخر.

ومن يفكر بعقل ثبوتي جامد، مؤدى تفكيره ان يتقهقر الى الوراء لكي تداهمه الاحداث وتهمشه التطورات.

ومن يفكر بعقلية اصولية اصطفائية، يؤول به التفكير الى الاستئصال الرمزي او المادي للآخر.

ومــن يعمل بمنطق النفي والضد، يتواطأ مع ضده على تهديد السلام العالمي وتخــريب العمــران البشري، على ما يتواطأ الاضداد الآن، وكما تشهد حروب الافكار والاسماء بين الاصوليات المتحاربة على المسرح العالمي.

إن شــرط الحــوار الــناجح والمثمر، في عصر الاعتماد المتبادل، هو القناعة المــشتركة بحمل المسؤولية المتبادلة عما وصلنا اليه من التردي والتقهقر والتأزم. مما يعــني أنــنا لــسنا ضحايا بعضنا البعض، بقدر ما نحن ضحايا مشاريعنا الفاشلة ودعواتنا المستحيلة او استراتيجياتنا القاتلة.

وهكذا لا مهرب من الشراكة في كلا الحالين، سلباً او ايجاباً، على هذا الوجه او ذاك، على سبيل التخريب والتدمير او البناء والعمران.

مــن هــنا لا تجــدي في هذا الزمن الرقمي، المعولم والكوكبي، ادارة الشأن البــشري والعالمي، بالعدة الفكرية الحديثة المستهلكة، ولا بالعودة الى لغة العصور الوسطى لكي تصبح الآية معكوسة: إنا وجدنا آباءنا على شريعة ونحن على آثارهم لــضالون أو مفــسدون. فالخــروج من المأزق يحتاج إلى تجديد أشكال المصداقية والمــشروعية، المعــرفية والسياسية والخلقية، سواء من حيث الرؤية والوجهة، أو المــصطلح والمفهــوم، أو الموقف والمنطق، أو الطريقة والمعاملة، وذلك على النحو الذي يفتح آفاقاً جديدة امام العمل الحضاري.

٧-الدرس والرهان

وهــذا هو الرهان: ليست المسألة أن نرمي التهمة على العدو في الخارج، ولا أن نعــرف مــن يقوم بغزو الآخر في معاقله ثقافياً أو دينياً أو مذهبياً، كما ينشغل دعاة الحوار بين المذاهب والطوائف؛ ولا هي في أن نعود إلى دفاترنا المذهبية القديمة لكي نحاسب الماضين او نلوم المعاصرين، أو لكي نبين للملأ من أخطأ ومن أصاب، بعد كل هذه القرون بأعبائها وأثقالها، كما قرأنا مؤخراً، في مجلة "أخبار الأدب"(1) حول الصراع التاريخي بين السنة والشيعة.

فمــن المتعذر، بل من المحال أن ننجح في إدارة شؤوننا،والاندراج في زمننا، للمــساهمة في صناعة العالم بصورة بناءة، بمنطق الفتوى الذي يدمر التقوى على يد

---

(1) راجع الرسالة السجالية التي وجهها الدكتور أبو يعرب المرزوقي إلى الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله، وقد نشرت على حلقتين في مجلة "أخبار الأدب"، العددان 709 و710، 11 و18 شباط 2007.

الدعاة الجدد. فإذا شئنا الاستفادة من دروس التاريخ والتجارب، ماضياً وحاضراً، الأولى هــو الاعتذار من بعضنا البعض، بل من الناس، عما ارتكب باسم الأديان والإيمــان مــن الدمار والخراب. والأجدى هو تفكيك النصوص التي تصنع الفتن والحــروب، لإعــادة الدين إلى نصابه، كإحدى المشروعيات، أي كسلطة رمزية وممارسة للتقوى، لكي نتعامل معه كدائرة من دوائر المجتمع، أو كحقل من حقول العمــل، او مجــال من مجالات النشاط والتأثير، شأنه بذلك شأن سائر الفعاليات كالاقتصاد والسياسة والفن والاعلام...

باختــصار: القــضية هي أن لا نمارس هوياتنا كمحاكم للادانة أو كأفخاخ ننــصبها للآخر كي نقع فيها، أو أن نقع أسرى عقدة الدفاع عن الذات بصورة مدمرة للجميع، وإنما القضية هي أن نعرف كيف ندير حواراً ناجحاً أو أن نتمرس بالمداولــة العقلانية المنتجة للصيغ المبتكرة، أو أن نتغير فيما نتشاور ونتحاور، لكي ننخــرط في بناء عالم مشترك يتيح التعايش والتبادل على أسس حضارية أو مدنية، وفي أطــر وطنية أو إقليمية أو عالمية، بمنطق علائقي، وسطي، تواصلي، سلمي،... وتلك هي استراتيجية الحوار الناجح والفعال، البناء والمثمر. من غير ذلك لن نحصد إلا المساوئ والمخاطر والكوارث.

القسم الرابع

قضايا معاصرة وراهنة

مسألة الحرية
مساحة اللعبة وازدواج الكينونة

I- سؤال الحرية

ماذا يعني أن نتحدث عن الحرية اليوم؟ وما دلالة ذلك؟ وكيف نتناول هذه المسألة؟ أو ما هو الشيء الذي نسميه الحرية؟ أو من ينطق باسمها وما مشروعيته إلى ذلك؟

هذا سؤال مركّب يوجّه معالجتي للمسألة تعريفاً ومنشأ، مفهوماً وقضية، معالم وتجلّيات، أزمة ومأزقاً، مخرجاً وتدبّراً.

طبعاً نحن لا نتحدث عن الحرية فقط في سياقها الأكاديمي، كمعضلة من المعضلات الوجودية التي يجري تناولها في الدرس الفلسفي، وإنما نناقش القضية أيضاً في سياقها السياسي والمجتمعي الراهن، العربي والعالمي.

وهكذا فنحن ننخرط في هذه المناقشة لغير سبب: أولاً لأننا نتصرف بوصفنا كائنات تحمل المسؤولية عن أعمالها ومصائرها؛ ثانياً لأننا نراهن على إحداث تغيير في مجرى الأشياء بصورة من الصور؛ ثالثاً لأن الكلام بحد ذاته، هو شكل من أشكال التعبير عن الحرية، بقدر ما هو نمط من أنماط الفعل والتأثير في المجريات، على مستوى من المستويات. ولا ننسى أخيرا أن هناك أزمة متفاقمة تطال قضية الحرية ممارسة ومشروعاً أو شعاراً ومفهوماً. وهذه الأزمة هي جزء من أزمة أكبر تواجهها المجتمعات المعاصرة، كما تشهد على ذلك الإخفاقات المتلاحقة والمشكلات المتفاقمة والانهيارات المفاجئة، في غير مجال وميدان، خاصة في مجال الأمن، حيث يتحول العالم إلى مسرح للفوضى والاضطراب والإرهاب.

II- مساحة اللعب

نحن إذاً إزاء أزمة هي عالمية بقدر ما هي شاملة، إذ هي تضرب في غير مكان

وعلـــى غـــير صعيد من صعد العمل الحضاري والنشاط البشري، بقدر ما تطاول أنماط المصداقية وأشكال المشروعية، أي ما يتعلق بعناوين الوجود القديمة والحديثة، مـــا يعـــود مـــنها إلى التعاليم الدينية والشعائر اللاهوتية، أو ما يعود إلى شعارات العقلانية والتقدّم والحرية والحداثة.

ومعنى كون الأزمة عالمية وشاملة، أي وجودية، هو أن المسؤولية عما يحدث لا تقـــع على جماعة دون أخرى أو على فئة دون سواها أو على قطاع دون غيره. وإنما يحمل التبعة الكل على السواء، عما نحصده من الدمار والخراب الذي يصيب مرجعيات المعنى ومنظومات القيم.

ولـــذا فالـــسؤال الآن، إنمـــا يطرح بقوة وإلحاح حول هوية الكائن البشري بالذات: من نحن وما الذي نفعله بأنفسنا؟

هـــل نحـــن ضحايا أقدارنا المقدّرة وخلايانا المبرمجة، أم نحن ضحايا هُويّاتنا وأساطيرنا أو قيمنا ومبادئنا أو أنظمتنا وصنائعنا؟

لا شـــك في أن الإنسان، ككائن استثنائي بين الكائنات، إنما خاصيته أنه لا يخضع لحتمـــية صـــارمة أو مقفلـــة، ولا تأسره ماهية ثابتة أو هوية نهائية. وإنما هو عالم من الممكـــنات مفتوح على الاحتمالات والمفاجآت، بقدر ما هو كائن متعدد أو ملتبس لا يختـــزله اسم أو رسم ولا وجه أو طور. إنه كائن خلاق ومبدع يصنع المآثر والمعجزات كمـــا تشهد الإنجازات الحضارية الهائلة والعملاقة. ولكنه في المقابل كائن شرس وخطر يسفك الدماء ويزرع الرعب بقدر ما يصنع الكوارث والدمار، كما تشهد أعمال العنف والممارسات البربرية التي تزداد مع التقدّم الحضاري، كمّاً ونوعاً، بصورة لا سابق لها.

ولعـــل هذه هي حريته: إنها هذه المساحة أو الهوة التي تقوم بين المرء ونفسه، كمـــا تتجلى في قدرته على أن يغيّر ذاته أو يحوّل واقعه، سلباً أو إيجاباً، وبصورة تتيح له أن يخرج عن طبيعته ويناقض سويته أو يبدل وجوهه وأقنعته[1] أو يغيّر نظام تفكيره ونمط عيشه.

---

(1) يقول الكاتب الفرنسي فالير مارينا إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي لا يتطابق لا مع اسمه ولا مع كلامـــه ولا مع جسمه: الأمر الذي يتجلى في قدرته على أن يخترع لنفسه ما لا يتناهى من الوجوه والأقنعة والصور. راجع الحوار الذي أجراه معه جيل كوستاس تحت عنوان: "الكلام يصنع المكان"، والذي نشر في مجلة: (Magazine littéraire)، العدد 400، يوليو/تموز – أغسطس/آب 2001.

III- الفاعل الفكري

ومـــا يملأ المساحة الفارغة أو الهوة الفاصلة بين المرء ونفسه، هو بالطبع الفكر الذي هو ميزة الإنسان، إذ لولا الطاقة على التفكّر والتأمل أو على النظر والفحص لمـــا كان ثمة معنى للكلام عن الحرية والاختيار. ذلك أن الفكر هو مصنع الإمكان ومنـــبع القـــوة، بوصفه القدرة على الفهم والتفسير أو التعقّل والتدبير أو التقدير والتقرير. به نبدع ما نبدعه أو نخترع ما نخترعه أو ننجز ما ننجزه من لغات الفهم وطـــرق المعرفة، أو من قواعد السلوك ومعايير العمل، أو من سبل العيش وموارد الرزق، أو من أسباب التحضّر وأدوات التقدّم. والفكر بما هو كذلك، أداة التحوّل والتجدّد، به نتغيّر عما نحن عليه، ذلك أن الفاعلية الفكرية، بما هي حركة وتوتر أو تقلّـــب وتشعّب بين الوجوه والأطوار أو بين الأقطاب والأضداد، إنما تنتج التنوّع والتعدّد بقدر ما تولّد التفرّد والتفنن.

وهكـــذا فعـــالم الإنسان هو عالم الصيرورة بقدر ما هوعالم الإمكان المفتوح علـــى المفاجـــئ واللامتوقع. ولذا لا شيء يبقى على ما هو عليه، ولو لم نرَ ذلك بعقلياتنا المتحجّرة وأنظمتنا المغلقة. ولأن الفكر هو مصنع الإمكان، فهو سيف ذو حـــدّين: به قد نرسف في العجز أو نجترح المعجزة. نولّد الجهل والفقر والاستبداد والكوارث، أو بالعكس ننتج المعرفة والثروة أو نصنع القوة ونمارس الحرية. وذلك يتوقف على سياسة الفكر واستراتيجياته، أي على طريقتنا في سوس الهويات وإدارة الأفكار أو في التعامل مع الوقائع والأحداث.

ولكـــن ذلك لا يعني أن المرء يملك كامل الحرية في الفكر والعمل. ثمة قوى ونـــــزعات وآلـــيات تعمل من وراء الفرد العاقل والحرّ من غير علمه، وعلى نحو يتخطـــى إرادتـــه وســـيطرته. حتى الأفكار لا تأتي بمحض الرغبة والمشيئة، أي لا تُـــستدعى حسب الطلب، وإنما هي تتداعى وتهجم على صاحبها من غير إرادته. وهكـــذا نحـــن نفكر بحرية، ولكن الأفكار تلد بما يشبه الضرورة، بمعنى أن المرء لا يملك حريته في أن يفكر أو لا يفكر، وهو ذو الفكر، وإنما يملك الحرية في أن يفكر بـــصورة مـــستقلة أو نقديـــة، فيرتدّ على أفكاره بإخضاعها للفحص والدرس أو للمـــراجعة والمحاسبة، بحيث يقيم معها علاقة حيّة ومتحركة، أو نامية ومثمرة، أو

مــستجددة ومتحركة، أو راهنة وفعّالة، حتى لا تستعبده هوية أو صورة، ولا تستبد به عقــيدة أو مقــولة، ولا يستعمره أصل أو نموذج. وهذه مهمة دائمة، عند من يمارس حيويــته الفكرية والسياسية والعشقية، تحمله على إعادة النظر بشبكات الفهم وقوالب المعــرفة وقــواعد السلوك. فمآل هذه أن تستنفد نفسها، وأن تفقد مصداقيتها، لكي تكشف ما تنطوي عليه من وجوه الجهل والحجب أو ضروب الاعتباط والاستبداد.

وهكــذا فقــدرنا أن نفكر على سبيل الفحص والنقد أو النظر والاعتبار أو المعــرفة والدرايــة، بحيث نعمل على تفكيك آليات عجزنا وتعرية مكامن ضعفنا وقصورنا، باجتراح الإمكانات التي تتغير معها الموازين والمعادلات أو تنفتح الآفاق وتتــسع المجالات. بالطبع للإمكان شروط، كما بين الفيلسوف كنط. ولكن قوام الــشرط أنه غير مطلق، بمعنى أننا بقدر ما ننكب على معرفة المكونات والشروط الخاصــة بــأي مُعطــى واقعي، إنما نجترح الإمكان لتعديله أو تغييره بخلق عناصر جديــدة. من هنا إمكان خرق الشروط بفتح معنى الإمكان على الرهان، أي على تعدد الأشكال والأنماط والتوجهات.

بهــذا المعنى ليس التفكير مجرد بحث عن شروط الإمكان للوصول إلى المعرفة الضرورية والكلية، بقدر ما هو خرق للشروط أو تخطٍ للحدود، بخلق وقائع جديدة تــتغير معهــا جغــرافية المفهوم بقدر ما تتغير خارطة القوة. وهذا ما فعله كنط نفسه[1]: لقد مارس حريته في التفكير، وأنجز ما لا سابق له، بما ابتدعه من مفاهيم تغيّــر معهــا مجرى اللعبة الفلسفية، وتغيّرت خارطة الفكر عامة، بقدر ما خرق

(1) مــن هنا لا يبلغ الواحد رشده العقلي، ولا يسلك دروب العلم الآمنة، على ما نجد في التعليم الكنطــي. فقــدر المرء أن يعمل على معطيات وجوده، لكي يخرق السقف ويفك الطوق أو يتجاوز الحد ويزحزح المعنى. بهذا المعنى ليس النقد مجرد سبر للإمكان، أي لما هو موجود مــسبقاً، وإنمــا هــو اجتراح الإمكان عبر "تغيير العلاقة بين الممكن والمستحيل"، كما يفهم الحــدث آلان باديــو، أو عبــر "قلــب شروط التحليل" على ما قرأ تفجيرات مانهاتن، جان بودريار، أو بالسعي إلى "تعديل دفتر الشروط" بحسب صياغتي لاجتراح الإمكان الذي تتغيّر معه جغرافية المعنى وخارطة القوة في آن؛ راجع بصدد رأي باديو نصه كما ورد في مقالة بول ريكور، بولس الرسول: الدعوة والحجة، مجلة (Esprit)، عدد فبراير، 2003، ص 85؛ راجــع بــصدد رأي بودريار مقالته، ذهنية الإرهاب، في كتاب يضم مقالات لكتّاب آخرين تحت العنوان نفسه، ذهنية الإرهاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2003.

الشروط المعرفية السائدة في عصره. هذا هو الكائن البشري. إن حريته هي إمكانه الوجـــودي ببعديه: المعرفة والقدرة، بحسب تحليل هيدغر[1]. إنها "مساحة اللعب" التي يتمتّع بها، بقدر ما هي طاقته على أن يتحوّل عما هو عليه، بإبداعاته وإنجازاته.

IV- ولادة المفهوم

مـــع أن الحـــرية، كإمكان للوجود، ترتبط بالفهم، فإن مفهوم "الحرية" هو من ابـــتكار المحدثين. وإذا كانت المفردة ترد في الخطابات والمؤلفات قبل الأزمنة الحديثة، فإنهـــا تبقى دون المفهوم أو تحته ولا تشكّل، من ثم، مقولة مركزية على خارطة الفكر القديم اليوناني أو الإسلامي. بالطبع لا ينسى المرء "المعتزلة" الذين كانت لهم مقاربات

---

(1) يـــربط هيدغر بين الحرية والإمكانية بتعريفه الكائن البشري بصفته "إمكانيته على أن يكون حـــراً". ومـــرد ذلـــك برأيه إلى أن قوام الإنسان عنده هو الفهم". والفهم، بما هو علاقة "علم بالوجود"، إنما هو في الوقت نفسه علاقة "قدرة على الوجود". وهذه القدرة تعني أن الفهم هو مـــن حيث بنيته بالذات جملة إمكانياته. ولأنه كذلك فمن صفاته أنه مشروع وجود، لا بمعنى أنه تخطيط مسبق يجري تنفيذه، بل بمعنى أنه يشكّل "مساحة اللعب"، أي مجرد رهان مفتوح على التغيّر، من حيث تعدد أنماط الوجود ودرجاته.

والنظر إلى الإنسان بصفته فهماً يحيل إلى إمكاناته، أي بصفته معرفة وقدرة، هو الذي يجعل مـــنه ليس مجرد معطى مسبق، بل مشروع، أي توجه يتقدّم به على نفسه، بحيث يكون أكثر أو أقـــل مما هو عليه. وهذا ما حمل هيدغر على التأكيد على شعار نيتشه القائل: "اعمل لكي تـــصير إلى ما أنت عليه". وأنا إذ أتفق مع هيدغر على النظر إلى الكائن البشري، الذي هو حـــضور في العالم، أو حضرة وجودية، كما أؤثر ترجمة المصطلح الألماني: Dasein، من خلال مفردات الفهم والإمكانية والحرية والمشروع، وأستثمر ذلك، فإنني لست معه بقوله إن الإنـــسان يـــصير في النهاية إلى ما كانه في الأصل. ذلك أن هذا الشعار يقع في فخ منطق الهوية والمماهاة، ليقوّض مفهوم الإمكان، أو لكي يصادر القدرة على الفهم. ذلك أن الإمكان، مـــن حـــيث مفهـــومه، إنما يتعلّق بالضروري والواجب، كما يتعلّق بالممتنع والمستحيل، لا بالمعاني المطلقة وغير المشروطة لهذه المفردات، بل بمعانيها المحايثة والنسبية والمحدودة. وعندها يصبح الإمكان هو القدرة على أن نتحوّل عما نحن عليه، بقدر ما نمارس السبق على الـــنفس ونتجاوز ما نحن فيه أو ما نحن عليه، إلى ما لم نكنه لا من بعد ولا من قبل. راجع نـــص هيدغـــر حول الكائن البشري بوصفه فهماً في كتابه: الوجود والزمان، المقطع، 31، النسخة الفرنسية، ترجمة رودولف بوهمه وألفونس ولهنـــز، غاليمار، باريس، 1964، وهذا الـــنص هو من أغنى النصوص، لأنه من أكثرها كثافة والتباساً وتعقيداً، ولذا لا ينتهي المرء مـــن قراءته، بل إن كل قراءة له تتيح له أن يمارس حريته في التفكير واستثمار طاقته على الفهـــم والـــتأول. إنه نص لا نقرأه لكي نتماهى معه، بل لكي نختلف عنه ونتحول في الوقت نفسه عما نحن فيه، لكي نعيد الفهم من جديد.

مدهشة أو تحليلات خارقة حول مسألة الجبر والاختيار، أو حول معاني النية والإرادة والفعل. ولكن ذلك قد تم تحت خانة العدل الإلهي وليس تحت عنوان الحرية. وهكذا مورست الحرية يومئذ أو جرى التفكير فيها، من غير أن تشكّل عنواناً لوجود المرء أو مصدراً للمشروعية. ثمة مفاهيم أخرى كانت فعّالة ومسيطرة كالعدالة والفضيلة، أو الكمال والسعادة، أو الإباحة والمتعة، فضلاً عن الحكمة، كما نجد ذلك في المذهب الأبيقوري والنص القرآني، أو في جمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة للفارابي.

والسعادة تتحقق في نظر القدامى بأن ينسجم الفرد مع النظام الكوني أو الاجتماعي، لكي يحتل مرتبته كإنسان بين الحيوان والملاك، أو لكي يلتصق بطبيعته بحسب ما تهيئه له وضعيته بصورة مسبقة ونهائية، فيكون مواطناً أو عبداً، من الخاصة أو العامة، من المصطفين أو من المستبعدين، شيطاناً يشغّل عقله[1]، أو كائناً قاصراً ينفذ بشكل آلي ما يمليه عليه مرجعه وإمامه أو زعيمه وقائده.

وهكذا فالحرية بالمعنى الإيجابي، بوصفها استقلالية الشخص النسبية تجاه الأطر والقواعد والقيود الخلقية والاجتماعية والسياسية، إنما هي معنى مستبعد أو موقف هو موضع الشبهة، قبل الانتقال من عالم العصور القديمة أو الوسطى، بفكره المغلق ونظامه الثابت وترتيباته المسبقة، إلى عالم العصور الحديثة بآفاقه المفتوحة وفلسفاته التنويرية وثوراته التحررية.

وإذا كان مفهوم الحرية هو ابتكار حديث، فإنه قد نشأ وتشكّل في سياق ما شهدته المجتمعات الحديثة في أوروبا من الانقلابات والتحوّلات الثقافية والفكرية أو الاجتماعية والسياسية أو التقنية والاقتصادية، وكما تجسّد ذلك في الانتقال من المرجعية اللاهوتية إلى المركزية البشرية، ومن قوانين الطبيعة إلى حقوق الإنسان[2]، ومن أخلاق الطاعة والامتثال إلى حيوية الفكر النقدي، ومن منزلة الرعايا

(1) تجدر الإشارة إلى أن للشيطان معنيين في النص القرآني. الأول خلقي ومفاده القدرة على الوسوسة والغواية وقود الناس نحو الأعمال الشريرة، والثاني معرفي تجلّى في القدرة على الاعتراض والمساءلة والمجادلة في العقل.

(2) راجع بشأن علاقة الحرية بحقوق الإنسان، وبالاستقلالية الذاتية، وبالقدرة، جان – فرنسوا كرفيجان، حقوق الإنسان، وهي مقالة منشورة في كتاب جامع لمقالات عدة من تأليف آخرين، مقولات فلسفية، II، منشورات غاليمار (Folio Essais)، بارس 1995.

الخاضعين إلى منزلة المواطنين المشاركين، ومن نظام الحكم المطلق إلى المجتمع المدني والنظام الديموقراطي، ومن نمط الإنتاج الزراعي إلى نمط الإنتاج الصناعي أو الرأسمالي، ومن عصر النسخ واحتكار المعرفة إلى عصر المطبعة والصحيفة كأداة أو وسيلة فعّالة لنشر المعارف والمعلومات على نطاق جماهيري.

من هنا فإن مفهوم الحرية قد تبلور كجزء من منظومة معرفية، واشتغل بالتوازي والتفاعل مع جملة مفاهيم تغيّرت معها خارطة الفكر وصورة العالم من أبرزها التنوير، النقد، التقدّم، حاكمية العقل، حرية التبادل، المجتمع المدني، وبخاصة مفهوم الذات المفكرة أو النقدية التي تعمل على نفسها لتخرق مشروطيتها وتغيّر واقعها، بقدر ما تمارس استقلاليتها وفاعليتها في تشكيل عالمها وقود مصيرها، كما تجلى ذلك لدى ديكارت وكنط بنوع خاص.

٧- تجليات الحرية

يمكن للحرية أن تتجلى كرؤية للعالم ومعنى للوجود أو كشكل للوعي وموقف من الحقيقة أو كعلاقة بالذات والغير، وذلك على أكثر من مستوى:

أولاً على مستوى الفكر الذي هو ميزة الإنسان بقدر ما هو خياله الخلاّق أو "بعده الخامس"[1]. والفكر بوصفه كذلك هو بؤرة المعنى ومصدر الفهم بقدر ما هو مصنع القوة وأداة الفاعلية والحضور.

ثانياً على مستوى الواقع الذي ننخرط فيه ونتعامل معه أو ننعم به ونشقى فيه. والواقع بوصفه كذلك هو مرجع الدلالة ومرتكز الفاعلية بقدر ما هو آلة اللذة ومادة الخلق والتحوّل.

ثالثاً على مستوى العلاقة مع الآخر أو المختلف الذي هو موضوع السلطة والرغبة بقدر ما هو شريك في المصلحة والمبادلة، والذي هو نظير في المداولة والمحاجحة بقدر ما هو مساوٍ في الحقوق والالتزامات.

---

(1) يذهب الكاتب المسرحي البريطاني إدوارد بوند إلى أننا نعيش ضمن أبعاد خمسة منها ثلاثة عائدة للمكان، وواحد عائد للزمان، ولكنه يعتبر أن الخيال، كبعد خامس، هو أساس الوعي والإنسانية، راجع مقالته، الإنسانية والخيال والبعد الخامس، مجلة "لوموند ديبلوماتيك"، عدد يناير 2001.

رابعـــاً علـــى مستوى العلاقة بين الذات ونفسها، وذلك حيث العمل على الطبيعة يتحوّل إلى منجزات ثقافية قد تتجلى في تشكيلات العبارة وأنساق المعرفة، أو في قواعد الاجتماع ومنظومات التواصل أو في وسائط الاتصال وتقنيات الإنتاج وأدوات الاستهلاك.

ومهما يكن المستوى، فالحرية تفهم وتقارب من حيث صلتها بعالم الإمكان، سواء من حيث شروطه وحيثياته أو من حيث سبره واجتراحه. ولذا، فالحرية تبدو مـــن هذه الجهة بمنـــزلة مساحة للعب بين الممكنات تتجسّد في القدرة على القول والفهـــم والخلق، بقدر ما تجسّد إرادة السبق والتجاوز أو منطق التوسع والتفنن أو استراتيجية القبض والسيطرة.

VI- الحرية والخلق

لأن الحـــرية هـــي صـــناعة الإمكان، فإنه لا حرية من غير خلق أو إبداع. والإبداع هو اشتغال على المعطيات من سلطات ورغبات أو مقولات ومؤسسات، تتغير معه بنية الواقع وتراكيب الفهم أو منظومات التواصل وأنظمة الخطاب، بقدر مـــا تتغير شروط الوجود وقواعد اللعبة. إذن هو الطاقة الحيّة والخلاّقة على إجراء الـــتحوّلات على الواقع، بمختلف أبعاده المكانية والزمانية، من خلال التفكير الحيّ والعمل المتقن على سبيل الإنتاج والابتكار.

بهـــذا المعـــنى ليـــست الحرية مجرد انفلات من القوالب والآليات والشبكات العقائديـــة أو الـــسلطوية أو الاجتماعية أو الإعلامية، بقدر ما هي سوس الذات وصـــناعة الحياة، عبر خلق الوقائع وإنتاج الحقائق، في مجال من المجالات المعرفية أو الجمالـــية أو التقنية أو الاقتصادية أو السياسية. تلك هي المسألة: أن نمارس حريتنا هـــو أن نعمـــل علـــى تفكيك آليات عجزنا، لتغيير قواعد اللعبة، بتشكيل عوالم ومجـــالات أو ابـــتكار أساليب ولغات أو اختراع وسائل وأدوات أو خلق موارد وفـــرص تحدث تحوّلاً في الفكر وتسهم في تغيير الواقع، بقدر ما تمتلك هي نفسها وقائعيتها.

ولنـــتوقف عـــند الأمثلة كما تشهد الإبداعات في الرواية أو الشعر. وتقدّم شخصية شهرزاد مثالاً بليغاً، إذ هي مارست حريتها من خلال خيالها الخلاّق الذي

أتاح لها اجتراح قوتها بتحويل ضعفها إلى عمل سردي خارق، فكان أن استحوذت على شهريار الذي استحال من طاغية وقاتل إلى كائن ضعيف في حضورها وتحت تأثير حكاياتها الأخاذة. قد تكون المسألة مجرد حكاية لا أصل لها في الواقع المعيش. ولكن يبقى أن الذين ابتكروها مارسوا حريتهم عبر التخيّل والسرد. والحياة تعاش بقــدر مـــا تروى[1]، بمعنى أنها لا تنفك عن التخيل الذي هو أحد أبواب الحرية، خاصة إذا استثمرت إمكاناته بصورة خلاّقة ومبتكرة.

ولنــتأمل التفاوت بين اثنتين قضت مصادفات الطبيعة أن تكون الأولى على قــدر من الجمال، فيما الثانية تكون على قدر من البشاعة. فلا مساواة هنا، بل ثمة ظلــم وعسف؛ إذ الأولى يمكن أن تعطى فرصاً لا تعطى للثانية، بحيث تهمش هذه وتــتقدّم الأخرى. ولكن لا وجود لشيء مغلق أو نهائي في عالم الإنسان الذي هو عــالم الإمكان: بوسع الثانية أن تصنع معجزتها وتمارس حريتها بالذكاء والعمل أو بالخلــق والابــتكار لكي تفتح الأبواب والفرص. وفي المقابل، إن ذات الحسن قد يــنقلب جمالهــا ضــدها ويصبح وبالاً عليها، بحيث تفقد حريتها والسيطرة على زمامها، إذا لم تحسن تعهد نفسها وبناء قدرتها.

يمكــن إيــراد مثال أخير من عالم الاقتصاد. ثمة دول كانت على الهامش من حــيث علاقــتها بالثروة والتنمية. ولكن الهامش ليس قدراً لا فكاك منه. للمسألة وجهها الآخر عند من يرى بعين واسعة ومركّبة، مفاده أن الهامش طاقة معطلة لم تــستخدم أو ثروة مهدرة لم تستغل، مما يعني أن بإمكان المرء الخروج من هامشيته وقصوره، إذا أحسن تشغيل عقله لاستثمار موارده أو لخلق موارد جديدة. هذا ما فعلــته ماليــزيا التي كانت على هامش الهامش، فإذا بها تصنع معجزتها التنموية، باشــتغالها علــى واقعها وتفكيك مشروطيتها، من أجل بناء نموذج جديد، بالطبع

---

(1) يقول بول ريكور: "الحياة تعاش، أما القصص فتروى". والأحرى القول إن الحياة تعاش بقدر ما تروى، أي تمارس بحرية بقدر ما تعاش بصورة مضاعفة. وذلك ما يصنع حرية الإنسان، أي مــا تتسم به علاقته بذاته من الازدواج والالتباس والتوتر والتعارض والقلق والانشطار؛ راجــع بــصدد رأي ريكور، الوجود والزمان والسرد، الحياة بحثاً عن السرد، ترجمة سعيد الغانمــي، المركــز الثقافي العربي، بيروت، 1999؛ راجع أيضاً مقالتي، الحرية بين وقائع القــدرة وهــوامات الــرغبة، وهي نص محاضرة ألقيت في مهرجان ربيع الفنون الدولي، القيروان، تونس، 23 أبريل، 2002.

بالإفادة من النماذج القائمة والمثالات المشهورة، لا على سبيل التقليد الأعمى، بل على سبيل الدرس والتحليل، من أجل إعادة الصوغ والتركيب.

وهـذا شـأن الذي يمارس حريته ويبني قدرته، إنه لا يفكر أو يعمل حسب دفتـر الشروط وسلاسل الأسباب، وإنما يشتغل على معطياته، على سبيل التصنيع والتحويل وإعادة البناء، وذلك بقدر ما يمارس تفكيره بصورة تركيبية مفتوحة على تعدد الاختصاصات والمناهج والمعالجات، وبقدر ما يتعاطى مع الواقع بوصفه متعدد الوجـوه والمستويات والمسارات، الأمر الذي يجعله مجالاً للخرق، لخلق وضعيات جديدة تتغيّر معها البنية القائمة أو الصورة السائدة أو القوة الطاغية.

VII- النقد المفهومي

مـن هـنا تحتاج الحرية إلى نقد مفهومي، بحيث نـنـزل من ملكوت الفكرة المجردة أو المتعالية، على ما يتعاطى معها لاهوتيو التحرير، إلى أرض الحدث وميدان الممارسـة. وما يحدث، مجتمعياً، هو علاقات تنشأ وقوى تتشكّل وأنساقٌ تضبط ومعـايير تطبّع واستراتيجيات لا مآل لها سوى السيطرة والإخضاع. والذي يحرّك الأفراد، ليس عشق الحرية، كما ينطق خطاب الحرية الذي يسكت على سلطته، بل السعي إلى السيطرة لاحتلال موقع مميز على الخارطة الاجتماعية.

والاعتـراف بهذه الحقيقة، أي كوننا نرغب في السيطرة ونسعى وراء النفوذ والامتـياز، يجعلنا أقدر على صنع حقيقتنا، كما يحدّ من سيطرة بعضنا على البعض الآخر، وأما الغرق في أوهام الحرية فلم ينتج سوى المزيد من السيطرة والتبعية. وإلا كـيف نفهـم أن أكثر الناس ممارسة للاستبداد، هم أصحاب المشاريع المساواتية والتحررية؟!

الأحـرى أن نـستيقظ مـن سباتنا، وأن نتحرر من تهويماتنا الأيديولوجية، التنويـرية والنـضالية حول العقل والاستنارة والحرية. فبعد كل هذا الإخفاق في مشاريع التحرير، لا أحد أولى من سواه بقضية الحرية، ولا أحد يحرر الآخرين إلا علـى حسابهم. ولذا لا ننتظرن من أحد زمن التحرر الكبير، حيث يشرق العقل بأنـواره على العالم لكي تنكشف الحقيقة وتسطع شمس الحرية. فكل واحد يمارس حريته، بما يخلقه من الوقائع التي يتغيّر معها بفكره ويسهم في تغيير سواه وفي تحويل

واقعه. وأما الذي ينتظر من الغير أن يحرره أو يحمّل الغير مسؤولية ضعفه وعجزه، فلن يخرج من قصوره أو من هامشيته. بهذا المعنى لا تعود الحرية، من حيث فهمها، شيئاً مستلباً ولا فطرة أصلية أو غريزة أساسية، كما تصورها دعاة التحرر المحدثون والمعاصرون، من الكواكبي وجبران خليل جبران إلى تشومسكي والمثقف العربي. فالأصل هو الهوى والتسلّط أو التمايز والتفاوت، أما الحرية والعقل والعدل، فإنها صيغ وقيم تصنع بالجهد والمراس والاشتغال على الفكر والواقع، ولذا، لا تصبح مكتسبات نهائية ولا تتحوّل إلى طبيعة ثابتة، بل تكون دوماً قيد الانجاز وإعادة البناء، بقدر ما تحتاج إلى التعزيز والتوسيع أو الى التغذية والتنمية، على وقع الاخفاقات والمخاطر أو في مواجهة التحوّلات والمتغيرات.

VIII- المخيّلة الاستبدادية

في ضوء ذلك، تتبدى مآزق المشاريع التحررية، خاصة في المجتمعات العربية، حيث جرى التعامل مع قضية الحرية بعقل فردوسي خلاصي أو لاهوتي نبوي، وذلك من خلال تهويمات الرغبة وهواجس الهوية أو من خلال مُحالات العقائد وتقديس القضايا، فكانت المحصلة تراجع مساحات الحرية وإنتاج مزيد من الاستبداد. وهكذا دفعت الشعوب ثمناً باهظاً لتقديس فكرة الحرية. ولا عجب، فمن يقدّس شيئاً يقع ضحيته، ومن يتخيّل حرية بلا سلطة أو فاعلية يمارس أسوأ السلطات، على ما فعل الذين ادعوا عشق الحرية أو تجسيدها، فاستبدت بهم أو استبدوا بها.

وهكذا فإن الحريات في العالم العربي تسهم في ضربها نماذج وعقائد ومؤسسات وممارسات ونزعات تتردد بين عبادة الشخصية ونرجسية النخبة، بين تسلّط الدولة وتأليه المقولات، بين أختام العقيدة وشعائر الحداثة، بين ديناصورات التراث ومسوخ الحداثة، بين الأصولي الإرهابي الذي يدعي امتلاك الحقيقة واحتكار الإيمان، وبين الأبله الثقافي الذي يسعى إلى التطابق مع القدامى في كل ما قالوه وفعلوه، على ما تصنع نماذجه الثقافة الدينية الرائجة عبر القنوات والشاشات.

ولا ننسى المثقفين المذعورين من العولمة وفتوحاتها. وتلك هي الخديعة والفضحية لدى دعاة الحرية والتحرر السياسي والاجتماعي في العالم العربي. فالذين

يمارسون الوكالة على القيم العامة وعلى القضايا والحقوق، هم الذين يعملون على تلغيمها وتدميرها بعقليتهم النخبوية الفوقية التي تقوم على احتقار الناس والتعامل معهم بوصفهم قاصرين أو جهلة، بقدر ما تقوم على احتكار قيم الوعي والعقل والمعرفة والإبداع.

من هنا فالنخب لا تريد ولا تقدر أصلاً على تحرير المجتمع والغير. وإنما هي تريد أناساً يصفقون لأفرادها ويقفون منهم موقف الثناء والتجيل، أي تريد جماهير أو قطعاناً بشرية لكي تمارس الوصاية عليها وتفكر عنها أو تقودها وتستبد بها[1]. والوجه الآخر للنخبوية التي تمارس على الناس، هو النرجسية التي تجعل أفراد النخب الثقافية يستبعدون بعضهم بعضاً، إذ كل واحد يريد أن يكون الأول في مجاله والذي لا نظير له على ساحته. تشهد علينا، نحن المثقفين، ألقابنا التي هي فضائلنا الخلقية والإنسانية: المعلم الأول، صدر المتألهين، سيد العارفين، آية الله العظمى، المفكر الكبير، الإمام الأكبر، عميد الأدب، أمير الشعراء، سيدة الشاشة، كوكب الشرق، عمالقة الفن، ضمير الأمة، عقول البشرية... وكأن بقية الناس لا عقل لهم ولا ضمير، فضلاً عن الذين ينسبون عصراً بكامله أو قرناً بطوله إلى أديب أو عالم أو فيلسوف أو فنان. ومن آخر ما ابتكرته "مخيلتنا الاستبدادية" في هذا الخصوص أن نستعير شعار "الزعيم الأوحد" من مجال السياسة إلى مجال الثقافة[2]. هذا ما فعله كاتب شاء الثناء على كاتب آخر، فاعتبره المرجع الثقافي الأوحد الذي تفزع إليه الآن الأمة والناس وسط الأزمات المستحكمة والتحديات الجسيمة والمخاطر المحدقة. وتلك هي الكارثة أن نتعامل مع المشكلة بوصفها الحل، بقدر ما نعتبر أن هناك فرداً واحداً يحمل وحده مسؤولية التفكير والتقرير عن الجميع في مواجهة الأزمات والتحديات. فلا شيء يدمر القضايا والمشاريع أكثر من أحادية المرجع والقطب والرأي والصوت.

---

(1) هذا ما يريده كل صاحب دور نبوي: أن يتصرف بوصفه أولى من الناس بأنفسهم، أي بوصفه المصطفى، إذن الأحق والأصدق والأفضل... على ما هو تعريف النبي في المأثور التراثي.

(2) هذا ما قاله الكاتب فهمي هويدي في تفسيره لمناشدة الكثيرين الأستاذ محمد حسنين هيكل بالعودة عن قراره، لدى إعلانه إلى القراء والرأي العام رغبته في التقاعد والتوقف عن الكتابة. نشرت مقالة هويدي في أحد أعداد جريدة "السفير" البيروتية، في مجرى الأسبوع الذي أطلق فيه هيكل موقفه.

IX- رفع الوصاية

وهكذا فنحن نعارض الساسة ولكننا نتواطأ معهم في النهاية ضد ما ندعيه أو ندعو إليه، بقدر ما نتماهى معهم، في منازعهم وألقابهم وأحاديّتهم. مثل هذه النرجسية الصادرة عن إرادة التأله وعشق الذات وعبادة الشخصية، هي التي تجعل النخب الثقافية تسهم في إنتاج الأزمة وتشويه السمعة. والثمرة هي الهزال الوجودي، كما يتجلى فقراً أو ضعفاً أو قصوراً، أي ما يشلّ إرادة التحرر ويقلب الأمور رأساً على عقب، بحيث يمسي المثقف داعية التحرر عدو الحرية بالذات، الأمر الذي يضاعف مسؤوليته، نظراً إلى أن التبعة هي على قدر الادعاء. فالأجدى إعادة الأمور إلى نصابها، بكسر ثنائية النخبة والجمهور، للتعامل مع الناس بوصفهم منتجين وفاعلين، في صنع حياتهم وبناء مجتمعاتهم، كل في حقل عمله ودائرة اختصاصه. حتى العاطل عن العمل، إنما هو فاعل ومؤثر ولو بصورة سلبية. وهذا شأن القاصر أو المقهور الذي نمارس الوصاية عليه ونستبد به، إنما يفعل بصورة سلبية أو عقيمة أو سيئة أو مدمرة. ولذا فالمتاح الآن هو الخروج من المجتمع النخبوي نحو المجتمع التداولي، حيث العلاقات بين المنتجين والفاعلين تقوم على الشراكة والمسؤولية المتبادلة.

وإذا كانت النخب الثقافية أو السياسية تحمل مسؤولية مضاعفة عما نحصده من الاستبداد، فالمسؤولية تطال في النهاية الجميع، إذ الكل هم فاعلون ومؤثرون بصورة أو بأخرى. فالواحد منا قد يستبد بسواه بقدر ما تستبد به نزواته وأهواؤه أو عقائده وأساطيره أو مقولاته ونظرياته أو أحكامه ويقينياته أو ألقابه ومناصبه أو أمواله وأرباحه، فضلاً عن الضعيف العاجز الذي يستبد بعجزه بقدر ما يقع أسير جهله وقصوره. ولذا فإن الاستبداد يمارس في المجتمع الاستبدادي من جانب كل المشروعيات والفاعليات، ساسة ومثقفين، أصحاب سلطات وثروات، وكل فاعل اجتماعي أيا كان حقله وموقعه. بهذا المعنى لا يصدر الاستبداد عن النظام السياسي وحده. الأحرى القول بأن النظام السياسي هو ثمرة ثقافة تولد الاستبداد بنماذجها وعقائدها وقيمها ورموزها. وهكذا فالطاغية تصنعه الثقافة، كما تشهد الجماهير العربية التي تتصرف بوصفها مدينة لزعمائها وقادتها، وكما

تـــشهد أيضاً النخب الثقافية التي تؤله الطغاة والأبطال، أو هي نفسها تقع فريسة لهاجس التأله والطغيان.

مـــن هنا، الحاجة إلى إعادة النظر في مفهوم الحرية لتغذيته بمقاصد وأبعاد او عناصر جديدة، من خلال فتح الفكر على معاني الخلق والابتكار أو الأداء والإنجاز أو الفاعلية والسلطة أو المداولة والمشاركة، فضلاً عن التغيّر والتجدّد، وكل ما يتيح للمرء أن يمارس وجوده على سبيل الاستحقاق والاستمتاع والازدهار.

هـــذا، تتغير أركان الصيغة الوجودية بالذات، بحيث تُفهَم الحقيقة بوصفها ما نخلقـــه من الوقائع، ويُنظَر إلى الواقع المركّب بوصفه مجالاً للخرق أو عتبة للعبور، ويمـــارس الفكـــر بوصفه متعدد المقاربات والمعالجات، وذلك بقدر ما يعامل الحق بوصفه ما نحسن إنجازه أو أداءه أو تسويته، وتمارس السلطة والمشروعية بقبول النقد والمـــساءلة والمداولـــة. أمـــا الحرية فإنها لا تعود تفهم أو تمارس كهوية مطابقة أو مـــساواة مـــستحيلة أو عدالة هشة، بل بوصفها قدرتنا على التغيّر والتحوّل، بما نجتـــرحه أو نبتكـــره مـــن الصيغ والمعادلات أو العوالم والتشكيلات أو اللغات والشبكات.

x- أسطورة الحرية

هـــذا هـــو الـــرهان الآن: فعلى وقع الإفلاس الذي تعاني منه فكرة الحرية ومـــشاريع التحريـــر، لم تعـــد تحـــدي إدارة القضايا والأفكار المتعلّقة بالحريات الديموقراطية والحقوق المدنية، لا بمنطق طبائع الاستبداد، ولا بعقلية حركات التحرر الفاشلة، ولا بنرجسية المثقف الذين لا يحسن سوى انتهاك ما يدعو إليه.

الممكـــن والمجـــدي لمـــواجهة ما أنتجته فكرة الحرية من الفوضى والاستبداد والإرهـــاب والبربرية، العمل على إجراء تحوّلات تطال العقلية والمهمة كما تطال الطريقة والعدة من غير وجه:

أ - أن نكـــف عـــن ممارســـة الوصاية على القضايا العامة، بحيث نقتنع بأننا أقل ديموقـــراطية ممـــا نحسب، وأننا لا نعشق الحرية على ما ندعي بقدر ما نهوى الفرادة والتمايز وممارسة السلطة وتأكيد الحضور.

ب - أن نعتبر أن تحرير المجتمعات ليس شأن قلة أو نخبة أو فئة تحمل المسؤولية عن غيرهـا، وإنما هـو شأن الجميع على اختلاف قطاعاتهم وحقولهم أو فئاتهم ومشروعياتهم.

ج - التعامل مع الناس لا بوصفهم جماهير نحتقرهم ونفكر عنهم، بل بوصفهم أصحاب اختصاص، هم منتجون أو مبدعون في مجالات عملهم بقدر ما هم فاعلون ومؤثرون.

د - تفكيك أسطورة الحرية، لإعادة بناء المفهوم، بفكر جديد، ذي طابع نسبي، وسطي، تعددي، تداولي، تركيبي، متحوّل. فالحرية ليست المماهاة مع الذات ولا البحث عن الجذور، ولا هي أن نكون ما نحن عليه أو أن نصير إلى ما كناه، كما يعتقد نيتشه أو هيدغر، وإنما هي قدرتنا الخلاّقة على أن نتحوّل عما نحن فيه، بتحويل المفاهيم أو تغذية العناوين. وهكذا فليست حريتنا في استعادة هويتنا. بالعكس إنها قدرتنا على كسر منطق المماهاة والمطابقة، بإجراء تحوّلات على الذات، تسهم في زحزحة المرء عن مركزيته بقدر ما تسهم في تغيير الآخر، عبر توسيع مساحات اللقاء والحوار، أو خلق صيغ وقيم لإدارة الشأن العام والعمل المشترك بصورة إيجابية وبنّاءة.

هـ - تفكيك أوهام الحقيقة بالكف عن البحث عن حقائق مطلقة أو عن خير أسمى أو عن حلول قصوى. فالحقيقة ليست ما نعرفه أو نتطابق معه، وإنما هي قدرتنا على إنتاج الوقائع وخلق الحقائق. فما نعرفه حق المعرفة لا يتطابق مع الواقع، بل يشكّل واقعة تغيّر علاقتنا بالأشياء. ولذا ما نحتاج إليه ليس التسبيح بحمد الحقيقة ولا الادعاء بتجسيد مثل الحرية والعدالة والديموقراطية. ليس التردد بين أساطين الأولين وأقانيم المحدثين، بل التصرف بوصفنا نفعل ونؤثّر في مجرى الأشياء بقدر ما نخلق ونتتج. فمن لا فاعلية لا سلطة له. ومن لا سلطة له لا حرية له.

وهكذا ما تحتاج إليه الحرية، هو الكف عن التعبّد لها كأيقونة أو التعلّق بها كأسطورة أو التماهي معها كهوية، لكي نتعامل معها من خلال مفردات الخلق والابتكار، أو الإنجاز والأداء، أو الفاعلية والسلطة، أو التحوّل والتغيّر. بهذا المعنى

ليس الإبداع ثمرة مناخات الحرية، كما يتوهم المثقفون العرب. بالعكس إن الحرية هـي ثمـرة الخلـق والإبداع، وذلك بالعمل على مراجعة المسبقات والتحوّل عن الـثوابت، أو كـسر القوالب والنماذج، أو خرق الشروط والحدود، كما تشهد التجارب الإبداعية. فديكارت، مثالاً، لم يبدع ما أبدعه لأنه كان يعيش في مجتمع حـرّ أو ديموقراطـي. بالعكس إن ما أنجزه من عمل خارق، بممارسته حريته في التفكير، قد أسهم في توسيع فضاءات الحرية.

ولـذا فالحرية لا تحتاج إلى أن نتعبّد لها أو نسعى وراءها، كهدف مستحيل، لكي تتحوّل إلى استراتيجية قاتلة، وإنما هي مشروع دائم، نتحوّل به عما نحن عليه، بمـا نبتكـره أو نطلقـه أو نفتـتحه أو ننجح في تشكيله، من المجالات واللغات والمسارات والقوى والمعادلات... وتلك هي حريتنا. إنها قدرتنا على الخلق والتغيّر أو علـى التـشكيل والتركيب، وبصورة تتيح لنا تغيير الواقع، بممارسة علاقة نقد وسـبق مع ذواتنا، تكون في الوقت نفسه علاقة اعتراف متبادل وتفاعل حيوي مع الآخرين.

XI- حمل الأمانة

خلاصة القول في المسألة أن الحرية، كإمكان لأن نكتشف ما لم ينكشف، أو لأن نصنع الجديد من الوجوه والأبعاد أو من العوالم والفضاءات، على النحو الذي يجعلنا، من حيث علاقتنا بوجودنا، أكثر مما نحن عليه، أي أغنى وأقوى أو أحسن، إنما لها وجهها الآخر، بمعنى أن مضاعفة الإمكانات تخلق دوماً ما لا يمكن استباقه أو السيطرة عليه.

مـن هنا فنحن إذ نمارس حريتنا، إنما ننخرط في مشروع تتشابك فيه العناصر والدوافـع وتـتداخل الأبعاد والمقاصد، بقدر ما يُنسج من الالتباس والتوتر ما بين الإرادة والقـدرة أو الرغبة والواقعة أو القيمة والمنفعة أو السلطة والمعرفة أو الذائقة والفاهمة أو البرمجة العقلانية والمخيّلة الجامحة.

وهكـذا نحـن نتـرجح بين مروحة الممكنات، بقدر ما نقف على التخوم والمفارقات، أو بقدر ما نتردد بين الأضداد والمتعارضات؛ فإما أن نصنع المعجزات

والإنجازات، وإما نصنع الأهوال والكوارث؛ إما أن نعقل ونتدبر، وإما أن تجتاحنا الأهواء المدمرة، كما تشهد علاقة الفاعل البشري بحريته وقدراته في هذه الأيام.

فهل نحن قادرون على ممارسة قدر من الحكمة يتيح إقامة التوازن بين ميولنا وقدراتنا؟ هل نستبق الوقائع أم نسير نحو الهاوية، لكي ندفع ثمن حريتنا التي تجعل قدرتنا على الفعل والتأثير أكبر من قدرتنا على التوقع والتقدير؟

إن الأمر يتوقف على الإحساس بالمسؤولية والأمانة التي يحملها الإنسان تجاه نوعه وتجاه بقية الأنواع الحيّة، كما تجاه الأرض والبيئة. وذلك يقتضي ممارسة قدر من التقى الفكري للتحرر من تهويماتنا القدسية والمتعالية أو المركزية والاصطفائية، التي تجعلنا نتوهم بأننا أسياد الطبيعة وأشرف المخلوقات، أو التي تجعل بعضنا يعتبرون أنفسهم أحق وأفضل من سواهم، بحيث نعترف بأننا أقل شأناً مما ندعي بكثير. فلم يعد ممكناً ممارسة الحريات أو الدفاع عنها بالنماذج والقيم الإنسانية السائدة، القديمة أو الحديثة، سواء بشكلها اللاهوتي والديني، أو بشكلها العلمي والفلسفي، إذ هي التي تلغم الحريات بقدر ما تنتج أشكالاً جديدة من العبودية.

والرهان مرة أخرى هو العمل على تشكيل فضاء جديد للعمل الحضاري والنمو البشري، بحيث ننتقل من الأنا النخبوي والوحداني نحو الأنا التعددي والتواصلي، الذي يفكر ويعمل بعقل تداولي قوامه التوسط والتعدد والاعتراف والشراكة والتراكم والتركيب والتجاوز. فصناعة الحياة وقيادة المصائر ومواجهة التحديات، هي مسؤولية متبادلة يحملها الجميع، ما دام الكل فاعلين ومؤثرين، بقدر ما هي بناء مشترك ينخرط فيه الجميع، ما دام الكل يساهمون في إنتاج المعرفة والثروة والسلطة. فهل نحمل المسؤولية بالتفكير والعمل، بعقلية المداولة والشراكة لبناء مشترك بشري يكون أقل كلفة؟

الفرد
من جلباب الأب إلى عباءة الشيخ

لا شك أن مفهوم الفرد يعاني من مأزقه، شأنه شأن سائر الشعارات الحديثة. فأين هو الفرد الذي نفكر فيه ونتحدث عنه وسط التكتلات المتراصّة والحشود العمياء والمعسكرات المتحاربة التي تحفل بها مدننا وساحاتنا وشوارعنا بجماهيرها الهائجة ونخبها العاجزة؟

ومفهوم "الفرد"، كإمكان وجودي هو، شأن مفهوم الحريّة، اختراع حديث، بما يعنيه المصطلح من استقلالية الذات، وحرية الاختيار، وامتلاك الشخص لجسده، وسيادته على نفسه، ومشاركته في قود مصيره، وممارسته فرادته، وقدرته على تكوين ذاته بصورة عامة.

وهذا المفهوم قد تبلور كجزء من نظام معرفي، مع الخروج من فلك العصور الوسطى المغلق نحو فضاء الحداثة المفتوح، بقدر ما اشتغل بالتوازي والتفاعل مع جملة مفاهيم تغيرت معها خارطة الفكر وصورة العالم، من أبرزها الذات المفكرة، المذهب الانساني، النقد التنويري، حاكمية العقل، حرية التفكير، حق الاختلاف، حرية التبادل، المجتمع المدني، الحكم الديموقراطي...

ولذا فإن مفهوم الفرد يتصل من الوجهة المعرفية بفلسفة الانوار، ومن الوجهة السياسية بالمذهب الليبرالي، ومن الوجهة الحقوقية بالانتقال من المرجعية اللاهوتية ومن قوانين الطبيعة إلى المرجعية البشرية وحقوق الانسان؛ ولعل هذا المفهوم بلغ أقصى طاقته في تيارات ومذاهب ونزعات كالرومانسية والسريالية والعدمية، فضلاً عن فلسفات الاختلاف..

ولا يعني ذلك أن الفرد لم يوجد أو يُعرف قبل العصور الحديثة. ولكنه كان استثناء تجسده شخصيات كالملوك والسلاطين او الفلاسفة والعلماء، وخاصة

اقطـــاب الصوفية الذين مارسوا فرادهم وعشقهم لذواهم حتى التأله، كما عبّر عن ذلك البسطامي بقوله: سبحاني ما أعظم شاني. اما بالنسبة الى الناس عامة او كافة، فإن مصطلح الفرد بقي دون المفهوم او تحته، ولا يشكّل مقولة مركزية على خارطة الفكر القديم او الوسيط اليوناني او العربي. المفاهيم السائدة كانت المؤمن، او المرء، او الحكيم، او الرعية.

في أي حـــال إن مفهوم الفرد في العالم العربي قد جرى الالتفاف عليه قبل أن يـــولد ويفعل فعله او يستنفد طاقته. ولا أعتقد أنه أتيح للعربي أن يمارس فرديته إلا في استثناءات نادرة تبدو كلحظات ضائعة، كما في الحقبة الليبرالية التي تلت مرحلة الاستعمار وكانت ثمرتها في الآن نفسه.

ففي أغلب المراحل والمحطات الحديثة، جرى ابتلاع الفردية، تحت وطأة القيود والضغوط والمحرمات او الممنوعات المجتمعية او الدينية او السياسية او الثقافية، سواء مـــن جهـــة القبيلة والطائفة او الحزب والدولة، فضلاً عن منظومات القيم ونماذج الثقافة.

الأب

قد يكون الفرد، ذكراً وأنثى، قد تحرر في كثير من المجتمعات العربية من أطر العائلـــة وخـــرج على أعراف القبيلة. ولكنه ما زال في كثير من البلدان، خاصة النساء، أسير العادات والمحرمات التي تقلص حرية الاختيار واستقلالية القرار. ومن يفكـــر بكسر القوالب والخروج على الثوابت، يُعزل او يُفرد إفراد البعير الأجرب، إذا شئنا استخدام تعابير العصر الجاهلي. وإذا كان امرأة قد يتعرّض للأذى المعنوي أو المادي الذي قد يصل الى القتل، دفاعاً عن شرف العائلة او العشيرة.

المؤمن

ولا شك أن الثقافة الدينية، المغلقة والمتحجّرة، او الأحادية والاصطفائية، هي مـــن أهـــم العوامل المنتجة لأزمة الديموقراطية وعوائقها. وذلك حيث الانتماء الى الطائفـــة يـــتغلب على الولاء للقانون والدولة والنظام العام. من هنا يطغى، اليوم،

نموذج المؤمن على مفهوم المواطن، في أكثر المجتمعات العربية والإسلامية، سيما بعد صعود الموجات الأصولية الطائفية والمذهبية.

ومـن المفارقات هنا أن الكثيرين من الذين عبروا عن رغبتهم في التحرر من سـلطة القبـيلة، إنمـا ينتقلون الآن من جلباب الأب الفعلي، او الأب السياسي (الـرئيس القائـد)، الى عباءة الشيخ او الى قلنسوة الكاهن، كما هي حال معظم الـشبان والشابات في العالم العربي الذين أسدلوا الستار على عقولهم لكي يصلحوا أدوات طـيّعة بـيد هذا المرشد الديني او الامير الجهادي. وتلك هي ثمرة سيطرة الدعاة الجدد على الساحات والشاشات والجامعات بآلهتهم وأساطيرهم وتهويماتهم الايديولوجية او تشبيحاتهم النضالية أو شعوذاتهم الثقافية.

ومـن الشواهد في هذا الخصوص، أنه في بلد، كلبنان، يُمتدح أهله، بأنه بلد حضاري ومنخرط منذ زمن في سيرورة التحديث، ثمة شريحة واسعة تطالب الدولة بـأن تـنظم لها أحوالها الشخصية، إلى جانب بقية الطوائف، سيما وأن ذلك يُعدّ تعزيـزاً لمنطق الدولة التي تعاني من الضعف والهشاشة. ولكن الدولة، وتحت تأثير ضـغوط الطوائف وتهديداتها، بقادتها السياسيين ومافياتها المقدّسة، تقول لهم: أنتم مـربوطون بـسلاسلكم إلى كاهنكم وشيخكم، ولا فكاك لكم من ذلك. وهذه واحدة من فضائح المجتمع اللبناني وآفاته. أقول فضائحه لأن مشروع قانون الزواج المدني الذي طُرح للمداولة، يعدّ محافظاً قياساً على زواج المتعة أو الزواج العرفي، أو أي شـكل آخـر يظل مشبوهاً بقدر ما يجري في الغرف المعتمة. لأن الأساس في الزواج، هو الإعلان والإشهار. وما لم يعلن ليس زواجاً، فالأولى أن يسمى بإسمه، متعة، أو صحبة، أو خيانة.

القضية

وممـا يضاعف الأزمة هو النموذج الذي أنتجته الإيديولوجيات الحديثة على اخـتلاف مـشاريعها ومدارسـها، القومية والاشتراكية أو اليسارية والعلمانية؛ والمقصود بذلك هو نموذج العقائدي الحزبي الذي هو الوجه الآخر لنموذج المؤمن التقليدي، من حيث انغلاقه وتخليه عن التفكير الحر والمستقبل، بالتماهي مع القضايا

والـــزعامات حـــتى الذوبان وعبادة الشخصية. والحصيلة هي تكريس صنم الزعيم الأوحد الذي يختزل مجتمعاً بكامله، بكل فئاته وقواه ومشروعياته، وعلى نحو يشل الطاقة الفكرية ويعطل الحياة السياسية. هذا ما جرى عموماً في الدول التي أُدرجت تحـــت خانة التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي، وذلك حيث الأنظمة الجمهورية والديموقراطيات الشعبية والمجالس الوطنية والدساتير والقوانين تحولت إلى ديكورات أو إلى أدوات لتغطـــية أو تبريـــر سياســـات القهـــر والعسف والفساد والانتهاك والاستبداد...

النخبة

وهـــناك العقلـــية النخبوية، إذ النخبة منافية بطبيعتها للحرية، وإن كانت لا تتوقف عن المطالبة بها.

مـــن هنا أيضاً، فإن المثقفين، دعاة الحرية والديموقراطية، هم ايضاً من صنّاع الأزمـــة، وذلك بقدر ما تعاملوا مع شعاراتهم بطريقة طوباوية، فردوسية، أحادية، دغمائية، تراجعية... يشهد عليهم موقفهم من مسألة الحجاب في هذا الخصوص. ومن المفارقات الفاضحة أن العلمانيين العرب وقعوا في الفخ عندما دافعوا عن حرية المسلمة بارتداء الحجاب، في فرنسا، بحجة احترام حرية الاعتقاد والتعبير، او مراعاة الحقوق الثقافية للطوائف والجاليات.

بهذا يريد العلمانيون للمسلمين الفرنسيين أن لا ينخرطوا في مجتمعهم الجديد. ومـــآل ذلـــك، في بلـــد كفرنسا، هو تلغيم صيغ التعايش بين المسلمين وبين بقية الفرنـــسيين. وهذه واحدة من آفات العلمانيين الذين يتعاملون مع قضاياهم بعقلية لاهوتـــية، أي كأقانيم مقدّسة وحقائق مطلقة. هذا في حين أن الحقوق والقضايا، هي ما يمكن تداوله وصرفه على ارض الواقع، عملةً تواصليةً تبادلية، على الأقل في البلد الذي نقيم فيه ونحمل جنسيته.

بهـــذا المعنى، إن الفتوى التي تقضي بأن ترتدي التلميذة المسلمة الحجاب في فرنـــسا، ولـــو كانت بعد في الصفوف الابتدائية، إنما تصدر عن نفس العقلية التي تصدر فتاوى بالتفجيرات الارهابية وإقامة الامارات الجهادية أو المحاكم الاسلامية،

وســوى ذلــك مــن الأعمال التي تحكم على المسلمين حكماً مبرماً، بالتخلف والتقهقر، أو بالسجن الرمزي او المادي، أو بالقتل والقبر. مما يشهد على أن بعض الــنخب المــثقفة أسدلوا الستار على عقولهم، لكي يسيروا في ركاب الفقهاء أو يدافعوا عن أمراء الجهاد.

الزعيم الأوحد

ولا مراء أن الضغوط الساحقة على الفرد تمارس من جانب الأنظمة السياسية بعقائــدها الاسمنتيــة وأحــزابها الحديدية. ومن المفارقات هنا ايضاً ان الدول التي تشكلت او عملت تحت يافطة العلمانية والحداثة والتحرر والتقدم، هي التي قوّضت مــساحات الحرية التي كان يتمتع بها الافراد، سواء في حقبة الاستعمار، او في ظل البنى التقليدية القبلية والطائفية التي كانت تضمن للفرد بعض الحماية تجاه جبروت الدول بآلاتها وشبكاتها الأمنية.

وإذا كــان بوسع الفرد ممارسة قدر من الحرية، مساءلة واعتراضاً، او خروجاً ومروقاً، تجاه القبيلة والطائفة، فإن ذلك ممنوع عليه تجاه الدولة والحزب. فمن دخل حزباً ثورياً حديثاً في دولة شمولية، عليه أن يبقى فيه، وإلا مصيره السجن او المنفى او القــبر، وهكذا خسر الفرد مع الأنظمة الثورية مكاسب الانظمة التقليدية، ولم يربح شيئاً من منجزات الحداثة.

الفاشية

ثمة عامل آخر له أثره السلبي على ممارسة الفرد لحريّته، لا يلفت النظر عندنا، ولكنه يلفت نظر الغربيين. يتمثل ذلك في النــزعة الفاشية، سواء على أساس الدين أو العرق. وهذه النــزعة قد تبرز في اللحظات الحرجة، كأن يتعرض بلد للأخطار الخارجية. الأمر اذي يعتبره الساسة والمتنافسون في المعارك الانتخابية فرصة يعملون على استثمارها، إن لم يكن على خلقها، بتأجيج المشاعر الوطنية أو القومية.

هذا ما جرى في الانتخابات الرئاسية الأميركية عام 2004، حيث تم توظيف أحــداث ايلــول 2001، باللعب على وتر الشعور القومي أو الديني، عبر التهويل

بالخطـــر الذي يمثله الارهاب الاسلامي أو العالمي. وقد تم ذلك على حساب حرية الاختيار الصادرة عن حس نقدي أو موقف عقلاني.

ومـــن هذا القبيل ما جرى في فرنسا، مؤخراً، حيث المرشحة الاشتراكية في الانـــتخابات الرئاسية، طلبت من الفرنسيين رفع علم بلادهم على نوافذ منازلهم، الأمـــر الذي عرضها للنقد من كل حدب وصوب. إذ الكل اعتبروا أن استخدام الـــرموز الوطنية، في المعركة الرئاسية، كالأعلام والاناشيد، فضلاً عن كونه يسيئ إلى صـــورة فرنـــسا الاوروبية، يعد دليل نـــزعة شوفينية أو مظهراً دينياً في دولة علمانية.

أمـــا عـــندنا فالأمـــور تجري بالعكس، إذ إن ما ينتقده الغربيون في البلدان الديموقراطية، نتمسك به ونفرط في ممارسته، كما يتجسم ذلك في استخدام الرموز الوطنـــية ورؤوس الأمـــوال الثقافية، كالأعلام والشارات، مما يحول التعبيرات عن الهوية الجمعية، في حالاتها القصوى، إلى تشكيلات فاشية عنصرية.

العلّة

هذه مثالات على آفات وعوائق تشهد على أن المجتمعات العربية، قد سقطت في امتحان الفردية والمواطنة والديموقراطية والمجتمع المدني، وتراجعت عما كانت عليه قبل عقود، بالرغم الدساتير والقوانين والأنظمة ذات المسميات الجمهورية أو الديموقراطية.

كـــل ذلـــك يجعل من المتعذر الكلام على افراد، هم مواطنون، بقدر ما هم كائنات تملك حرية التفكير والتقرير او حق الاختلاف والتعبير. ما يوجد في العالم العربي، هو الشعارات العريضة والقضايا الكبيرة والاطر الكلية والمؤسسات الجمعية الـــتي تتجاوز الافراد وتعلو عليهم، لكي تعمل على تطويعهم وقولبتهم او سحقهم وشل طاقاتهم الحيّة، كالأمة والدولة والطائفة والثورة والمقاومة والمسجد والكنيسة والامن القومي...

بكـــلام آخر، ما يوجد ويفعل، ليس الفرد ذو الفكر المستقل والعين النقدية، تجاه الذات والمجتمع، بل المؤمن أو المنضوي او المنخرط على أساس ديني او قومي او ثقافي، وإلا وُصِم بالتّهم الشائعة كالكفر والخيانة والعمالة...

والعلـــة في ذلـــك، أنـــه لم يجر أصلاً تحول فكري يطال الذهنيات والقيم او المفاهيم والمعايير. ما حصل هو العكس: انتشار الفكر الاصولي القائم على تقديس النـــصوص وعـــبادة الاصول، والعودة الى أحضان السلف، للعثور على الأجوبة والحلول لأسئلتنا ومشكلاتنا المعاصرة. هذه هي العلة التي تفتك بالمجتمعات العربية: الاســـتقالة مـــن التفكير الحيّ الخلاق، الايجابي والبنّاء، المثمر والراهن، الامر الذي يترجم عجزاً وإخفاقاً في مواجهة التحوّلات والتحديات والمشكلات المعاصرة على غير صعيد ومن غير مصدر.

ولا يعـــني ذلـــك أن الأوضـــاع في العـــالم هي بألف خير. فلو توقفّنا عند الديموقراطية، التي هي اليوم المطلب والشعار، نجد الها تعاني من أزمتها على ارضها بالـــذات، في ضوء التحولات الهائلة الناجمة عن ثورة الاتصالات والمعلومات، التي تجعـــل الديمقراطية التمثيلية عاجزة عن مواجهة الانفجارات والثورات والطفرات علـــى الساحة العالمية. ثمة شركات عملاقة وشبكات طاغية وقنوات فضائية عابرة للمجتمعات باتت، اليوم، اقوى اثراً من الحكومات والبرلمانات.

ولكن الازمة عندهم او الإخفاق عندنا، ليس دافعاً الى اليأس. بالعكس، إلها فرصـــة امامـــنا لكي ننخرط في المناقشات العالمية حول أزمة المجتمعات المعاصرة، خاصـــة وأن ازمتـــنا هـــي ازمة افكار ومفاهيم. والممكن، على وقع الانفجارات والالهـــيارات، وفي ضوء التحولات الحضارية والثقافية، تجديد العدة الفكرية، سوءا تعلق منها بالفرد والطائفة والمجتمع، أم بالديمقراطية والدولة.

أخلـــص من ذلك، إلى أن هذا التشخيص للمشكلة، لا يعني التباكي على الفرد، كمـــا يفعـــل الحداثيون العرب، تجاه معظم الشعارات الحديثة التي فقدت مصداقيتها وبلغـــت مأزقهـــا، كالعلمانية والاستنارة والعقلانية والديموقراطية والمجتمع المدني... الممكـــن الآن هو اعادة النظر في الشعارات التي ترجمت بأضدادها على ارض الواقع، علـــى سبيل اعادة الصوغ والتركيب. هذا هو الرهان عند مَن يقرأ المصائر البائسة للقضايا والعناوين: اعادة بناء المفاهيم بالتحرّر من وهم الحلول القصوى. فلا يوجد اســـتقلالية تامة أو فرديات مطلقة، لأنه لا وجود لفرد من دون وسط اجتماعي او بيئة ثقافية، إلا على سبيل العزلة والوحدة والوحشة او الاحباط والسقوط.

وفي المقابـل ليست المجتمعات كيانات تبنى بقرارات فردية[1] هي حسابات منطقية او برامج عقلانية. فالذين فكروا على هذا النحو من النخب الحديثة، أفضى بهم التفكير إلى انتاج تجمعات بأسوأ التقاليد. لأن المجتمع البشري هو حيز رمزي لانتاج الاسطوري والخرافي واللامعقول وكل ما يندّ عن سيطرة الوعي والعقل.

من هنا لم تعد المسألة هي الخيار بين الفردنة والجمعنة، أي بين التوحّد مع الذات والذوبان في الجماعة. وإنما هي مسألة العمل الدائم على الانتماءات والقيود والضغوط لتحسين شروط الوجود او تغيير ظروف العيش. وذلك يحتاج الى كسر منطق الفرديات المنعزلة والجماعات المغلقة والهويات المتوحّدة او الذوات الوحدانية، للعمل بمنطق علائقي وسطي، تداولي. فهوياتنا وحريّاتنا وحقوقنا هي ما نحسن خلقه أو أداءه، من البيئات واللغات أو الأطر والقواعد، التي تجعل الصلات، بين النظراء والشركاء، تنحو نحو تأمين تكافؤ الفرص او توازنُ الابعاد او تساوق المهام او تبادل المنافع والخبرات. وذلك يحتاج الى انتاج ثقافة جديدة، منفتحة، مدنية، سلمية، من مفرداتها التواصل، التعدّد، التركيب، الخلق، التحوّل، التبادل، التفاعل، التهجين...

---

(1) راجع بهذا الخصوص، مقالة الفيلسوف الأميركي ميخائيل وولزر "الفرد والطائفة"، وهي منشورة في كتاب "قرن من الفلسفة"، (تأليف مشترك)، منشورات غاليمار، مركز بومبيدو (Folio-essais)، بارس، 2000، فهي من أغنى وأهم المقالات في هذا الخصوص.

التجديد والإصلاح*

I- الاضطراب العالمي

أعتـــرف بـــأنني مـــا جئت لكي أقتصر في حديثي على الإصلاح الديني في الإســـلام، ولا علـــى الإصلاح في المجتمعات العربية. إن هموم الإصلاح ومطالبه أصبحت شاملة لا تخص بلداً من البلدان أو مجتمعاً دون سواه.

ثمـــة حاجة عالمية للتغيير وإعادة البناء، سواء سمينا ذلك إصلاحاً أو نهوضاً أو تحديثاً أو تنمية. لأن الأزمة هي الآن شاملة لا تقتصر على مجتمع أو منطقة أو عالم ثقـــافي. ولذا بات من التبسيط والاختزال أو الخداع والحجب، إجراء فصل حاسم بين الداخل والخارج، فيما البشرية تلج في عصر جديد، هو عصر الاعتماد المتبادل، حـــيث تتشابك المصالح والمصائر، وحيث تتعولم الهويات والثقافات كما الخيرات والمشكلات.

والأزمة ليست طارئة أو عرضية، وإنما هي بنيوية كيانية، إذ هي لم تعد تقتصر علـــى الفرعيات أو على الوسائل والآليات، وإنما تمس الثوابت والعناوين، بقدر ما تطـــال المفاهـــيم والمعايير. مما يعني الحاجة إلى تجديد أشكال المصداقية والمشروعية العقائدية والمعرفية أو الخلقية والسياسية.

فلم يعد مجدياً إدارة العالم بالأنماط والأشكال أو الصيغ والنماذج العقلانية أو الديموقراطية أو التقدمية أو التنموية أو الإنسانية التي كانت سائدة في عصر الصناعة والحداثة بموجاتها الأولى. لا يصلح تسيير الشأن البشري والكوكبي في عصر المعلومة واقتـــصاد المعـــرفة والهويات الهجينة والثقافات العابرة، بمنهج ديكارت ومتعاليات

(*) ورقـــة ألقيت في ندوة: "تجديد الخطاب الديني"، وقد عقدت في بيروت، بين 21 و22 تشرين الثانـــي 2006، بدعـــوة مـــشتركة مـــن مؤسسة مخزومي في بيروت ومدير مبادرة العالم الإسلامي في المعهد الأميركي للسلام.

كـــنط، ولا بمطلقـــات هيغل أو اشتراكية ماركس، ولا بعالمية راسل أو إنسانيات سارتر، ولا حتى بتهويمات بورديو وإداور سعيد أو تشومسكي وشافيز حول الحرية والديموقـــراطية والمـــساواة والـــشأن العام. فكيف يصلح بنماذج صدر الإسلام ومؤسساته وأحكامه؟

ولو توقفنا عند الشعار الإنساني، نجد أن الإنسان الحالي لا يحسن سوى انتهاك مـــا يدعو إليه، إذ هو اليوم أكثر من ذي قبل شراسة وتكالباً وعدوانية وقدرة على إحـــداث الدمار والهلاك، سواء من حيث علاقته بنوعه أم بالطبيعة وبقية الكائنات الحيّة.

لنعتـــرف: ثمـــة عجز متزايد تظهره البشرية إزاء المشكلات والآفات التعلقة بالفقـــر والـــوباء والتلّوث والتفاوت، فضلاً عن الإرهاب الذي بات الداء الأعظم علـــى ما يشهد تدهور الأمن على المسرح الكوني. ثمة جنون يجتاح البشرية يجعلها تـــنوء بـــشعاراتها ومطالبها، بقدر ما يجعل المآلات والنهايات بعكس الادعاءات والـــبدايات. وكـــل ذلـــك يثير التساؤل عما إذا كان الإنسان هو الضحية أم هو المشكلة؟!

II- العجز العربي

أمـــا في العـــالم العربي فالمشكلات هي مزمنة ومركّبة، بقدر ما هي مضاعفة ومـــتفاقمة، كمـــا تتجـــسم في التعثّر والفشل والإنهيار والسقوط، في الشعارات والمـــشاريع، علـــى الجبهتين المتصارعتين: الكتلة التراثية بمختلف نسخها الدينية، الـــسلفية والتقليدية أو الأصولية؛ مقابل الكتلة الحداثية بمختلف اتجاهاتها ومنوعاتها القومية والإشتراكية أو الليبرالية والعلمانية.

هذا مع أن الخارطة الأيديولوجية لم تعد كما كانت عليه، إذ نشأ تحالف اليوم بين الإسلاميين وأكثرية القوميين، والكثيرين من اليساريين، في مواجهة ما يسمونه الغربنة والاستعمار أو العولمة والأمركة.

في أي حـــال، يبدو أن القوتين سواء في العجز عن التجديد والتحديث. هذا شـــأن الإسلاميين: لم يجددوا أو يضيفوا إضافات مبتكرة لا في المذاهب أو المدارس

ولا في التفاسـير أو القراءات. لقد عملوا تحت الشعار الإسلامي، في حين أن هذا الـشعار هـو ما يحتاج إلى تجديد معناه وملء فراغاته الدلالية، على سبيل التغذية والتطعيم بعناصر وصيغ وأبعاد جديدة، في ضوء تحولات الأزمنة الحديثة وتحديات العالم المعاصر.

أمـا الحداثـيون فقد اشتغلوا طوال عقود بتكرار الشعارات الحديثة، حول العقلانـية والاستنارة والديموقراطية والعلمانية، دون التمكّن من التجديد في صيغها وحقـولها ومناهجها. والنتيجة هي الهشاشة وانعدام الفاعلية في مواجهة المجريات والتحديات، وازدياد أشكال الاستبداد والممارسات المعتمة.

وهكـذا لم نجـدد، لا في الشورى ولا في الديموقراطية، ولم نبتكر في فروع المعـرفة، لا على غرار القدامى ولا غرار المحدثين. ولذا لم يظهر عندنا ديموقراطي كمانـديلا، أو علماء وفلاسفة كالشافعي والفارابي أو كإبن رشد أو إبن خلدون، أو كلوثـر وديكارت. كذلك لم نستطع تقديم نموذج ناجح في التنمية، على غرار اليابان أو ماليزيا، ربما باستثناء دول الخليج التي هي أصلاً استثناء من حيث ثرواتها وقلة سكانها وحجم العمالة الأجنبية لديها.

III- الإرهاب الإسلامي

وإذا كان لي أن أتحدث عن الأزمة على صعيدها الإسلامي، يسعني القول إنها أكثـر تفاقماً وحدة وخطورة، ذلك أن الإسلاميين قد نادوا بأن الإسلام هو الحل الـبديل بعـد فشل المشروع القومي والشعار الإشتراكي والمطلب العلماني. فإذا الحـصيلة الفـشل الذريع لمضاعفة الأزمة، كما تجسم ذلك في استجماع مساوئ المـشاريع السابقة، إذ أضيف الإرهاب والفتن الأهلية إلى الفقر والتخلّف والفساد والاستبداد.

هـل نأمـل بعد بحل إسلامي بعد حرب الجوامع والمراقد في العراق التي هي فضيحة هذا المشروع وأكذوبته؟ لنعترف بالواقع، إذا أردنا أن نشخص ونعرف أو نعقـل ونتدبـر. فالمـشروع الإسلامي فقد مصداقيته على أرض الواقع وفي ضوء التجارب المريرة والمدمرة.

فهذه هي مصائره على اختلاف نسخه ومنظماته التي تشهد على أهله: تحويل الفكرة إلى مؤسسة للإدانة، والهوية إلى محمية عنصرية، والصحوة إلى عتمة دامسة، والنهضة إلى مهاوي التهلكة، والسلام إلى حرب دائمة، والدعوة إلى استراتيجية قاتلة، وكلمة الله الجامعة إلى فتن أهلية وخلافات وحشية(1).

كل ذلك يشهد على أن مشكلة الإسلام الأولى، ليست مع خارجه، بل مع نفسه، ولأقل إن مشكلة المجتمعات الإسلامية، ليست مع خارجها، بل مع إسلامها نفسه، كما يجسمه على أرض الممارسات دعاته ووكلاؤه وحراسه وحماته الذين يفبركون الأوهام والنظريات المستحيلة لإنتاج أفدح الخسائر والهزائم والكوارث.

---

(1) لقد تحول العمل الديني من أفيون مخدر إلى فيروس قاتل يفتك بالمجتمعات العربية، بقدر ما أحال الهوية إلى فخ وعصاب ومأزق. وهذ هي ثمرة النرجسية الثقافية وعقيدة الاصطفاء ودعوى المماهاة مع السلف الصالح: الاستقالة من التفكير الحيّ والخلاّق، والتهرّب من نقد الذات، ومعاداة الفهم والتشخيص، لإعادة إنتاج المآزق والتقهقر إلى الوراء. ولا أعتقد أن هناك أمة على وجه الأرض يتحكم فيها ماضيها أو يستعبدها أسلافها كما هو شأن المجتمعات العربية.

والشواهد ناطقة وبليغة في هذا الخصوص:

ندعي بأن الإسلام دين ودولة، ولكننا أقمنا باسم الإسلام أسوأ الدول، لأن الدول هي شؤون دنيوية بشرية، مصلحية أو عقلية، تنسب إلى بناتها والقائمين بها، كما كان يفعل الماضون. وأما خلع الطابع الديني أو القدسي عليها، من خلال شعارات الحاكمية الإلهية أو الحكومة الإسلامية، فإنه يعطي مفعوله العكسي: دولة لا تحترم فيها القوانين المدنية ولا الأحكام الشرعية، جامعة بين مساوئ القدامة والحداثة.

ندعي بأن شريعتنا تحضّ على التسامح والاعتراف بالآخر، في حين أننا لا نعترف ببعضنا البعض، كما هو مقتضى حديث الفرقة الناجية وحدها من بين سائر الفرق، أو الكلام على إسلام أصولي صحيح واحد ووحيد، وكما تشهد فضائح النصوص لدى إبن بابويه أو إبن تيمية.

ندعي بأن الآخر في الخارج لا يعترف بنا، بينما نحن نعترف به، وننسى أن شرائعنا وعقائدنا التي تزين لنا بأننا خير أمة وبأن أسلافنا أشرف الخلائق، إنما تنبني على الإقصاء المعنوي للآخر والاعتداء الرمزي عليه.

نقول بأن الشريعة أتت لتكرم المرأة، في حين لو أردنا تطبيق أحكام وقواعد الشريعة، كما فعل المسلمون في صدر الإسلام، لعدّ ذلك فضيحة، أو لكان سبباً لدخولنا السجن.

نهاجم الثقافة الغربية، وننسى أننا نتعيش في معظم شؤون حياتنا، على ما ينتج في الغرب وفي اليابان، من السلع والأدوات أو العلوم والمعارف والخدمات.

IV- اقتراحات للمداولة

في ضـــوء هـــذا التشخيص للآفة والعلة، ما أفكر فيه أو أقترحه على سبيل المعالجة، بعض التصورات والآليات ونماذج العمل.

أولاً: في المفاهيم

1 - إطلاق حرية الاعتقاد بإلغاء قاعدة الارتداد. فالإسلام كحضارة وثقافة، أقوى وأغـــنى من أن يتهدده فرد أو قلة من الناس. أما عقلية التكفير والتأثيم، كما تتجـــسد في فتاوى الحسبة وتهم الإساءة والردة، وسواها من مفردات العصور الوســطى، فمـــا عادت تصلح للبناء والعمران، بل هي تخرّب العلاقات بين الناس، وتسهم في تشويه سمعتنا في العالم والإساءة إلى ما ندافع عنه.

2 - الـــوجه الآخر لعقلية التكفير والتأثيم في مواجهة الخارجين على الأطر الدينية، هـــي عقلـــية الاستبعاد المتبادل في الداخل، على سبيل التكفير أو التبديع، بين الطوائف الإسلامية نفسها، كما تتجسّد في النصوص والأحكام والفتاوى لدى منظّري العقائد والمذاهب.

فهـــذه الآفة هي أخطر من فتاوى الارتداد ضد الخارجين، إذ هي التي تشكّل الوعـــي وتـــصنع العقول لكي تدمّر صيغ التعايش بين المسلمين وتحيي الفتن النائمة بقدر ما تؤجج الذاكرة الموتورة. إنها الشيفرة الرمزية أو العلبة السوداء التي ينبغي تفكيكها، إذا أردنا الإصلاح وإعادة الإحياء أو البناء. ولا أعتقد أن الإصلاح يبدأ أو ينجح، من دون إعادة النظر بالنصوص الاصطفائية التكفيرية لـــدى كل فرقة، بحيث ينبري دعاة أو علماء يعلنون بأنه ليس كل ما جاء في كتبـــنا صـــحيحاً أو ملائماً لهذه العصر. وهكذا لا إصلاح من دون إخضاع النصوص للنقد والجرح والغربلة[1].

---

(1) ومـــن المفارقـــات في هذا الخصوص أن الذين وقفوا، في الغرب، موقف التقدير والثناء من الإســـلام ونبيّه وحضارته، لم يكونوا من رجالات الدين أو اللاهوت، بل كانوا من بين دعاة العلمانـــية والعقلانـــية والاستنارة. أما المفارقة الصارخة فهي عندنا، أعني أن من يصنفون خـــارج الاتجـــاه الإسلامي الأيديولوجي، ممن يعدون علمانيين أو حداثيين أو غير متدينين، وليس خارج الإسلام كثقافة وحضارة، إنما يقبلون الجماعات الدينية كما تقدّم نفسها.

3 - الكف عن عبادة الأصول وعن التعامل مع نصوص التراث ومرجعيات المعنى كسلطات مقدّسة أو حقائق مطلقة أو نماذج كاملة ينبغي التماهي معها واحتذاءها. مثل هذا المسعى يصنع منا متحجرات حضارية، بقدر ما يفضي إلى انتهاك ما ندعيه أو مسخه وتشويهه بتحويله إلى معارف ميتة أو إلى نماذج ثقافية بائدة، أو باستخدامه كمتاريس لإطلاق النار على المختلف والآخر، أو كآلة لصنع الخراب والهلاك، كما هي التجارب المريرة والمرعبة، على أرض الواقع، من جانب المنظمات الأصولية؟

الأجدى والأغنى والأقوى هو التعامل مع النصوص والأحاديث أو مع التعاليم والأحكام، كمساحة للتأويل وتجديد المعنى، كمخزون ثقافي يمكن توظيفه وتحويله إلى عملة حضارية راهنة، كرؤوس أموال رمزية تحتاج إلى من يستثمرها لكي يضاعفها ويغتني بها؛ باختصار كخبرات غنية وتراثات حيّة تركها القدماء والسابقون، يحسن بنا الاشتغال عليها واستخدامها، لفهم الواقع وتدبّر الحاضر، أو لاستباق الآتي وتداركه. فمن لا يحسن فهم واقعه والمشاركة في صناعة عالمه، لا يحسن استثمار ماضيه ولا الإعداد لمستقبله.

4 - التحرر من عُقدة الاصطفاء التي تجعلنا نعتقد بأن الله قد اصطفانا وحدنا، باعتبارنا خير أمة أو باعتبار أسلافنا أشرف الخلائق، لكي يختم سجل الحقيقة على يدنا ويبلغنا آخر رسائله ومقرراته. مثل هذه العملة العقائدية لا تتيح لنا الإقامة السوية في هذا العالم، بصورة إيجابية وبنّاءة. وإنما هي أشبه بفيروس يفتك بمجتمعاتنا من الداخل، إذ هو يجرنا إلى الحرب الأهلية وإلى حصد الهزائم الحضارية والكوارث البشرية، بقدر ما يجعلنا نفشل في مواجهة التحديات من الخارج، لكي نزداد هشاشة وهامشية وتبعية.

فالأحرى أن نتعامل مع أنفسنا، لا بوصفنا أرقى ولا أدنى من الناس، بل بكوننا

ولو أخذت نفسي مثالاً، فأنا أعتبر المسلم مؤمناً على طريقته وكذلك المسيحي أعتبره مؤمناً على طريقته، أي لا أعتبره مؤمناً في الظاهر وكما تقضي اللغة الدبلوماسية في ندوات الحوار، وأظل في قرارتي أنظر إليه كمشرك أو غير مؤمن. كذلك أعتبر السني مسلماً على طريقته، والشيعي مسلماً على طريقته؛ في حين أن أهل الطوائف وأتباع المذاهب لا يعترفون ببعضهم البعض؛ وهكذا فمن نظن أنهم خارج فلك الإيمان والإسلام يعترفون بأن الكل مؤمنون أو مسلمون، في حين أن أهل الإيمان والإسلام يشتغلون بإقصاء بعضهم البعض. وتلك هي الفضيحة.

جماعـــة بين البشر، لها ميزاتها وحسناتها، كما لها عيوبها ونقائصها؛ وأن مهمتنا أن نشتغل على معطياتنا لكي نبتكر ما به نثبت جدارتنا ونصنع ما نشارك به في صنع الحضارة القائمة، من المعارف والعلوم أو القيم والمفاهيم أو الوسائل والأدوات.

هل المحافظون الجدد يعودون إلى استخدام العملة الاصطفائية بأقوى ما يكون؟! إذن لننتظـــرن المزيد من العداء والصدام والدمار؟ لأن لا شيء يعود كما كان عليه، إلا على النحو الأسوأ والأخطر والأرهب.

5 – العمل على تجاوز مفهوم "التسامح" الذي يظهر التساهل مع الغير، ولكن مع الاعـــتقاد الضمني بخطأه، وبطلان معتقده والانتقاص من مشروعيته وإنسانيته. الأَوْلى في عملية الإصلاح للذات وللآخر، الاشتغال بمفهوم "الاعتراف المتبادل" بحـــيث نقرّ بأن للآخر مشروعيته، أي بأنه مؤمن على طريقته أو مسلم على طريقته أو إنساني على مذهبه[1].

6 – التمـــرّس بـــالحسّ الـــنقدي والوعي الضدي، بحيث نعترف بأننا مسؤولون بالدرجة الأولى عما يحدث لنا، فلا نوجّه التهم دوماً إلى الغرب والغير، بل نهتم بتـــشخيص الآفات ودرس المشكلات، سعياً لابتكار المعالجات. فالمجتمع الذي يـــرفض تسليط الضوء على عيوبه وأعطاله، بالمساءلة والنقد والجرح، أو حتى بالتهكم والسخرية، هو مجتمع مريض، مصاب بالعمى والصمم والخرس. وأما المجتمع الحيّ والديناميكي، أو الغني والمزدهر، فهو الذي يرى إلى نفسه بعين نقدية، أو بمرآة الغير. والآخر يرى ما لا نراه في أنفسنا، وقد يوقظنا من سباتنا[2].

---

(1) إن أول مـــن ينـــتهك التـــسامح هم دعاته، ولذا فهو مجرد هدنة بين فئتين أو صدامين. أما منطق الإعتراف فإنه يخلق شروطاً لإجراء حوارات خصبة وبنّاءة، بقدر ما يسهم في تشكيل مساحات أو لغـــات أو صيغ للتعايش والتفاهم أو للتبادل والتفاعل. والحوار الحيّ، والبنّاء، ليس هدفه أن نعرف من المخطئ ومن المصيب، أو من في ضلال ومن على هدى، وإنما هو خلق مناخ يتيح للواحد أن ينصت للآخر لكي يتعلّم منه أو يغتني به، عبر تشكيل قناعات جديدة أو ابتكار صيغ مركّبة.

(2) هذا ما جرى للعرب والمسلمين في العصور الحديثة، حيث الاحتكاك بالغرب جعلهم يكتشفون تخلّفهـــم الحضاري، ويسعون إلى النهوض والتجديد أو الإحياء. وهذا ايضاً ما جرى للكنيسة فـــي أوروبـــا. فمـــا فعلته الحداثة العلمانية والعقلانية العلمية لم يؤد إلى قتل الدين كما يعتقد إسلاميون معاصرون. بالعكس، إنه أيقظ المؤسسة الدينية من سباتها وحرّرها من ذاتها، بعد أن تحـــولت مع محاكم التفتيش إلى سلطة دنيوية ظالمة ومرعبة، مما دفعها لكي تقوم بإعادة الإحياء والبناء، عبر الانفتاح على العلم والآخر والعالم.

ومؤدى الاعتراف أن نتمرّس بمنطق التواضع الوجودي والتقى الفكري، لكي نعيد بناء أنفسنا، عرباً وبشراً.

ثانياً: في آليات الإصلاح

الإصلاح هو عملية شاملة ودائمة، بقدر ما هو عملية معقدّة ومركّبة، إذ هـو يجـري على غير صعيد، وفي غير حقل، ويشارك فيه، أكثر من طرف أو فاعـل ومـتدخّل، بمعنى أنه عام وخاص، رسمي وأهلي، سياسي ومدني، محلي وكوكبي.

1 - الإصـلاح شـامل، لأنه يطاول مختلف الحقوق والقطاعات، سواء تعلّق الأمر بالـسياسة أم بالاقتـصاد أم بالاجتماع أم بالثقافة... إنه ورشة شاملة لإعادة البناء. ولذا لا نغرقن في الجدل العقيم عما إذا كنا نبدأ بالسياسة أم بالاقتصاد. فلنـبدأ من أي مكان، وفي أي حقل كان. لأن الإصلاح في حقل ما، سوف يحدث مفاعيله في بقية الحقول. والتجربة الناجحة في حقل ما، يمكن الاستفادة مـنها في حقـل آخر، ولكن على سبيل الصرف والتحويل وإعادة الإنتاج أو الإبـداع. وهذا ما يجري في المجتمع التداولي، حيث تنسج بين مختلف الحقول والدوائر علاقات تفاعل وتأثير متبادل.

2 - والإصـلاح هو عملية مركّبة، إذ تشارك فيه قوى وفاعليات أو مشروعيات مختلفة ومتعددة: الإدارات الرسمية، التجمعات الأهلية، الهيئات المدنية، المشاريع الاقتصادية، المؤسسات الإقليمية والدولية، مراكز البحث والدرس. بهذا المعنى، لم يعـد الإصـلاح مسؤولية الحكومات والإدارات الرسمية وحدها، وإنما هو حكومي بقدر ما هي أهلي ومدني. إنه مسؤولية الساسة بقدر ما هو مسؤولية رجـال الأعمال، أو مسؤولية العلماء والخبراء والمثقفين، بقدر ما هو مسؤولية الناس أجمعين. وما أعتقده، أنه لن تنجح أو تنطلق محاولات الإصلاح في العالم العـربي مـن دون تـدخّل رجال المال والاقتصاد. فهؤلاء يحملون مسؤولية مـضاعفة، وذلك على قدر تصدرهم الواجهة العالمية، شأنهم بذلك شأن بقية الفاعلين الاجتماعيين الجدد، كالإعلاميين وأصحاب الشركات ومنتجي برامج المعلومات وتقنيات الاتصال.

مـــن هـــنا الحاجة، في تدارس مشكلات التغيير، إلى ندوات هجينة ومركّبة، يجتمع فيها للمناقشة والمداولة فاعلون من اختصاصات مختلفة ومواقع متعددة، يغـــنون النقاش والدرس والمعالجة، من خلال تعدد وجهات النظر وتباين أنماط الفهم أو استراتيجيات التدخّل أو التوسّط والتدبّر. فقد ولى زمن المثقف الذي يـــنوب عـــن مجـــتمع في رسم خطط الإصلاح والبناء. لأن الأمر أصبح يتم بالشراكة والمبادلة.

3 - والإصلاح لم يعد شأناً وطنياً كما يحسب ديناصورات الفكر القومي أو الديني أو الحداثـــي، وإنما له أبعاده الإقليمية والعالمية، كما تشهد الندوات والمؤتمرات في التنمـــية والمعلومة أو في التربية والإدارة أو في الأمن والطبابة.. ما من ندوة هامـــة تعقد اليوم، في أي بلد عربي، إلا وتتم على نطاق عربي أقليمي أو دولي وعالمـــي، إذ يـــشارك فـــيها مع العرب أوروبيون أو أميركيون أو صينيون أو يابانيون أو أتراك أو أفارقة أو أناس من أميركا اللاتينية...

ولـــذا لا نغرقن، هنا أيضاً، في الجدل العقيم، عما إذا كان الإصلاح ينبع من الداخل أو يُملى من الخارج. هذا هروب من المشكلة أو تهرّب من المسؤولية، في عـــصر يتشكّل فيه واقع كوني يقوم على الاعتماد المتبادل، بقدر ما تتعولم المشكلات والهويات لكي يزداد العالم هجنة واختلاطاً. فكيف إذا كان بعضنا أو أكثرنا لا يباشر بالإصلاح، إلا تحت تأثير الضغوط من الخارج[1].

4 - إذا كـــان الإصـــلاح عملية شاملة، بمعناها الأفقي، لأنها تعني مختلف الحقول والمجـــالات، فإنهـــا شاملة أيضاً بالمعنى العامودي، إذ هي تعني مختلف الشرائح والفـــئات. دون أن يعني ذلك أن الإصلاح هو شأن نخب تفكر وتضع الخطط الـــتي ينفذّها الآخرون، كما كان يجري في المجتمع التقليدي أو حتى في المجتمع

(1) مـــن هنا بات من التبسيط والخداع الكلام على مجتمعات متجانسة أو هويات صافية، ما دام العـــالم يزداد تشابكاً واختلاطاً في أساليب العيش وقيم السلوك وأنماط التفكير ونماذج الثقافة العابرة للقارات والمجتمعات. والأحرى القول بأنه لم يوجد يوماً مجتمع متجانس بالكلية، لأن الـــتجانس والصفاء والنقاء خرافة تقوم على حجب التعدد وطمس الاختلاف والتنوّع. من هنا أصـــبح الإصلاح حاجة عالمية، بقدر ما هو شأن كوكبي معولم. والعاقل أو الراشد وصاحب التدبيـــر، لا يخـــشى الإصـــلاح ولو جرت المطالبة به من الخارج، بل هو الذي يعمل على إصلاح نفسه لكي يساهم في إصلاح غيره.

الـصناعي الحـديث، حيث النخب البيروقراطية أو الأكاديمية تفكّر عن بقية الناس.

إن ثنائـيات النخبة والجماهير أو العامة والخاصة أو الطليعة والشعب، لم تعد فاعلـة في عـصر المعلومة واقتصاد المعرفة، حيث الفرد صار يعتمد على قواه الذهنية ويوظف طاقته العقلية أكثر مما يعتمد على قواه البدنية أو العضلية. نحن ننتقل الآن من المجتمع النخبوي المركزي والبيروقراطي إلى المجتمع التداولي الذي يـتألف مـن حقـول وقطاعات منتجة وفاعلة، بحيث يتبادل فيها الفاعلون الـتأثيرات، علـى سـبيل الإغناء، لكي يتغيروا ويسهموا في صنع التحولات المجتمعية على نحو إيجابي وبناء.

وفي المجـتمع الـتداولي لا يتعلّق الأمر بفرد أو قلة تفكر عن المجموع، ولا هو قضية وصول أفكار النخب من العلماء والخبراء إلى الجمهور الواسع، ذلك أن الجماهير لا تصلح للبناء، وإنما تصلح للتعصّب والتعبئة، لكي تتمثل وتصفق أو لكـي تمارس طقوس العبادة للزعماء أو لكي تكون آلة لإحداث الاضطراب والخراب أو الهلاك.

أمـا البـناء فإنه يحتاج إلى فرد فاعل يمارس حيويته الفكرية لكي يشغل عقله ويـستثمر طاقته على الخلق والإنتاج. بالطبع الفرد يفكر ويعمل بالتنسيق مع فـريق أو مجمـوع يـتداول معـه المعلومات والخبرات، ويشاركه في تقديم الاقتراحات وطرح البدائل أو في صوغ المعالجات وتركيب الحلول[1].

بهـذا المعنى، يمكن القول بأن المجتمع الحيوي والديناميكي أو الغني والنامي، هو الـذي يمـارس فيه الفاعلون حيويتهم الفكرية، بصورة خصبة ومتجددة، في

(1) وإذا كـان الفاعلون في حقولهم وميادينهم، يفيدون من نتاج العلماء والخبراء، من النظريات والأفكار حول الواقع ومشكلاته، فإن هذا النتاج يتغذى، بنوع من الفعل الارتدادي، بدوره من الخبرات والمعارف والاقتراحات لدى الفاعلين في الميدان وعلى أرض الواقع. مما يعني أن عمليات التغيير، أكانت نهوضاً أم — إصلاحاً أم تقدماً أم تنمية، إنما هي ثمرة الشراكة في الإنـتاج بقدر ما هي حصيلة ممارسة المجتمع لحيويته الفكرية، على سبيل الإنتاج والإبداع، أو المناقـشة والمداولة، أو العمل على الأفكار والنظريات المطروحة على الفاعلين من قبل العلمـاء والخبـراء لصرفها وتحويلها إلى أعمال مفيدة أو إلى نماذج حيّة ونابضة يفيد منها الناس عامة.

مختلف الحقول وعلى كل الصعد. عندها يتحول المجتمع إلى مساحة تداولية بين مختلف حقوله وقواه، بقدر ما يشتغل كورشة فكرية لا تهدأ، الأمر الذي يجعله قـــادراً على تجديد قوالبه ونماذجه أو أساليبه ووسائله، بقدر ما يحيله إلى فضاء فكـــري يفيض بالآراء والتصورات والاقتراحات التي تتفاعل على نحو خلاق على طاولات المناقشات والمداولات التي يمكن أن تجري على جميع المستويات وفي جميع الاتجاهات، سواء أفقياً بين حقول المجتمع وقطاعاته، أو عامودياً بين المواطنين أفراداً وجماعات وبين المؤسسات السياسية والإدارية.

وهكـــذا لا إصـــلاح مـــن غير إتقان لغة الخلق والابتكار. فإذا أردنا تفعيل مجتمعاتنا، الأحرى التعامل مع الناس بوصفهم فاعلين منتجين، أو مبدعين، كل في حقـــل عمله وفي مجال اختصاصه. حتى الذين نعتبرهم عاطلين أو مهمشين، هـــم فاعلـــون أكثـــر مما نحسب، ولكن بصورة سلبية أو مخرّبة، كما تشهد التجارب.

5 - وأخيراً، فإن الإصلاح هو عملية دائمة لا تتوقف، لأنه لا حلول نهائية في هذا الزمن المتسارع، حيث المعطيات والمعلومات تتغير على نحو يملي باستمرار تغيير الرســـائل والأدوات. لـــيس هذا فحسب، بل إن فعل التفكير والعمل بصورة منتجة وخلاّقة، إنما له مفاعليه التحويلية على الثوابت والأهداف نفسها.

هـــذا شـــأن من يفهم واقعه ويندرج في زمنه لبناء حاضره: أن يقيم مع فكره علاقـــة حـــيّة ومتحـــركة، تطـــال الأصول والثوابت بقدر ما تطال الهويات والخصوصيات.

نعـــم ثمة ثوابت، ولكن العلاقة معها، لا يمكن إلا أن تكون متغيرة، سواء تعلق الأمـــر بالله أم بالعقل، بالنصوص أم بالقوانين، بالتراث أم بالحداثة، مما يعني أن القـــضية ليست الحفاظ على الثوابت أو صون الهويات عن المتغيّرات. بالعكس هـــذه هـــي المشكلة في عصر المتغيّرات. وأما القضية فهي القدرة على صرف الـــثوابت وتـــصريف الهويات للمشاركة الإيجابية والبنّاءة في إدارة التحوّلات الجارية والمتسارعة.

مـــن هـــنا فإن الإصلاح يحتاج بناؤه واختراع حقوله ومفاهيمه أو مؤسساته وأدواتـــه، إلى مـــنطق تحويلي بقدر ما يحتاج إلى عقل تداولي، إذ هو عملية لا

تـــتوقف علـــى سبيل التوسيع والتطوير أو التعديل والتغيير، للأطر والصيغ أو للمفاهيم والمعايير أو للوسائل والأدوات[1].

هـــذا المنظور للمجتمع، بعقل تداولي ومنطق تحويلي، يتيح إصلاح المؤسسات الـــسياسية، بـــتجديد الممارســـة الديموقراطية وإغنائها بعناصر وآليات وأبعاد وقـــوى، جديـــدة، حـــية وفعالة، بقدر ما يوسع من أطر التعبير والتمثيل، أو يضاعف إمكانات الرقابة والتدخل والمناقشة للقضايا والمشكلات، من جانب المواطنين وهيئات المجتمع.

مـــن هنا نحن إزاء شكل جديد من أشكال الديموقراطية، يتجاوز الديموقراطية الكلاســـيكية، للناخب والنائب والكاتب، التي هي كمية، عددية (انتخابية)، نخبوية، موسمية، وحيدة الاتجاه، نحو ديموقراطية جديدة تتيحها ثورة المعلومات والاتـــصالات ومجـــتمع الـــصورة والمشهد، هي ديموقراطية يومية، متواصلة، تعدديـــة، نوعـــية، تشاركية... هذه الديموقراطية "الارتدادية التبادلية"، كما يـــسميها بيار روزانفالون، هي ما يمكن تسميته ديموقراطية، ميديائية، مركبة، إيجابية، بنائية تداولية، وإذاً فعالة.

وفـــضلاً عن ذلك، فهي ذات بعد عالمي. ذلك أنه ما من مجتمع، بوسعه بعد الآن أن يعيش بعزلة عن العالم، وما من حاكم أو طاغية بإمكانه أن ينفرد ببلده لكي يحكمه كما يشاء. فكل ما يجري اليوم، في بلد من البلدان، يقع تحت نظر العـــالم، الـــذي بـــات يملك حق التدخل، خاصة في ما يتعلق بمسألة الحقوق والحريات، أو بتلوث الأرض والبيئة، ليس فقط من جانب الدول والحكومات

(1) لعلـــنا دخلـــنا في عصر أنصاف الحلول وأشباهها، ولذا فالأجدى أن نفكر ونعمل على سبيل التطعـــيم والتهجـــين. فالهجنة ليست من قبيل التلفيق أو التزوير أو المسخ. بالعكس، إنها ما ينطوي عليه الواقع من التعدد والتنوع والتلاقح المخصب والمغني، مما يحجبه أصحاب الفكر الآحـــادي والاصطفائي، بتهويماتهم الذاتية وتشبيحاتهم الأيديولوجية. فلا نحلمن إذن بفراديس أرضية أو بنماذج كاملة أو بعصور ذهبية. فالحلول القصوى أو النهائية، لم توجد في يوم من الأيام. لا في صدر الإسلام، ولا في عصر الرشيد. لا في عصر الأنوار ولا في زمن لينين وستالين. وبالطبع فهي تبدو الآن كسراب، بل هي أشباح مرعبة تنفتح معها أبواب جهنم، في زمـــن بوش وأعدائه، أعني نظراءه من الأصوليين الجهاديين الذين هم شركاؤه المتواطئون معه على ما يتوطأ الضد مع ضده، لإحداث الهلاك والدمار.

التي لا تمتلك كثيراً من المصداقية، بل من جانب المؤسسات والهيئات الإقليمية والدولـــية المدنـــية، التي تهتم بالدفاع عن الحقوق والحريات، بوقوفها ضد ما يتعـــرض لـــه الأفراد والجماعات، في أي مكان من الأرض، إلى الانتهاكات والمظالم وأعمال الإقصاء أو الاستئصال والإبادة.

ثالثاً: في النماذج الفاعلة

1 - في ضوء ذلك يتغيّر النموذج والمثال.

فالمجتمعات العربية وغير العربية، لم تعد بحاجة إلى دعاة ومصلحين أو إلى علماء وفلاسفة ينوبون عنها في التفكير. لا نحتاج إلى نماذج لوثر وكالفن أو ديكارت وفولـــتير، فكيف بنماذج إبن رشد وإبن خلدون، على ما يدعو مثقفون عرب يأتون بعد فوات الأوان بقرون، لكي يشهدوا على قصورهم المعرفي، وعلى ما يشهد آخرهم الذي يرى بأن العالم العربي محتاج إلى واحد كاسبينوزا.

بالطـــبع نحن نقدّر هؤلاء الفلاسفة ونقرأ نصوصهم، لا لكي نقلّدهم ونحتذي نمـــاذجهم، بـــل لاستثمار أعمالهم، كإمكانات خصبة، لإنتاج صيغ ومفاهيم جديدة. والأهم من ذلك، أننا لا نحتاج إلى مثقفين يفبركون الأوهام ويلفقون النظـــريات، لإنتاج الهزائم والكوارث أو لتدمير القضايا والشعارات أو لحصد الإخفاق والإحباط، على ما يفكر وينظّر مثقفون غربيون وعرب.

في أي حال، إن العالم لم يصبح مع الشعراء والفلاسفة والفقهاء أكثر جمالاً ولا أكثر حكمة أو أكثر تقى. لعل العكس هو ما يحصل ويفاجئ.

وهذه عاقبة الحلول محل الناس في التفكير والحلم أو في تخيّل المهام والأدوار أو في ابـــتكار الحلـــول والمخـــارج: شعراء لا يتّسع صدر الواحد إلا لسواه، أو فلاسفة يستبعدون كل من لا يفكر على شاكلتهم، أو فقهاء يصدرون فتاوى تدمر التقوى. فكيف يصلحون أمة أو مجتمعاً؟ من هنا السؤال: من يصلح من؟ ومن يغيّر من؟ فالأولى بالنخب التي تدعي تغيير الناس وإصلاحهم، أن تنصت إلـــيهم، لكـــي تـــتعلم مـــنهم وتتـــبادل معهم، علّ ذلك يسهم في تغييرها وإصـــلاحها... ما نحتاج إليه فاعل قادر، حيثما كان، على التفكير والابتكار بطرح الأفكار واقتراح الحلول.

مـــثل هذا الفاعل قريب من النموذج الذي يجسّده مانديلا الذي غادر الحكم بعـــد انـــتهاء ولايته مع تمسك شعبه به. عندنا يطرح الرئيس الاستقالة لكي تتمسك به الجماهير الشكلي.

أو قريب من نموذج مهاتير محمد الذي كان يقول: لا تنمية بلا ابتكار أفكار، والـــذي كان يمارس تفكيره بصورة حرّة وحيّة، مثمّرة وفعّالة، أكثر بكثير من المفكـــرين المحتـــرفين الذين يتصدرون الواجهة الفكرية على الساحة العربية.

كـــذلك ما نحتاج إليه قد يكون أقرب إلى نموذج عبدالله بدوي، خليفة مهاتير محمـــد، الذي قدّم للعرب عشر نصائح، كان أولها "تقوى الله"، مما يعني أنه لا مـــصداقية لـــنا في مـــا ندعيه من الحفاظ على الخصوصية والتراث أو الوفاء للأصول والسلف.

وقد يكون النموذج الفاعل قريباً من المثال الذي يجسّده أردوغان ورفاقه الذين لم يختاروا الإسلام عنواناً لمشروعهم. فلم يستخدموا تسمية الحكومة الإسلامية أو الجمهـــورية الإســـلامية أو الإخوان المسلمين أو حزب الله، بل استخدموا عـــنواناً آخر هو "العدالة والتنمية" لملء الشعار العريض الذي استهلك وبات خاوياً، أو الذي هو بداهة تحتاج إلى من يبني بها.

ولا أنـــسى بالطـــبع بيل غيتس الذي من الظلم له أن نقارنه بالمثقفين العرب والغربيين الذين ينتقدونه من حيث علاقته بالحرية والحقيقة والعدالة؛ وأعني بهم الـــذين يحدثوننا عن وحشية السوق ووحدانية الاقتصاد وعنف العولمة والشرّ المحـــض وأعداء التقدّم، كما يكتب مؤخراً الفيلسوف سلافوج زيزك. نعم إن الجوعى والمشردين والمهمشين والمخصيين[1] لن ينتظروا الفيلسوف زيزك، بل ينتظرون بيل غيتس الذي سوف ينصرف لمؤسسته الخيرية بعد أن يتبرع بالقسم الأكبر من ثروته لهذه المؤسسة. ولن ينتظروا أصحاب الأحلام المستحيلة الذين هـــم نقيض ما يدعونه، من حيث علاقتهم مع الديموقراطية والثروة، إذ هم في مؤســـساتهم وتـــصرفاتهم الـــوجه الآخر للطاغية بعقلهم النخبوي والمركزي والأحـــادي، وهـــم الأكثر جشعاً في علاقتهم بالأموال والثروات، وهـــم الأكثر

(1) نعم ما يزال يوجد مخصيون في هذا العصر! فيا لفضيحة إنسانيتنا وأكذوبتها.

تكالباً على نشر أسمائهم ونصوصهم حيث استطاعوا، وبأي ثمن كان. وأخيراً ما نحتاج إليه قد يكون قريباً من مثال كارلوس غصن اللبناني الفرنسي المتعدد الجنسية والإقامة والمهمة، الذي يدير بنجاح شركتي رينو ونيسان.

ومعنى القول أن ما نحتاج إليه من وراء التعصب أو التمسك بهذا المذهب أو ذاك النموذج، هو القدرة الدائمة على الابتكار والتجديد في العناوين والمفاهيم أو النماذج والمدارس. ومعنى المعنى أن الحاجة الماسة والحيوية هي إلى فاعل شعاره: أنا أخلق وأبتكر إذاً أنا أكون.

خلاصة القول: إن أعمال التغيير، أيّاً كانت التسميات، إنما تحتاج، سواء من حيث التصورات والآليات، أو من حيث صيغ العقلنة واستراتيجيات التدخل، إلى عدة فكرية جديدة ومغايرة، من مفرداتها التواضع الوجودي، التقى الفكري، سياسة الاعتراف، البُعد المتعدد، عقلية الشراكة، الهويات الهجينة والمفتوحة... وسوى ذلك مما يحتاج إلى فكر تركيبي، ومنهج وسطي، ومنطق تحويلي، وتوجه كوكبي، وقدرة على الخلق، وكل ما أدرجه تحت مصطلح "العقل التداولي".

الشراكة: أعطالها ومحركاتها

كثيراً ما يجري الحديث عن مواهب الزعماء وقدراتهم الخارقة، من جانب المؤيدين وسائر المنخرطين في الاحزاب السياسية والمنظمات الايديولوجية. والسؤال هنا حول وجوه هذه القدرة؟ قد يكون الزعيم الذي يصفه الانصار والمتحزبون بالقائد او البطل صاحب ثورة او انقلاب سياسي؛ وقد يكون قادراً على ادخال معارض الى السجن او الايعاز بقتله؛ وقد يكون قادراً على خوض حرب خاسرة وغير محسوبة؛ وإن لم يكن، فهو قادر دوماً على إلقاء خُطب مطوّلة حافلة بالشعارات المستهلكة، لكي يشن فيها حرباً ايديولوجية على خصومه في الداخل، او على أعدائه في الخارج. والزعماء يخشون عادة خصومهم في الداخل اكثر مما يخشون اعداءهم في الخارج.

مثل هذه الاعمال هي اكثر ما يقدر عليه الزعماء، ولكنهم لا يقدرون على محاربة الفساد ووضع حدّ للمافيات، كما لا يقدرون على اجتراح الامكانات لتأمين فرص العمل وأسواقه وشبكاته، أو لتحسين شروط العيش لأوسع الفئات من الناس، كما تشهد الامثلة والتجارب، حيث سادت وما تزال تسود أنماط الزعماء الملهمين والقادة التاريخيين في غير بلد أو قارة.

مما يعني أن الكلام على السلطة المطلقة التي يملكها الحكام هو حديث خرافة. ذلك أن السلطة، وكما تفهم اليوم، لا تقتصر على الدولة بأجهزتها الأمنية ومدوناتها الدستورية او القانونية. وإنما هي سلطات كثيرة ومتعددة، موالية او معارضة، فرعية، ميدانية، قطاعية، تحتية، غير مرئية... منبثة في الفضاء الاجتماعي، بكل شبكاته وأنماط علائقه، طولاً وعرضاً، أفقياً وعامودياً، وفي مختلف الدوائر والحقول والمهن، وعلى جميع الصعد والمستويات.

وهكذا، لكل سلطته داخل المجتمع، أكان عائلة أم طائفة أم شركة أم حزباً أم منظمة أم أية مؤسسة اجتماعية او اقتصادية او سياسية او ثقافية...

بهذا المعنى تصبح السلطة السياسية جماع كل السلطات، بقدر ما تتوقف قوة الحاكم وإمكاناته على قوة مجتمعه وقدراته.

فـــإذا كـــان المجتمع يمارس حيويته الفكرية والسياسية، تصبح مهمة الاصلاح والتحديث أيسر وأسرع، بقدر ما يشتغل المجتمع، في كل سلطة من سلطاته أو قوة من قواه الفعالة، كساحة للتداول، بحيث يتحول الى ديناميكية علائقية من التأثيرات المتبادلة والتفاعلات المثمرة بين أفراده وجماعاته.

لم أجـــد أفـــضل من هذا المدخل للحديث عن الشراكة التي هي واحدة من القـــضايا الراهنة، في مواجهة لغة الانفراد والصدام. وهي كسواها من القضايا مثار التـــباس وجدال، على ما يتعامل معها الذين يتصورونها مجرد مراعاة نسب التمثيل العـــددي، بـــين فئات المجتمع وطوائفه في المناصب والمراكز النيابية أو الحكومية أو الإداريـــة في بلد من البلدان. وفي هذا قدر كبير من الخداع والتبسيط[1]. ذلك أن الشراكة الفعّالة ليست قضية أعداد وحصص، بل هي في طرح افكار حيّة ونابضة تستوعب الحراك الاجتماعي، او في صوغ خطط وبرامج تؤول الى تحسين شروط

---

(1) علي ما يحتدم الجدل في لبنان حول ما سمي الشراكة في حكومة الوحدة الوطنية. ذلك أنه لو تشكلت، وبرضى الجميع، حكومة لبنانية جديدة تؤمّن نظام المحاصصة الطائفية، فإن الوضع لـــن يتغيـــر نحو الأفضل، لكي يعود على البلاد نماءً أو تقدما وازدهاراً، اذا لم يكن الفريق الحـــاكم يملك اولاً ارادة الاصلاح، على أسس وطنية، واذا لم يكن، ثانياً، قادراً على ابتكار أطر العمل الاصلاحي ومجالاته وادواته او على تحريك قواه وفاعلياته الديناميكية.

وشاهدي على ذلك، أنه في بداية الستينات من القرن الفائت، وفي لبنان بالذات، قد جرت في العهـــد الشهابي محاولة للاصلاح كانت ناجحة وذات نفع عميم. والذي وقف وراءها هو من جهـــة ارادة الرئيس الراحل فؤاد شهاب (1958-1964)، ومن جهة اخرى عقلانية الفرنسي الأب لوبـــريه الذي استقدم من باريس لهذا الخصوص، لأن العقل السياسي اللبناني، ما زال عاجـــزاً عن استحداث اجراءات اصلاحية جدية ومجدية، بقدر ما يشتغل بعقلية المحاصصة الطائفية على حساب المبادئ الوطنية والقيم الديموقراطية.

ومـــع أن المـــشاركة العدديـــة لـــم تكن يومئذ متحققة، كما هي عليه اليوم، فإن الاجراءات الاصـــلاحية قـــد عادت بالفائدة على شرائح واسعة من الشعب اللبناني، وبخاصة على الذين ينـــتمون مـــنهم الى الطائفة التي كانت تشكو من الحرمان او الاقصاء. وبالعكس، قد تتأمن المـــشاركة الصورية فيّ عدد الوزراء او النواب او الكوادر العليا، ولكن دون أن يكون لذلك مفاعـــيله الايجابـــية او البـــنّاءة على مستوى الشرائح العريضة والأجيال الشابة، إذا لم يكن المسؤولون ورجال الحكم قادرين على اجتراح المعادلات أو صوغ برامج للإصلاح والتنمية، قابلة للصرح والتحويل.

الوجـــود علـــى مستوى بلد او وطن... من غير ذلك تمسي الشراكة شعاراً خاوياً، ويكـــون مصيرها مصير سائر الشعارات المطروحة منذ عقود، كالعروبة والوحدة او الاشتراكية والعدالة او الديموقراطية والحرية او الاسلام والحاكمية، اي تستهلك لتتحول الى غطاء لطمس الوقائع الصارخة او للتستر على الانتهاكات والاعمال غير المشروعة.

هذه هي المشكلة، انها تكمن بالدرجة الاولى، في العوائق والاعطال التي تحول دون القـــيام بأعباء الاصلاح وتكاليف الشراكة، وكما يتجسّم ذلك في العلل التي تنخر في بنيان العديد من الدول والمجتمعات، ومن ابرز هذه العلل المعطّلة:

- الرؤى الطوباوية التي ينـــزع اصحابها الى عبادة الافكار والاسماء، بالتعامل مع الـــشعارات والعناوين كمثل مجردة او ثوابت مطلقة او اقانيم مقدسة، فتكون الحصيلة التعثر او الاخفاق على ارض الواقع الحي، الزاخر والمضطرم بالتعقيدات والصراعات او بالمتغيرات والمفاجآت، الامر الذي يفضي الى اعادة انتاج الاوضاع المـــراد تغـــييرها، بشكلها الأسوأ. ذلك أن الافكار الحية والمثمرة، هي التي يجري العمل عليها في أتون التجارب، لصرفها وتحويلها الى أمكنة للتبادل او الى أسواق للعمل او الى نماذج في التنمية او الى مساحات من الحرية..
- الذرائع الايديولوجية، وهي حُجَج مموّهة او مغلوطة او واهية ترمي الى التغطية علـــى الدوافع الحقيقية وتمويه المشكلات الفعلية، كما ترمي الى تبرير الاخطاء والمساوئ، باتهام الغير ورمي المسؤولية عليه، وذلك للهروب من استحقاقات الداخل، باختراع اعداء في الخارج، على ما هو دأب الانظمة الثورية والنماذج العقائديـــة. والحـــصيلة تفاقم المشكلات واستعصاء الحلول. هذه العلّة، التي تـــضرب في المجـــتمعات العربية، تمنعها من درس ازماتها وتشخيص واقعها من اجل ايجاد المخارج وابتكار الحلول والبدائل.
- الـــتهويمات الـــبطولية وهـــي تتجسم في ظاهرة القائد الملهم والزعيم الأوحد والبطل المنقذ الذي يفكر ويقرر عن المجتمع والأمة، والذي عليه يتوقف مصير الـــبلاد والعباد. ولذا فالابطال الملهمون لا يحتاجون الى من يفكر ويحلل، لكي يخلـــق ويبتكر او لكي يفهم ويدبّر، وإنما يحتاجون الى أناس هم أعداء للفهم، يتقنون التصديق والتصفيق والتهليل، كأرقام في حشد أعمى، او كأبواق ترجّع صـــدى الخطب والكلمات، او كدمى يتم تحريكها عند إعطائها كلمة السر

الذائــع او تلقـيها الامر الجازم، على ما تتصرف الكُتل والحشود ازاء ابطالها وقادتها.

هــذه علــة فتاكة تولد ما تعاني منه مجتمعاتنا من التخلف والفقر والتسلط والاســتبداد. والمعالجة هي بعودة الامور الى نصابها الوجودي، اي باضطلاع المرء بمــسؤوليته والعمل بمزيته، بوصفه كائناً يتمتع بالقدرة على التفكير بصورة مستقلة وحرة، بالعقل المتفتّح والرؤية الواسعة والمساءلة النقدية والمقاربة العقلانية والفكرة الفعّالة، وعلى نحو يتيح له أن يبني نفسه لكي يشارك في صنع مصيره وبناء مجتمعه او عالمه بصورة غنية وايجابية. ومن يتخلى عن استقلاليته كذات مفكّرة، ولا يمارس حيويته الفكرية، تُنتهك كرامته ويفقد مروءته، لكي يمارس وجوده بصورة فقيرة او جامدة او هامشية او على سبيل التبعية وربما العبودية...

- البنــية المركــزية العامودية، ومؤداها أن أعمال الاصلاح والتغيير هي خطط وبــرامج يــرسمها قائــد ملهم او نفر من الخبراء في اعلى الهرم، لكي تنــزل هبوطاً، من مرتبة الى اخرى وصولاً الى المراتب الدنيا... وبحسب هذه العقلية الفوقــية، النخــبوية والبيروقراطية، يُنظر الى الناس بوصفهم مجرد موظفين او ادوات يــنفذون الانظمــة والقوانين، تماماً كما يجري التعامل معهم، بحسب المنظور العقائدي، بوصفهم مؤمنين، يطبقون الاحكام والتعاليم.

هــذا الــنمط من التفكير يجعل من الشراكة حديث خرافة، ذلك ان الشراكة المنــتجة، في اي بلــد من البلدان، إنما تعمل وتثمر عندما يتحول المجتمع الى ورشــة، لا تهدأ، من التفكير الحي والعمل الخصب، وذلك في مختلف حقول المجــتمع ودوائره، كلّ في حقل اختصاصه وبحسب موقعه. والشراكة تتحقق هنا، سواء عبر الانخراط في الانتاج، او عبر المساهمة في المداولات والمناقشات، الآيلة الى تشخيص المشكلات واقتراح المعالجات.

وذلك يحتاج بشكل خاص الى تجاوز مفاهيم المؤمن والموظف والمواطن، المتلقّي او الــسلبي او المتفرج، من خلال مفهوم الفاعل البشري الذي يمارس حيويته الفكرية ويستثمر طاقته الذهنية على الخلق والابداع، على سبيل الإغناء واعادة البــناء، مــن خلال فكرة، ليست بالضرورة كبيرة وخاوية او مستحيلة، بل مبتكــرة او طريفة بقدر ما هي فعّالة وقابلة للتداول على أرضها وفي محيطها.

ومن هذا شأنه، يكون منتجاً بقدر ما هو مختص وصاحب خبرة؛ ويكون فاعلاً ومؤثـراً بقـدر ما هو مشارك في عمليات الانتاج والانماء والبناء. فالافكار الخـصبة والخارقة لا تهبط دوماً من الأعلى، وإنما تنبثق أيضاً من الأدنى، ومن وحي المعايشات الوجودية والتجارب الفذّة او الخبرات الميدانية.

- الوصـاية الفكـرية من جانب المثقفين الذين يدّعون امتلاك مفاتيح النهوض والاستنارة والاصلاح... هذا وهم كبير كشفته التجارب المريرة، اذ المجتمعات سـارت وتغـيرت بمـا يخالـف تنظيرات المثقفين وبرامج الثوريين ودعوات المناضـلين. بالطبع، إن المجتمعات تحتاج الى علماء وفلاسفة ينتجون معارف حـول العـالم، ولكنها لم تعد تحتاج الى مثقفين يلفّقون النظريات المزيفة او يفبركون الاحلام المستحيلة، لحصد مزيد من الخسائر والكوارث؛ كما لم تعد تحـتاج الى قادة ملهمين يعبئون الحشود الهائجة والجموع الموتورة لانتاج مزيد من الصراعات الطاحنة والحروب المدمّرة.
- ولـذا لا تحتاج الى النماذج النضالية التي قضت اعمارها وراء وعود مستحيلة وقضايا خاسرة، كما شأن الذين يحدثوننا عن وحشية السوق، او عنف العولمة او الشر المحض او معاداة التقدم.

بالطبع كل مجتمع يخلق نماذجه، ولكن ما تحتاج اليه المجتمعات اليوم هو قريب مـن الـنماذج الفاعلة والمؤثرة، التي يمثلها فاعلون، ديموقراطيون، مبدعون، خارقون، كوسموبوليتـيون، مـثل نلسون مانديلا او ميلدا غيتس أو رجب أردوغان او عبدالله بدوي او كارلوس غصن، ولا أنسى البنغالي محمد يونس الذي نال مؤخراً جائزة نوبل للسلام، وأمثالهم من أصحاب المبادرات الحيّة والاستراتيجيات الفعّالة في التدخّل، التي تسهم في تحسين ظروف الحياة والعمل والخدمات، في غير مجال، بقدر ما تعود بالفائدة على عموم الناس، وبالأخص على المهمّش او المستبعد او العاطل او غير المنتج...

هذه أبرز العلل التي تعطل ارادة الاصلاح والتغيير، الامر الذي يحتاج الى عدة فكـرية جديدة سواء من حيث الرؤى والمفاهيم، او القواعد والآليات، او الطرق والوسائل، او من حيث النماذج البشرية الناشطة والفاعلة.

خلاصة القول: إن التغيرات الجارية، المتسارعة والجذرية، تعيد تشكيل العالم، بمفاهـيمه ومحـركاته وقواه وأدواته واللاعبين على مسرحه، وعلى نحو تتغير معه

مفاهيمنا للمجتمع والسلطة او للديموقراطية والتنمية، بقدر ما يتغير فهو منا للتغيير والتحديث..

هـــذا واقع يجدر أخذه بعين الاعتبار، من جانب الدول والمجتمعات والهيئات المدنـــية الـــساعية الى الاصـــلاح والـــتحديث، لمـــواجهة التحديات الحضارية والاستحقاقات الوجودية.

هـــذا شأن المجتمع، على ما يفهم ويتشكل اليوم، بفضائله ونسيجه وأنظمته وقـــواه وأدواته. انه المجتمع التداولي، الآخذ في التشكّل كما أوثر تسميته، بمعطياته وملامحه وأبعاده الآتية:

1 – الأول أنـــه لم يعد مجتمع نخبة وجمهور او خاصة وعامة بقدر ما أصبح مجتمع حقول منتخبة وقوى فاعلة، هي مشروعيات متعددة تحت خيمة الشرعية التي تمثلها الدولة بأجهزتها وقوانينها والتي هي، بالطبع، قابلة للتعديل والتغيير.

2 – الثاني أن كل فرد فيه فاعل ومؤثر. ولذا فهو مشارك، انطلاقاً من حقله وموقعه، في اعمال التغيير والبناء، بقدر ما هو مختص ومنتج وذو خبرة أو كفاءة.

ولـــذا فالسلطة في المجتمع التداولي، ليست هي التي تقولب المجتمع بقدر ما هي حصيلة الانشطة والجهود والانجازات لكل الحقول المنتجة والسلطات الفرعية.

3 – إن العملـــية الديموقراطية، التي تفيد من ثورة المعلومات والاتصالات وسائط جديدة يمكن أن تمارس بصورة يومية، تواصلية، فعالة، بقدر ما يتحول المجتمع الى مساحة للتداول او الى امكنة للتبادل. الامر الذي يفتح الامكان، لكي تبنى العلاقات بين المنخرطين في لعبة التنافس على المكاسب والمواقع، لا بلغة الامر والاقصاء، ولا بمنطق التلقي والتنفيذ، بل بلغة الحوار والشراكة والتبادل، بقدر ما يفكر الفاعلون بمفردات التعدد والتركيب او يعملون بلغة التحول الخلاق.

4 – أخيراً، وخاصة، فالافكار والتصورات، بالمنظور التداولي، ليست مجرد قوالب جامدة يمكـــن اســـتيرادها، او نماذج جاهزة ينبغي احتذاؤها بحرفيتها وحذافيرها؛ وإنما هي مـــركبات مفهومـــية، مـــرنة ومتحركة، تحيل الى شبكات من العلاقات المتغيرة والـــتأثيرات المتـــبادلة، بقـــدر مـــا تخضع للتجديد والتحديث، على سبيل الاغناء والتطوير، في ضوء التجارب الجديدة، او في سياق الخصوصيات الثقافية والمجتمعية.

العالمية الكوكبية

I- الكونية الجديدة...

لا مــراء أن العالمــية أو الكونية ليست ظاهرة جديدة، وإنما هي قديمة، كما يشهد التواصل بين البشر أو التفاعل بين الحضارات منذ أقدم الأزمنة.

وإذا كـــان المصطلح بصيغته الأجنبية (كوسموبوليتي)(1) قد نشأ مع اليونان، لكي يعني بحرفيته المرء الذي يهوى السفر أو يهتم بالعالم الخارجي للغرباء، فإن هذا المــصطلح قـــد خضع للتطور، وعرف فترات انتشار وازدهار، كما عرف فترات كـــسوف وأفـــول، ولـــذا فهو متعدد الدلالة، وربما ملتبس المعنى، وذلك بحسب اختلاف التجارب وتداخل الأزمنة.

فالعالمـــية قد تعني من جهة أولى وحدة الجنس البشري كما تتجسد في القيم الكونية الجامعة، وأخصها بالذكر المعيار المثلث لمثل الحق والخير والجمال، أو كما تعبر عنها قيم التكافل والتضامن والتآزر بين البشر، بصرف النظر عن خصوصياتهم وانتماءاتهم.

---

(1) راجـــع شرحاً لمصطلح "الكوسموبوليتية" بقلم كاترين هولبان، مجلة العلوم الإنسانية، العدد، 158، آذار 2005، بـــاريس. وفيه تلاحظ كاتبته إلى أن العددين من المهتمين بدرس الواقع العالمـــي الجديد، إنما يتحدثون عن أشكال جديد من الكوسموبوليتية، كل على طريقته، ويأتي فـــي مقدمتهم عالم الاجتماع الألماني أولريش بك. بهذا يتراجع بك عن خشيته من العولمة أو يغير موقفه السلبي منها. صحيح هو يختار مصطلح "الكوسموبوليتية الجديدة" مقابل العولمة، ولكـــن هذا الشكل الجديد من العالمية هو في النهاية ثمرة للعولمة. راجع الحوار الذي أجري معـــه تحت عنوان "الوجه الجديد للكوسموبوليتية"، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 176، تشرين الثاني، 2006. وفي هذا السياق يندرج مفهومي للعالمية الجديدة، كما عبرت عنه، لأول مرة فـــي كتابـــي: حديث النهايات، 2006، وخاصة في كتابي "الإنسان الأدنى"، الحاجة العالمية للإصلاح، المواطن العالمي، 2005.

وقد تعني من جهة ثانية إمكان اللقاء مع الآخر، كما يتجسد في نشوء فضاء حضاري يتيح التعايش بين خصوصيات متنوعة ومتعددة من حيث اللغة والعرق أو الدين والثقافة...، كما يمكن أن تعني، على مستوى الفرد، الشخص الذي يمارس هويته بصورة مركبة، بالانفتاح على مختلف الثقافات. وهذا هو مؤدى الإنسان العالمي أو المواطن العالمي. فهي بهذا المعنى ليست مجرد قبول الآخر، وإنما تشير خاصة إلى من يمارس هويته بصورة تعددية، هجينة، متحولة، من حيث عناصرها وروافدها وأطوارها...

وقد تعني العالمية قدرة إحدى الخصوصيات أو الدول على الانتشار والتوسع، خارج بيئتها الأصلية، سواء على الصعيد الثقافي أو الاقتصادي أو السياسي أو العسكري.. بهذا المعنى تشكل العالمية نوعاً من الإمبريالية التي تمارسها إحدى الخصوصيات. وفي النهاية لا وجود إلا للخصوصية على أرض الواقع. والخصوصية العالمية هي التي تخلق، باختراعاتها وإبداعاتها، مداها الوجودي ومجالها التداولي خارج حدودها الجغرافية.

وأخيراً قد تعني العالمية، وكما صاغها الفيلسوف الألماني كنط في عصر "الأنوار" تحالفاً بين دول، أو حقاً كونياً ينظم علاقة مواطنين في دولة مع بقية الدول، ويتيح لأي مواطن في أي دولة، أن يتجول في أي منطقة من العالم من دون أن يعامل كعدو. ولعل حلم كنط هذا قد تجسد في نشوء الأمم المتحدة وشرعة حقوق الإنسان.

في ضوء هذه التمييزات يمكن القول بأن بغداد العباسية كانت مدينة عالمية من حيث كونها شكلت، في عصرها، فضاء حضارياً واحداً تعايشت فيه أعراق وثقافات وديانات وأنماط عيش متعددة، ومختلفة، أو متعارضة. ولا مراء أن هذه العالمية كانت تشوبها ثنائيات الفصل والتمييز بين المؤمن والكافر أو المسلم والذمي أو العربي والشعوبي...

وهذا شأن المدنية اليونانية، حيث ابتكر مصطلح الكوسموبوليتية، فخطابها حول الإنسان يعلن الوحدة الكلية الجامعة، بقدر ما يستبطن التمييز والاستبعاد. ومن المفارقات في هذا الخصوص أن فلاسفة اليونان هم أول من عرّف الإنسان تعريفاً عقلانياً جامعاً، بوصفه ناطقاً أو عاقلاً، في حين أن مدنيتهم قامت على التمييز والإقصاء، من خلال ثنائية السيد والعبد، أو اليوناني والبربري.

وفي الأزمنة الحديثة مورست العالمية، من خلال التوسع الأوروبي بمختلف أشكاله وأطواره. والنموذج الأبرز تمثله الثورة الفرنسية التي مارست كونيتها من خلال شعارها المثلث القيمة، الحرية، والإخاء، والمساواة، والذي شكل هو الآخر عنصراً أساسياً في صياغة شرعة حقوق الإنسان. هنا أيضاً مارست الخصوصية الفرنسية عالميتها بوجهيها، الثقافي والإبداعي والتحرري من جهة، والإمبريالي العسكري من جهة أخرى، بغزوها لغيرها من البلدان. ومن المفارقات كذلك أن فرنسا ترفع اليوم شعار التعدد وتحتمي بخصوصيتها في مواجهة اكتساح النموذج الأمريكي للحياة والثقافة، متعاملة مع إمبريالية الدولة العظمى كما كانت تتعامل معها مستعمراتها.

وهذا شأن الخصوصية الروسية: لقد مارست عالميتها التحررية الاشتراكية، بمقولاتها الماركسية وأحزابها اللينينية وشعارها البروليتاري وسلاحها الكلاشنكوفي، ولكنها تحولت في الممارسة نظاماً شمولياً ومعسكراً سوفياتياً، لكي تشكل امبريالية اشتراكية مضادة للإمبريالية الرأسمالية.

في أي حال، إننا نشهد اليوم بلورة عالمية جديدة تتشكل على نحو مغاير من حيث حقولها ومعانيها وأطرها ومناهجها وآلياتها. إنها كونية مغايرة تتجاوز عالمية عصر الصناعة والثورة والحداثة الأولى، مع الدخول في عصر العولمة والمعلومة والثورة التقنية. فمع الواقع الافتراضي والعصر الرقمي، تنهار الحدود العازلة بين الدول والمجتمعات، لمصلحة ما هو سيال وعابر أو هجين ومتعدد أو متحرك ومتحول من المعلومات والرموز والأموال والخبرات والأشخاص والأساليب الأنماط... من هنا نشوء مصطلحات جديدة، تغني مصطلح العالمية والمواطنة مثل الكونية، الكوكبية، الشراكة، الحاكمية، الاعتماد المتبادل، حق التدخل، الفعل التواصلي أو العقل التداولي...

وفي نظري، إن بعض مدن الخليج العربي، كأبو ظبي ودبي، تقدم اليوم، من حيث مؤسساتها وتقنياتها وتجارتها الدولية ومنتدياتها العالمية والعاملين فيها وشبكات علاقاتها مع الخارج، نماذج لمدن كوسموبوليتية معاصرة، تمارس كوكبيتها أو كونيتها، أكثر من مدن غربية كباريس ولندن ونيويورك.

II- الإنسان الكوكبي

في أي حـــال إن البـــشرية تنخـــرط، اليوم، في واقع كوني جديد، آخذ في التشكل، بأطره العالمية وبنيته الكوكبية، وكما تسهم في صنعه الشبكات السبرانية والقنوات الفضائية والشركات العابرة... هذا الواقع لم يعد يفي بفهمه وتشخيصه وتدبر مشكلاته، لا العقل اللاهوتي القديم ولا العقل النخبوي الحديث، لا الأصولية الاصطفائية الدينية ولا العقلية الإمبريالية التسلطية.

مـــن هنا ثمة حاجة إلى تجديد العدة الفكرية لمواجهة عالم يتعولم، لكي يزداد اختلاطاً وتشابكاً بأنظمته السياسية وأنشطته الاقتصادية ومجموعاته الثقافية... ولعل هـــذا هو مسوغ الكلام اليوم على الهوية من منظور تعددي، بتعدد الدوائر والأطر والصعد المحلية والأقليمية والدولية، التي باتت مجالات رحبة لممارسة الفاعل البشري لأعماله ومهامه وسائر أنشطته.

وممارســـة الهـــوية، كأنا تعددي تواصلي، في الفضاء العمومي، أو من منطلق كوسموبوليتي، هو سمة الإنسان المدني والمواطن العالمي، الذي يكسر الأطر والدوائر المحلـــية أو الأهلية الضيقة، كما يتجاوز الحواجز العرقية والدينية العازلة. وهذه هي أساساً سمة العقل الفلسفي كما نجد نماذجه، بنوع خاص، من حوارات سقراط إلى تواصـــلية هابـــرماس، أو من عالمية الفارابي[1] إلى تنويرية كنط، أو من كونية ابن عربي[2] إلى كوكبية بيل غيتس.

وإذا كانت العالمية الجديدة، بما هي تفكير المرء بأن العالم موطنه والكوكب مداه، وبما هي سعي إلى صوغ قيم بشرية كونية وجامعة، قد بقيت مجرد موقف طـــوباوي، ولم تجـــد طـــريقها إلى التحقق في مواجهة تعاليم الملل الدينية قديماً ومـــنطق الدول القومية حديثاً، فإن العولمة، بما هي واقعة العصر، تفتح الفرصة

(1) هـــذا ما جرى التعبير عنه من خلال مصطلح "المعمورة". ولعل الفارابي كان أكثر الفلاسفة عالمية. إنه نموذج الإنسان الكوسموبوليتي الذي لم يكن يمارس هويته بوصفه ينتمي إلى أمة أو إلى ملة، بل إلى المعمورة، أو هكذا على الأقل كان يفكر ويتخيل.

(2) تتجلـــى كونية ابن عربي من خلال تماهيه مع الأشياء، وليس فقط مع البشر ومعتقداتهم، كما عبـــر عن ذلك في مقطوعته الشهيرة حول ممارسته لهويته بأبعادها العالمية والكوكبية والتي مفتتحها: "لقد أصبح قلبي قابلاً كل صورة...".

أمام ممارسة العقل بصفته العمومية والمدنية، على المستوى العالمي والكوني.

وآية ذلك أن ثورة المعلومات والاتصالات، تعمل على توحيد العالم على غير صعيد: أولاً على الصعيد الإعلامي بتحويله إلى قرية كونية واحدة؛ ثم على الصعيد الاقتصادي بتحويله إلى سوق عالمية واحدة؛ كذلك على الصعيد الأمني بتحويله إلى ساحة واحدة للصراعات والحروب؛ حتى على الصعيد البيئي يتحول العالم إلى وسط حيوي واحد في مواجهة مشكلات التلوث والارتفاع المتزايد في حرارة الأرض.

هذا ما يعبر عنه مصطلح "الاعتماد المتبادل"، وذلك حيث "المصالح والمصائر باتت متداخلة ومتشابكة"[1].

وكل ذلك يعني من جهة أولى، أن المسؤولية باتت متبادلة، بقدر ما هي جسيمة، على الأقل في مواجهة ما يولده الإنسان بأفكاره ومشاريعه وأعماله، كما بأدواته ومصنوعاته ونفاياته، من المساوئ والمخاطر والكوارث؛ كما يعني من جهة أخرى بأنه لا فكاك، بعد اليوم، لواحد منا عن الآخر، أكان صديقاً أم عدواً، فإذا لم نحسن التعامل معه، بلغة المداولة والتسوية، سوف نتواطأ معه، من حيث لا نحتسب، ضد ما نسعى إلى بنائه، وعلى حساب مصالحنا وحقوقنا، لكي نصبح صنيعته بصورة من الصور. وهذا من مفاعيل العالمية الجديدة الآخذة في التكون.

وهكذا لم تعد النزعة الكوسموبوليتية، مجرد حلم نخبوي، وإنما باتت واقعاً حياً وملموساً، كما تشهد على ذلك التقاطعات والتشابكات والتأثيرات المتبادلة، على مستوى الكرة الأرضية، إيجاباً أو سلباً، في معظم مجالات الحياة وحقول الإنتاج والاختراع. نحن إزاء عولمة شاملة للعلامات والرموز والهويات والمشكلات والصراعات والخبرات أو المهارات[2]...

---

(1) كما تتكرر هذه الصيغة في مقالاتي عن العالمية والعولمة.

(2) من الشواهد على اجتياح الرموز والسلع والماركات للعالم، أن صورة غيفارا الذي كان رمز الثورة ضد العالم الرأسمالي، غدت سلعة أو ماركة يجري تداولها في السوق العالمية وفي البلدان ذات الأنظمة الليبرالية. من الشواهد أيضاً، أن الإمارات العربية المتحدة اشترت من فرنسا ماركة "اللوفر"، لكي تقيم متحفاً بهذا الاسم على أرضها.

هــذا الواقع الكوني، المعولم، الذي حمل البعض على القول بأننا نفكر عالمياً ونعمل محلياً، يفتح اليوم إمكاناً أمام الإنسان لكي يجسد عالميته، بقدر ما يعني أن ما يحدث ويستجد، أو ما يخترع وينجز، أو ما يتداعى ويسقط، أو ما يفشل ويخفق، أو ما يخيف ويرعب، في أي مكان من العالم، لم يعد شأناً خاصاً ببلد أو مجتمع أو منطقة، وإنما غدا شأناً عالمياً وكوكبياً، يعني الناس أجمعين، بصورة من الصور، ولو على المستوى النفساني، بقدر يطال الأرض بما فيها ومن عليها.

وهكــذا نحن إزاء شكل جديد من العالمية، لفاعل بشري جديد، أوثر تسميتها العالمية الكوكبية، للإنسان الأرضي والدنيوي، هي مختلفة عن عالمية الملل والدول، كما تتجاوز عالمية المجتمع الصناعي وحداثته نحو موجات جديدة من الحداثة الفائقة.

لا يعــني ذلــك أن البــشرية تعيش الآن في جنة العولمة الليبرالية والشراكة الكوكبــية أو المواطنية الأرضية، حيث التضامن والتبادل والتفاعل الخلاق والمثمر. فالتقــسيمات الضدية، بنسخها القديمة والحديثة، هي شغالة وفاعلة، وكما تتجسم في مقــولة صدام الحضارات أو في ثنائية الفسطاطين، الإيمان والكفر، أو في نظرية المحورين الخير والشر، وفي سواها من التصنيفات القاطعة التي تعمل على تعبئة البشر وقولبــتهم على أساس عنصري أو ديني أو ثقافي، لكي تضعهم في مواجهة بعضهم البعض على سبيل الاستبعاد أو الاستعداء.

نحن إزاء إمكانيتين: الانخراط في منطق الاصطفاء والتمييز والتقوقع والعسكرة والــصدام، أو إتقــان لغة الاعتراف والحوار والتوسط والتعدد والمباحثة والشراكة المبادلة...

ولكل خيار ثمنه ومفاعيله. أن نخشى ونتقوقع على الذات أو أن نتمترس وراء خــصوصيتنا علــى نحو عنصري، مآله المزيد من التوتر والتأزّم والاضطراب على المسرح الكوني، حيث ما هو عالمي أو خارجي بات، بتأثيره وفاعليته، بأهمية ما هو محلي أو وطني.

من هنا الأمل الكبير بأن تستثمر فتوحات ثورات الاتصال والمعلومات، على نحــو إيجــابي، لــصياغة العلاقات بين الدول والمجتمعات، في مناخات الاعتراف والتلاقــي والــتلاقح، والتعاون وبصورة تتيح للخصوصيات أن تتجلى على سبيل النفع المتبادل والإثراء المتبادل.

القسم الخامس

عولمة الصراعات

لبنان ساحة ونموذجاً

النصر الخادع والمستحيل

يسألني صاحبي: لماذا لم نقرأ لك شيئاً عن الحرب ومجرياتها؟

وكان جوابي انني كنتُ في مدينة القاهرة اثناء فترة الحرب التي شغلتني بوقائعها وتداعياتها، ببطولاتها وكوارثها. ولذا لم افعل شيئاً سوى ان أفكر وأتأمل او ان اقرأ وأشخص او ان اجادل واعارض. وكنت في ذلك أقف ضد التيار السائد لدى الشريحة الواسعة من الرأي العام، وبخاصة المثقفين ومن يطلقون عليهم اسم الكتّاب السياسيين والمحللين الاستراتيجيين. وهذا ما فعلته بعد عودتي الى بيروت، اذ وجدت نفسي فوراً أقف على النقيض من شريحة مجتمعية تربطني بها روابط النشأة، من الاسرة الى الطائفة ومن القرية الى المحلة.

وكانت حصيلة ما كتبته في القاهرة اربع مقالات بعنوان: لبنان بين فكيّ الكماشة، النصر الخادع والمستحيل، لبنان هو الرهينة والضحية لأنه الساحة والورقة، خطاب النكبة والكارثة، بالاضافة الى حوار مطول بعنوان: تواطؤ الأضداد على صناعة الخراب.* وقد نُشرت اجزاء من هذه الكتابات، وفيها حاولت أن أقرأ الحدث بأبعاده والتباساته، باحتمالاته وتداعياته، بأقنعته ومآزقه، وذلك بقدر ما تناولت الحرب بمفرداتها وعناوينها، المقاومة، الاسلمة، ايران، سوريا، العرب، المثقفون، اللبنانيون، العالم، اميركا واسرائيل، التحرر والنصر.

I- مسؤولية العرب وكوارث النخب

وإذا كان بوسعي أن أستعيد بعض ما كتبته في هذا الخصوص، فليكن حول دور المقاومة ومسؤولية العرب وموقف النخب:

(*) نشرت المقالات في مجلة "المجلة" السعودية، أما الحوار فنشر جزء منه في مجلة "أخبار الأدب" القاهرية.

بالنسبة للمقاومة، فهي أصل المشكلة ومحور الصراع بمختلف نسخاتها وطبعاتها، الفلسطينية واللبنانية والإسلامية. وما تقوله الوقائع منذ بدأت المنظمات المسلّحة نشاطها، على ارض لبنان، قبل عقود: تريدون مقاومة، خذوا إذاً كوارث ونكبات.

ومع الأسف، فهذا ما انتهت اليه المقاومة الإسلامية بالرغم مما انجزته. ومن المعلوم انها كانت قد نالت التأييد والثناء والتبجيل، حتى من جانب من كانوا يتحفظون على عملها أو يعارضون أصلاً قيامها، سيما بعد تحرير الجنوب عام 2000، حيث بدا أن هذه المقاومة استردت ما كانت قد خسرته المقاومة الفلسطينية والمقاومة اللبنانية التابعة لها.

يومها لم يبق أحد لم يثن على الإنجاز الذي حققته المقاومة. وفي العالم العربي، نالت المقاومة وقائدها حسن نصر الله[1] من التأييد والتمجيد ما رفعها إلى مصاف البطولة والأسطورة أو القداسة، إذ أن الكثيرين من العرب وجدوا أن المقاومة نجحت في ما فشلت فيها الجيوش والأنظمة العربية، مع أن في ذلك ظلماً للجيش المصري الذي حقق إنجازاً عسكرياً عام 1973.

وهكذا أتت على المقاومة لحظة فائقة كانت فيها في ذروة الاستقطاب للرأي العام. ولم تستغل الفرصة من أجل تغيير الخط والنهج، إذ أن لكل مرحلة أدواتها ومفرداتها عند من يحسن القراءة والتشخيص. ولبنان بعد التحرير هو غيره قبل التحرير. فكيف إذا كانت الظروف والمعطيات في لبنان وعلى الساحة الدولية قد تغيرت، بعد 11 أيلول الأمريكي، وبعد صدور القرار رقم 1559، وكذلك بعد اغتيال الرئيس الحريري. غير أن حزب الله لم يشأ أن يتغير، وسط كل هذه

---

(1) يعترض صديق عزيز قرأ هذه المقالة، على ذكر قائد المقاومة حسن نصر الله من دون لقبه "السيد" وأجيبه بأن الأمر يتعلق بالسياق. وقد ورد الاسم في مكان آخر مسبوقاً باللقب. ثم أضيف بأن الواحد يبلغ أحياناً درجة من الشهرة بحيث لا يعود محتاجاً الى الالقاب. أعرف أن الناس تؤله او تعظم زعماءها، خاصة إذا كانوا ذوي صفة دينية، وكما هي أصلاً مشيئة الزعماء والرؤساء، وذلك بإضافة ألقاب القداسة والنيافة والسيادة والآية والحجة... الى اسمائهم. هذا مع أن الكثيرين من عباد الله، لإلفة بينهم وبين ربّ العزّة، يذكرون في أحاديثهم "الله"، هكذا مجرداً من أي صفة حسنى. وتلك هي المفارقة. إننا نعتبر وكلاء الله على الارض أعظم منه، ونخشاهم أكثر مما نخشاه.

المستغيرات، بالتخلي عن العمل العسكري والاقتصار على العمل السياسي، لكي يسهم في إعادة بناء الدولة ويسهل عملية بسط سلطتها على كامل أرضها، بل تمسك بموقفه، سواء من حيث الإبقاء على السلاح، أو من حيث الاستقلال عن لبنان، دولة وحكومة وشعباً، للانفراد بقرار الحرب والسلم.

بذلك أعادت المقاومة الإسلامية الوضع في لبنان إلى ما كان عليه أيام المقاومة الفلسطينية، بل إلى ما كان عليه قبل التحرير. مع فارق أن المقاومة الفلسطينية كانت تشكل دولة داخل الدولة تنازعها السلطة، خاصة وأنها كانت على نزاع مع سوريا، في حين أن حزب الله الذي تشكل سوريا مرجعيته الداعمة له، قد شكل دولة وسلطة أقوى من سلطتها تخشاها، مما أدى إلى تنازل الدولة اللبنانية، رئاسة وحكومة وبرلماناً، عن بعض صلاحياتها المتعلقة بالقضايا المصيرية لحزب الله.

وبعد التحرير أصبحت المقاومة هي المشروعية العليا والشأن المقدس الذي لا يجوز المساس به، وصار القادة والساسة والزعماء والمثقفون، سوى استثناءات نادرة، يسبحون بحمد المقاومة عند كل مناسبة.

وقد دفع اللبنانيون الثمن الفادح لما قدسوه وبجلوه، رهبة أو نفاقاً أو تحالفاً، ولم يكونوا مقتنعين بجدواه، أو لما سكتوا عنه من الأخطاء والأخطار التي فعلت فعلها بصورة مضاعفة ومدمرة.

هذا ما حصل في حرب تموز، حيث سارعت المقاومة إلى تصعيد الموقف، بنوع من الهروب من المشكلة أو إرجاء الاستحقاق الداخلي، بأسرها الجنديين الإسرائيليين، ففجرت الوضع واندلعت حرب غير محسوبة ولا متوقعة، فتحت فيها أبواب جهنم على لبنان، قتلاً وتدميراً وتشريداً. بذلك خلقت المقاومة وضعاً جديداً أعاد لبنان إلى الوراء، فضيعت ما حررته وارتدت على الإنجاز الذي صنعته، بما يشبه التواطؤ مع العدو الذي حاربته. وكأن الهدف لم يكن المقاومة أو التحرير بل شيء آخر، أو كأن محركات القضية لم تكن في لبنان بل في مكان آخر.

أما العرب فمشكلتهم أنهم عاجزون، أعني كون المجتمعات العربية ضعيفة، غير فاعلة على مسرح الأمم، بقدر ما هي مجتمعات ميتة سياسياً، كسولة ثقافياً، متخلفة حضارياً، غير منتجة لما تشارك به في صناعة العالم المعاصر، إذ هي في الاغلب تتلقى

وتستهلك اكثر مما تبثّ وتصدر، وتنجر الى ردات الفعل اكثر مما تفعل وتؤثر.

وهـذا شأن الشارع العربي بجماهيره الهائجة ونخبه العاجزة، فلا جدوى من تأييده ودعمه، ذلك ان ما تتقنه الجماهير هو ان تمارس طقوس العبادة لزعمائها وابطالها، او ان تكون بؤرة التعصب ومادة الشحن وآلة العداء والصدام لانتاج مزيد من الاستبداد والارهاب. واما ما تتقنه النخب فهو تلفيق النظريات وفبركة الاوهام الخادعة او الاحلام المستحيلة لانتاج مزيد من الخسائر والنكبات.

وحسناً فعل العرب، اذ عقدوا اجتماعهم في بيروت، الامر الذي يشكل دعماً للحكومة اللبنانية. هذا هو مفتاح الحل: دعم الدولة اللبنانية بقرار المفاوضة، حتى تستعيد سلطتها على ارضها، ولا يبقى لبنان ساحة سائبة لمن اراد ان يختبر مشاريعه المدمرة واحلامه المجنونة.

ومن المفارقات أن العرب يرفعون رايات النصر، اكثر مما يفعل الناس في لبنان، ذلك ان الحرب التي جرت انما وقودها دماء اللبنانيين ودموعهم وآلامهم وحسراتهم، فضلاً عن ارزاقهم وجنى عمرهم. هذا دأبهم من حيث علاقتهم بلبنان وحروبه ومقاوماته. انها علاقة استخفاف او استضعاف او استباحة، بحجة مواجهة اسرائيل، او مقاومة الهيمنة الاميركية، مع أن بعض الذين يقاومون سياسة اميركا، قد يكونون أسوأ منها. والأهم أن المقاومات قد عادت بالهلاك والخراب على لبنان وأهله، أو أنها تعمل على تضييع ما أنجزته وإهدار ما حققته.

وإذا كان هذا شأن العرب، فإن النخب هم رأس الحربة ومن صنّاع الأزمة، إذ لا يمكن أن تحصد أمة كل هذه الخسائر والكوارث، لو كانت نخبها تفكر بطريقة مثمرة أو بناءة. والنخب تتعامل مع لبنان كساحة مفتوحة او ارض مستباحة لكل صاحب نزوة استبدادية او خطة جهنمية، من الفنان الذي يأتي الى الجنوب اللبناني لضرب حجر على بوابة فاطمة، الى الشاعر الذي يستثمر الحدث لكي يسوّق شعره ويمارس حضوره وسط الأنقاض[1]، ومن المثقف الداعية الذي

(1) هذا ما فعله شاعر عربي أتى إلى بيروت بعد حرب تموز 2006، لكي يلقي شعره وسط الحرائق والخرائب، لأن ما يهمه ليس الأرواح والأرزاق، بل أن يكون هو الحدث. طبعاً ليس هذا شأن الجميع. ثمة شعراء وكتّاب عندما سئلوا عن موقفهم من الحرب والنصر، اكتفوا بالقول: إننا نخجل أمام القتلى والجرحى.

يقــول لا تــضعفوا المقاومة حيث هو في منفاه، الى المفكر اليساري الذي يأتي الى لبــنان لكــي يُلقي علينا دروساً في النضال بعُدّة مفلسة، وصولاً الى الاستراتيجي الاقليمي الذي يحول لبنان الى ساحة للمواجهة او يتخذ منه ورقة للمفاوضة ولو لم يـبق حجر على حجر ولو حتى آخر لبناني. والأطرف هو ذلك المثقف أو المفكر الــذي يـتعامل مع حرب تموز بوصفها بداية التاريخ. فيا لها من آخرة بأن يحدثنا المثقف العلماني والتقدمي عن بداية التاريخ، للعودة القهقرى بلبنان والبلاد العربية إلى فقــه المجتمع العبودي والعصر المملوكي. ويا لها من مسخرة أن ينشط المثقف الحداثــي تحــت عباءة الشيخ الذي يقوم مشروعه، في الأساس، على استبعاد أو استئصال كل من يفكر على شاكلته.

هــذا مــا يريده المثقفون والاستراتيجيون: التلاعب بمصائر بلد، استضعاف شــعب والاســتكبار على اهله، الاستغلال لأجواء الحرية والديموقراطية للترويج لمشاريع وبرامج لم يثبت سوى فشلها، وكأنهم بذلك يريدون تحويل لبنان من بلد يمــارس حيويته وغناه وديمقراطيته، الى بلدٍ فقيرٍ فاقد الحيوية، ذا وجهٍ واحد وذا نظام استبداديّ.

وهــم يفعلــون في لبــنان ما لا يجرأون عليه في أي بلد من البلدان الحليفة للمقاومــة، بقدر ما يدعمون انظمة وقوى لا يطيقون العيش لحظة واحدة في ظلها او تحــت ســلطتها، بــل هم يؤثرون أن يبقوا حيث هم في منافيهم وبلدانهم، في أمــستردام ولــندن وباريس ونيويورك ينظّرون للحرب، من على بُعد. هذا شأن الأكثــرين مــن أصــحاب المــشاريع القومية والإسلامية واليسارية، المتحالفين والمتواطئين، بذريعة تأييد المقاومة أو مقاومة أمريكا. إنهم يريدون لأطفال لبنان أن يكونوا ضحايا أو قرابين على مذبح العروبة البائسة والهدّامة، أو على مذبح الإسلام التكفيري والإرهابي.

وتلــك هي محنة لبنان: إنه واقع بين أنياب الكماشة: بين الجهادية الإسلامية والأصــولية الإنجيلــية، بين الأنظمة الاستبدادية والمشاريع الإمبريالية، بين العقيدة التلمودية والثقافة الكربلائية، بين إرادة التأله ومنطق الاستئصال، بين جنون أحمدي نجــاد وجحيم إسرائيل؛ باختصار: بين بربرية العقائد الاصطفائية والآلة العسكرية الجهنمية.

من هنا فإن الاستراتيجية الإيرانية، بنمط تدخلها على الساحة اللبنانية، ليست هـي الـنموذج المطلوب، فأقل ما توصف به من حيث تداعياتها، هو أنها ولّدت نكبةً جديدة تضاف إلى النكبات السابقة. وما يؤمل من العرب هو أن يعملوا على بـناء اسـتراتيجية بديلـة للمشروعين المتناحرين، الأميركي والإيراني[1]، ولكن المتواطـئين على تخريب لبنان، بالتعامل معه كساحة وورقة، بحيث يستخدم العرب طاقـاتهم كـأوراق ضغط، سواء من أجل المواجهة، أو من أجل فتح الآفاق أمام الحلول السلمية. وأيّاً يكن، فالمهم أن تأتي الإستراتيجية العربية ثمرة جهود وأعمال مشتركة، وأما الانفراد بالقرارات، فإنه يولّد استنـزاف الجهود والموارد، أو يؤول إلى النـزاع وتبادل التهم والمساوئ".

ولا أنـسى بالطبع الدور السوري: فسوريا هي اللاعب الاول على الساحة اللبنانـية بحكم عوامل عديدة جغرافية وثقافية وايديولوجية ومجتمعية.. ولولاها ما كـان لإيـران أن تمارس حضورها الاستراتيجي في لبنان، ولما كان لحزب الله أن يلعب مثل هذا الدور الذي جعله أقوى من الدولة وهماً أو واقعاً.

وسـوريا تعتبر نفسها أساساً معنيّة بالشأن اللبناني كما لو أنه شأن سوري، الأمر الذي يخلق للبنان مشكلة دائمة. من هنا فالعلاقة بين البلدين ليست مبنية على الـثقة، بـل هي تهتز وتضطرب بين الفترة والاخرى. ولا شك أنها امست علاقة متوتـرة، مأزومة على أشد ما يكون، بعد انهيار ما يسمى بنظام الوصاية وخروج القـوات الـسورية من لبنان. وما اعتقده أنه عبثاً نبحث عن حلول للخروج من الازمـة الراهنة، ما لم نعمل على تفكيك المشكلة، لكسر المنطق الذي ينظم العلاقة بـين سـوريا ولبنان بمفردات الهيمنة والإذعان او الوصاية والتواطؤ، أو بمفردات العنصرية الوطنية والحضارية، لإجراء تسوية تاريخية يعاد بموجبها بناء العلاقات بلغة الحـوار والمداولـة والمشاركة، على سبيل التبادل المثمر والتفاعل الخلاق، على ما يؤمل أن تكون بين جارين، فكيف إذا كانا يدعيان بأنهما شقيقان... من هنا فإنه

(1) مـن هـنا شـكّل مؤتمر القمة العربية الذي انعقد في أواخر شهر آذار 2007 في الرياض، فرصة لكي يستعيد العرب مبادرتهم التاريخية ويحملوا المسؤولية الجسيمة، وسط المآزق التي وصـلت إليها المشاريع الدولية والإقليمية، سواء من جانب المحور الذي تتزعمه أميركا أو المحور الذي تقوده إيران.

وعلى صعيد آخر، إذا أفضت المساعي الدولية الجارية، من جراء هذه الحرب، الى فتح حوار بين سوريا واسرائيل، فإن ذلك يعني تفكيك عقدة اساسية من عُقد الأزمة اللبنانية.

II- حروب الداخل

والآن، بعد أن هدأت المعارك، لتبدأ حرب سياسية ربما هي الأخطر على الكيان والمصير[1]، بقدر ما تشهد على أن النفوس، التي لم تهدأ، هي على العكس مشحونة وغاضبة أو موتورة ومستنفرة، أعود لتناول المسألة من جديد، وفي ضوء ما استجد من الاحداث والتطورات.

وأبدأ بالحرب، كحدث خطير ومصيري، لأقول بأنها تشكل بدوافعها ومحركاتها، كما بنتائجها وتداعياتها، فضلاً عن وقائعها، ومجرياتها، واقعة تختزن امكاناتها وتنفتح على احتمالاتها، بقدر ما تتعدى صانعيها، تماماً يتعدى النص مؤلفه ويستقل عنه، لكي يغدو مداراً لتعدد القراءات والتفسيرات او لاختلاف التوظيفات والاستخدامات.

من هنا تتباين الآراء وتتضارب حول قضية النصر التي أثارت وما تزال تثير السجالات الصاخبة والانقسامات الحادة او العنيفة، من هذا الطرف او ذاك. نحن ازاء حدث متعدد الوجوه والمستويات والابعاد، ولذا يمكن تناوله بعين مركبة، إذ كل حزب او فريق، إنما يتعامل معه بحسب ميوله واتجاهاته، او بحسب موقعه ومهنته او دوره ومهمته، فضلاً عن نظرته الى الاشياء وطريقة فهمه للمجريات.

فالمحايد والمراقب هو في مفهومه للنصر غير المنخرط في حزب سياسي او تيار ايديولوجي. ذلك ان المحايد يمكن ان يتأمل ويتفكر لكي يقرأ المجريات ويشخص الواقع، في حين ان المتحزب قد يقفز عن الوقائع، بقدر ما يكون هاجسه الدفاع عن حزبه او تبرير خياراته ومواقفه.

---

(1) كتبت هذه المقالة قبل انفجار الصراع بين المعسكرين في لبنان، تكتّل الموالاة بقيادة "تيار المستقبل"، وقوى المعارضة بقيادة "حزب الله"، الامر الذي أدى الى استقالة وزراء المعارضة من الحكومة، وما أعقب ذلك من تظاهرات واعتصامات وتوترات طائفية.

والمـؤمن المنضوي في طائفة او جماعة، هو غير المواطن الذي ينتمي، بالدرجة الأولى، الى بلد او الى وطن او دولة. ذلك ان همّ المؤمن هو نصرة معتقده والالتزام بمـا يصدر عن شيخه او مرجعه من الاحكام والفتاوى، ولأن محركه هو التضامن اولاً مـع ابناء طائفته او مذهبه. اما المواطن فإنه يعيش في دولة يلتزم بقوانينها مع بقـية المواطنين، بصرف النظر عن انتماءاتهم الطائفية او السياسية. ولذا فهو يأخذ بعين الاعتبار تداعيات الحرب على الوطن والدولة.

ومـن هـنا، فإن المحارب يفهم النصر على نحو يختلف عن فهم المدني وغير المحارب. لأن النصر عند المحاربين هو أن يبقوا، تبعاً لعقلية نخبوية ومركزية، سادية او فاشـية، شـعار اصحابها: النصر هو أن تبقى الدول والانظمة والاحزاب ولو دمرت الاوطان او سحقت الشعوب.

والذي يقدر الخسائر ليس كمن لا يقدرها. ومن هنا فإن من فقد عزيزاً ومَن دُمّـر بيته أو خسر مورد عيشه يشق عليه ان يتحدث عن النصر، الا اذا كان ممن يـتماهون مع القضية او يمارسون عبادة الشخصية. وهؤلاء يقفزون عن خسائرهم الشخصية، بعقلية بوذية مآلها ذوبان الفرد في الجماعة وفناؤه في قادته وزعمائه.

على صعيد آخر إن القاعدة الشعبية، خاصة اذا كانت طائفية، كما في لبنان، تحمـل النـصر علـى غير ما تحمله القيادة. فهذه قد ترى الى النصر من المنظور الاسـتراتيجي للـصراع العربي الاسرائيلي؛ اما القاعدة الشعبية التي تحركها دوافع ومـآرب طائفـية او سياسية، فالنصر هو عندها حاجة داخلية اكثر مما هو حاجة خارجـية، اي لـيس المهم عندها النصر على العدو، بقدر ما يهم أن تمارس قوتها وحضورها او صعودها، تجاه بقية القوى المنافسة لها، خاصة اذا كان التنافس يقوم علـى اسـاس طائفي، كما هي الحالة اللبنانية، حيث المقاومة، وإن استقطبت تأييداً سياسياً، من شرائح وزعامات في الطوائف الاخرى، فإن كونها محصورة في طائفة دون سواها، يشكل لغماً على المستوى الوطني، ذلك أن كل قوة تمتلكها او تظهرها طائفة يعـد ضعفاً لدى الطوائف والعصبيات المنافسة. ولو كان الواقع الآن غير ذلك، وكان الشعور في اوساط حزب الله هو الهزيمة، لشعرت القاعدة بالهزيمة ليس تجاه اسرائيل، بل تجاه الطوائف الاخرى المنافسة لها على المواقع والمناصب والمكاسب.

هذا الواقع هو الذي يجعل النصر الذي تريده طائفة او تصنعه او تحتفي به، هو مـثار خـوف أو محل إشكال لدى الطوائف الاخرى. والذين يقفزون فوق هذا الواقـع الطائفـي، مـن اللبنانيين والعرب، يدفنون رؤوسهم في الرمال، بقدر ما يـتعامون عـن المـشكلة ويعيدون انتاج الازمة. من هنا يخلق النصر العسكري الأحـادي علـى يد طائفة، دون سواها، مأزقاً في بلد تركيبته طائفية، مما يعني ان النصر في لبنان لا ترجمة سياسية له، ما لم يكن قرار الحرب او السلم ثمرة قوة وطنية جامعة، أو حصيلة صناعة مشتركة بين جميع القوى والمشروعيات.

وبالاجمال فمن يشارك في الحرب ويصنع النصر، ليس كما يتفرج عليه او لا يشارك فيه، ولو كان يتمناه، فكيف اذا كان يخشاه، كما في الحالة اللبنانية، حيث المقاومة احادية الطائفة في بلد طائفي.

على صعيد آخر، فالذي يفهم الحرب والنصر كإلهام رباني او توفيق إلهي، هو غـير الاسـتراتيجي الذي يعتبر المسألة حسابات ورهانات او قرارات تتخذ وراء الكواليس وفي عتمات العقول. وقد بدا منذ اليوم الاول، وبعد أسر الجنديين، ان ما جـرى لم يكن متوقعاً، اي ان هناك خطأ في التقدير او التوقيت. والذين يقولون: ربّ ضارة نافعة، لأن اسرائيل كانت ستشن عدوانها بعد شهرين، لا يعرفون معنى قـولهم، لأنـه لو كانوا يعلمون ذلك، كان عليهم، بعد عملية أسر الجنديين، أن يـتوقعوا، بنسبة عالية جداً، بأن اسرائيل يمكن أن تستعجل عدوانها. هذا بالاضافة الى أن مـن هـو في حالة حربٍ مع عدوّه، عليه أن يتوقع الردّ من جانبه بصورة دائمة.

هـذا مـع أن الذي يعود الى قراءة الوقائع، قبل اندلاع المعارك، يكتشف ان هناك من كان يستعد لهذه الحرب، من أجل قلب الاوضاع وتغيير المعادلات، سواء في لبنان او على الساحة الاقليمية. صحيح أن حزب الله أشعل فتيل الحرب، سواء كان يتوقع حجم الردّ أم لا، وصحيح أيضاً ان اسرائيل شنّت العدوان، ولكن الكل قد سعوا إلى الحرب، بخاصة التحالف الدولي المؤلف من حزب الله وسوريا وايران ومـن التابعين لهم من التيارات القومية والشراذم اليسارية. الجميع كانوا ينتظرون الحـرب لقطـف ثمارهـا، سواء فوجئوا بالرد أم لم يفاجئوا، وبصرف النظر عن استعداد إسرائيل ونواياها العُدوانية.

وبالكلام على إسرائيل، لا شك ان المتداول عندهم ليس النصر، بل الهزيمة في الاكثر، خاصة لدى المعارضة؛ أولاً لأن اسرائيل لم تحقق اهدافها بتدمير بنية حزب الله الذي صمد، بشكل خارق، وكبدها خسائر فادحة لم تكن متوقعة من جانب الاوساط العسكرية في العالم.

ثمـة عامل آخر يجعل الاسرائيليين يشعرون بالهزيمة، وهي انهم يقدرون قيمة الخـسائر بقدر ما يمارسون حقهم في المحاسبة والمراجعة النقدية، بعكسنا نحن الذين نمـارس مازوشـيتنا، اعني احتقارنا لذواتنا، لأننا نحسب انفسنا منتصرين، إذا قتلنا اسـرائيلياً واحـداً، ولو قتل منا العشرات، مثلنا بذلك مثل ذلك الفقيه الذي يفتي بضرورة قتل الزنديق ولو كلف ذلك قتل ألف مسلم. ومن يفكر على هذا النحو، الـسادي والفاشـي في آن، يعتبر نفسه منتصراً، بل ينتشي بنصره بعقلية سحرية غيبية، كما هو دأب العرب في حروبهم، من أم المعارك إلى النصر الإلهي.

من هنا يتبدى الفرق الكبير بيننا، كعرب، وبين بقية العالم، سيما في الأنظمة الديمقـراطية والليـبرالية: فهم يقومون بأعمال المحاسبة والمراجعة، سعياً إلى التغيير والتجديد وإعادة البناء، ولو كان الحاكم ناجحاً أو القائد منتصراً، فكيف إذا أخطأ في حـساباته أو أخفق في مشروعه. أما عندنا فنحن نتقن فنون التمويه والشعوذة، بـتحويل الكوارث والهزائم، إلى نصر وبطولات. ولذا ترانا نتشبث ليس فقط بمن نجـح واسـتهلك، بل بمن فشل وأخفق أو هزم. وهذا فارق كبير، بيننا وبينهم، كالفرق بين النجاح والفشل، أو النصر والهزيمة، أو البناء والخراب.

مـن وجه آخر يختلف معنى النصر باختلاف الايديولوجيات، وعلى نحو ما يخـتلف القومـي عن الاسلامي او عن اليساري. اذ لكل غرضه ومأربه. فالقومي يرى نصراً كل ما يلحق أذىً بإسرائيل، أياً كانت الخسائر عندنا. والاسلامي يرى نـصراً لأنه تمّ تحت شعار ديني، اما اليساري فإنه يتعدى المقاومة الى الحلف الذي يجمعهـا مـع سـوريا وايران، بمعنى أنه يؤيد تحالفاً دولياً ضد التحالف الاميركي الاسرائيلي.

ولا شك أن النصر عند اللبناني هو غيره في خارج لبنان، من هنا يختلف معنى النصر عند قائد المقاومة عن معناه عند حلفائه او مراجعه في طهران او في دمشق.

إذ هـم ينظرون الى الهدف الاستراتيجي ولا يحسبون حساب الخسائر في الارواح والممتلكات. اما هو فإنه يأخذ ذلك بعين الاعتبار. وهذا معنى تصريحه بأنه لو كان يتوقع بنسبة واحد بالمئة، بأن نتائج الحرب سوف تكون بهذا الحجم من الدمار، لما أقدم على أسر جنديين.

كـذلك الامـر في العالم العربي، فالنظرة الى الحرب والنصر تختلف عنها في لبـنان. لأن الحـرب التي جرت وقودها دماء اللبنانيين ودمارهم. أما العرب فإنهم يحاربـون علـى الخارطـة او ينظّـرون من على بعد بعجزهم وتخلفهم وعقدهم وخـرافاتهم وذاكرتهم المثخنة بالهزائم. وما يعنيهم من النصر هو أنه يشبع عندهم حاجـة نفسية. ولذا نراهم متعطشين الى من يحقق لهم نصراً، لكي يسدّوا نقصاً أو يلأموا جرحاً من فرط الهزائم المتلاحقة. ولذا لا تهمهم الخسائر، فمطلوبهم أن ندمّر بلداً لكي نغسل عاراً او نصنع بطلاً.

والـسؤال الذي يثار هنا: ما معنى التأييد والدعم من جانب مجتمعات عاجزة تكتفي بالتفرج والتصفيق؟ وماذا يجدي أن يتحول بلد صغير كلبنان الى قوة اقليمية عظمى، فيما المجتمعات العربية هي، ما هي عليه، من الضعف والتخلّف؟ إن تغيير موازين القوى بين العرب وبين اسرائيل، لا يتوقف، فقط، على الحروب العسكرية، التي يخوضها بلد او حزب في بلد، او تحالف اقليمي، وإنما يتوقف على تحول البلاد العـربية الى مجـتمعات منـتجة، غنية، قوية، قادرة على ممارسة حيويتها الفكرية والـسياسية، بابـتكار صيغ وأطر وقواعد جديدة لحياتها، لكي تشارك في صناعة الحياة المعاصرة، بصورة مثمرة وبنّاءة، على سبيل الاختراع والابداع.

وأخيراً، إن النصر لا يكون بالمطلق، تماماً كما الهزيمة. فما يعد نصراً من وجه قـد يكون هزيمةً من وجه آخر، وبالعكس. وهذا شأن حزب الله، فقد انتصر او صـمد ضـد اسرائيل، وكبدها خسائر جعلت الاسرائيليين يتحدثون عن الهزيمة. ولكـنه خـسر على الصعيد الدولي، كما خسر على الصعيد السياسي، اذ القرار 1707 لم يأتِ لمصلحته، بقدر ما اتى لمصلحة اسرائيل. وهكذا فهو لم يحقق أياً من الاهـداف الـتي كان يطرحها قبل الحرب او اثناءها، كاسترداد المزارع او تحرير الاسـرى، فـضلاً عن كونه وافق على ما كان يرفضه قبل الحرب بشدّة: انتشار

الجيش اللبناني في الجنوب، ولكن معزّزاً بقوات الامم المتحدة، هذا فضلاً عما لحق بلبنان من الخسائر في الأرواح والأموال، مما لا يحسبون لها أي حساب.

أكثـــر من ذلك، قد تكون الهزيمة دافعاً الى الصعود وسط الحرائق والانقاض، اذا احـــسن المـــرء مراجعة التجربة، كما حصل في المانيا او في اليابان بعد الحرب العالمية الثانية، حيث تحولت الاولى الى عملاق اقتصادي، والثانية صنعت معجزتها التـــنموية. وبالعكس، يمكن للنصر أن يتحول الى مأزق او الى هزيمة، اذا لم يحسن المرء التعامل معه. وهذا ما هو حاصل الآن، حيث النصر الذي يتحدثون عنه قد ارتدّ ضد الداخل ليتحوّل إلى مأزق سياسي أو إلى لغم يهدد بتفجير الوحدة الوطنية[1].

وبالمقارنة مع ما حدث عام الفين، نجد أن حزب الله قد سجل يومها نصراً لا شـــائبة فيه، اذ كانت النتيجة انسحاب الجيش الاسرائيلي مدحوراً، بلا مقابل، اي الها كانت خسارة عندهم مقابل الربح في لبنان. أما الآن فالخسارة في لبنان جسيمة كما يعترف الجميع. وأما الاعتداد بتقويض اسطورة الجيش الذي لا يُقهر، فهو من قبـــيل التهويل والمبالغة، لأن انكسار الجيش الاسرائيلي عام الفين، قد دحض هذه الخـــرافة، والأهـــم انه كشف ان المجتمع الاسرائيلي لم يعد مجتمعاً قوياً متماسكاً محاربـــاً، كمـــا كان لدى نشوئه على يدِ الجيل الاول والمؤسّس. وهذا ما عزّزته حـــرب تمـــوز التي كشفت الهُزال والارتباك عندهم، وكما تشهد فضائح القادة والعسكريين المالية والجنسية. من هنا فإن التأكيد الآن، على هزيمة الجيش الذي لا يُقهر، هو أشبه بأسطورة، او ذريعة لأشياء اخرى، الا اذا كان المطلوب، بعد تحقيق النصر الاول، أن نحارب فقط لكي ننتصر، وهو عبث بالمصائر.

والأهم من ذلك ان النصر لا يتحقق، بل يكون خادعاً، اذا جعل من نحاربه، او مـــن هُـــزمه، يعد العدة من جديد، لكي ينقض الاتفاق ويشنّ العدوان. عندها

---

(1) كمـــا تشهد على ذلك حركة الانشقاق والاعتصامات التي قامت بها المعارضة لتغيير الوضع القائم، بقيادة حزب الله، فهي وصلت إلى الباب المسدود، إذ أن الحكومة، ومن غير سلاح، قد صمدت في وجه حزب الله المدجج بالسلاح، لأنها استخدمت سلاحاً أكثر فاعلية في الصراع الداخلي، هو الاستنفار الطائفي. بهذا يكون حزب الله قد أخطأ التقدير على الصعيد السياسي، في مواجهته للحكومة، كما أخطأ التقدير على الصعيد العسكري، وعلى ما اعترف بذلك قائد المقاومة.

يكـــون النـــصر مجـــرد هدنة بين حربين او معركتين. اما النصر بمعناه الوجودي والانساني، وليس بمعناه العقائدي او السياسي او العسكري، فإنه يحصل او يتحقق عـــندما يحدث تغيير عند من نحاربه، يطال قناعته ومفاهيمه ونظرته الى الذات والى الآخـــر، بحيث يتخلى عن منطقه العدواني، لكي يفكر بمنطق التسوية والمصالحة او المسالمة، وبالعكس. والنصر بهذا المعنى هو انتصار المرء على نفسه بالدرجة الاولى. ومـــن هـــذا شـــأنه هـــو الذي يملك السيادة على نفسه، بما هي حرية الاختيار والاســـتقلالية. أما من لا يملك السيادة على نفسه او من لا يملك القرار المستقل، فمن الصعب أن يتحدث عن النصر.

هـــذه الرؤية المزدوجة إلى الواقع، أي كون الهزيمة بخسائرها يمكن أن تكون متـــبادلة، إنمـــا تـــصدر عمن ينظر إلى الأمور بعين نقدية مركبة، أو يقرأ الحدث بالتباســـاته ومفارقاتـــه. وبـــالعكس من الممكن الحديث عن نصر مشترك، عندما يتزحـــزح كل معسكر عن قناعاته، من جراء أهوال الحرب وكوارثها، لكي يصل إلى تـــسوية مع الآخر تضع حداً للمشاريع المستحيلة والاستراتيجيات المدمرة. أما الـــذين يـــرون بفكر أحادي أو يقرأون الواقع بعقل مانوي، فإنهم يطمسون واقع الهـــزيمة والخسائر الفادحة، متذرعين بحديث العدو عن الهزيمة، متسترين على الوجه الآخر للعملة، أي هزيمتهم هم أيضاً. ومن هذا شأنه ينتقل من خسارة إلى خسارة أو من كارثة إلى أخرى[1].

III- عالمية الحرب

وهكـــذا فالكلام على النصر، هو بحسب الحاجة اليه. ولكل حاجته الخاصة، ايجاباً او سلباً. والكل على ما يبدو يتحدثون عن النصر من فرط الحاجة اليه. ولذا فالأكثـــرون يؤكدون عليه، وكأنهم ينفونه، وذلك ليس لأن معنى النصر هو مدار التباس، بل لأن النصر بات خادعاً ومستحيلاً في هذا العصر لغير سبب.

---

(1) كمـــا هي حال لبنان، بانتقاله من حرب تموز إلى حرب المعارضة ضد الحكومة، أو بتحول عمل المقاومة من استرداد أرضٍ محتلة (مزارع شبعا) لم يسمع بها اللبنانيون أو ما حسبوها يـــوماً لبنانـــية، الى احتلال وسط العاصمة لعرقلة عجلة الدولة، وتعطيل النشاط الاقتصادي. وتلك هي المفارقة.

الاول هو اننا ندخل في عصر تتعولم فيه الهويات والخيرات او المشكلات. هذا ما تشهد به المعضلات الامنية والصحية والبيئية، من حيث تداعياتها على نطاق العالم بأسره. وهذه حرب لبنان هي الشاهد الأكبر، اذ هي تشغل الدول الفاعلة على المسرح العالمي، مع انها تجري على رقعة ضيقة في جنوب لبنان او على حدوده مع اسرائيل، مما يعني اننا اصبحنا نمارس هوياتنا الوطنية او الثقافية بأبعادها الاقليمية والعالمية، المتعددة والمركبة.

من هنا بات الكلام على الاستقلالية والسيادة خادعاً، بقدر ما بات العمل في إطار دولة او وطن، بمعزل عن بقية العالم، غير مجدٍ ولا ممكن، الامر الذي يعني استنفاد الثنائيات القديمة التي تفصل على نحو حاسم ونهائي بين الداخل والخارج. القسمة الفعّالة، هي اليوم، على مستوى كوني، ليس بين اميركا وخصومها، أو بين الغرب والاسلام، بل بين كتلتين، داخل كل بلد او دولة او عالم ثقافي، اي بين القوى التي تعمل داخل كل مجتمع بمفردات الاحتكار والانفراد والاستبداد والهيمنة والحرب، وبين القوى التي تعمل على نفسها وافكارها وهوياتها، لكي تخلق مساحات وأمكنة أو أطراً وقواعد للتعايش والتفاهم أو للتبادل والتفاعل. بهذا المعنى، لا فرق بين عربي وفرنسي، او بين اميركي وايراني، الا بما يصنعه اليوم، مما هو نافع للبشر عموماً.

بهذا المعنى أيضاً تبدو الحرب من لبنان وعليه حرباً عالمية، ليس بمعنى ان اميركا تشن حرباً عالمية على لبنان، كما يقول من كانوا يشنون حرباً رمزية على لبنان بالتعامل معه، كبلد صغير لا ينبغي أن يقف حجر عثرة في وجه المشروع الاسلامي الكبير[1]، بل بمعنى أن الصراعات والحروب اصبحت اليوم كونية.

من هنا فإن من يحسن قراءة الواقع العالمي الراهن، يجد تداخلاً وتشابكاً في المصائر والمصالح، وعلى نحو يقلص المسافة بين العدو وعدوه، بقدر ما يجعل الواحد يرتد على شعاراته ويدمر مشاريعه، وكما تشهد التجارب. هذا ما يفعله بوش الذي اعلن الحرب على الارهاب، فإذا به يفتح ابواب جهنم في غير مكان. وهذا

(1) كما كان يصرح بعض الدعاة، من رجال الدين المنخرطين في المشروع الإسلامي، لدى انطلاقة المقاومة الإسلامية.

شـــأن ابن لادن الذي اعلن الحرب على اميركا، فإذا بها تعود وبالاً على المسلمين. وهذه حرب اسرائيل على لبنان قد ارتدت ضدها، وبصورة لم تكن تتوقعها، تماماً كما أن حشد المقاومة لصواريخها قد ارتدّ على لبنان خراباً لم يكن متوقعاً. من هنا فـــإن الحروب تُفضي اليوم الى الدمار المتبادل، مما يؤكد على ان الضد يتواطأ مع ضـــده، بقدر ما يتغذى منه او يستدعيه، او يخدمه بتقديم الذرائع والمبررات. وما كثرة الحديث على النصر والتأكيد عليه، سواء عندنا او في خطابات بوش، إلا دليل على غيابه أو كونه نصراً مشتبهاً او ملغوماً او مسموماً.

الـــسبب الآخـــر والأهم هو أنه يستحيل النصر في هذا العصر، لأنه يستحيل الحسم في عصر يشهد على أنه عصر انصاف الحلول واشباهها. من هنا فإن البشرية تنخرط في واقع يولد من المشكلات اكثر مما يولد من الحلول. ما من مشكلة تلقى اليوم علاجاً حاسماً ونهائياً، بل هي تعالج على نحوٍ يبقيها معلقة لكي تولد النـــزف والـــتآكل او الـــتورط والاحباط. هذا هو واقع البشر اليوم: ما يعرفه الانسان او يـــصنعه او يبنيه او يدّعيه هو دوماً ناقص او مبتور او مشتبه او ملغوم او منتهك او يرتد على اصحابه... مما يجعل الحياة تبدو، بمساعيها ومشاريعها، اقرب الى نصب الافخاخ والكمائن.

وهكـــذا أصـــبحت البشرية أعجز من أن تتدبر مشكلاتها، بقدر ما تتناقص قـــدرتها باستمرار على القبض والتحكّم. ولذا فهي تطرح ما تنوء به أو ما لا تقدر عليه من المطالب والمهام، مما يشهد على فقدان الانسان السيادة على نفسه، وعلى أنه لا يحسن سوى تدمير القضايا التي يدافع عنها.

أخلـــص من ذلك الى أن من يتصارعون في لبنان من داخله وخارجه، معه او عليه، على العقائد والمذاهب او على المواقع والمصالح، إنما يتناسون الأهم والأخطر، اي من يقف وراء ذلك كله: الانسان الذي لم تستطع ترويضه او تدجينه الديانات والفلسفات.

ولذا، عندما سألني صاحبي عما اذا كنت متفائلاً، كان جوابي: انا لست متفائلاً بإنسانيتي التي تولد كل هذا العبث والجنون، فكيف أتفاءل بلبنانيتي وعروبتي وإسلامي، ما دمنا نحسب الهزيمة نصراً والتدمير تحريراً والتسلط بطولة والموت حياة؟!

إن مـــا يجرى في لبنان يجعل المرء يخجل من كونه انساناً. انا اشعر حقاً بأننا نظلـــم الحيوان، اذ نتهمه بالتوحش، لكي نتستر على وحشيتنا المضاعفة وبربريتنا المفرطة. وتلك هي حصيلة انسانيتنا الزائدة.

في اي حـــال، لا يمكن للمرء ان يتفاءل، فيما هو يتأمل ما آلت اليه اوضاع البشرية من الافلاس والتردي والانهيار. فكيف نفسر كل ما يشهده المسرح الكوني مـــن الفوضى والاضطراب والارهاب؟! اذا حاولنا تجريد المسألة من اقنعة الهويات الدينـــية او القومـــية او الجغـــرافية والثقافية، يتبدى الانسان بعريه وعلى حقيقته، كسفاك للدماء او مفسد في الارض او كعدو لنظيره. واليوم تبدو البشرية اقل تعقلاً ورشـــداً او حكمة من ذي قبل، اي اكثر تكالباً وشراسة وعدوانية، وأكثر قدرة علـــى القـــتل والتخـــريب بقدر ما تتقن اسلحة الدمار الشامل. بهذا المعنى تشهد الحـــروب الناشـــبة، بعـــد عهود من الارشاد الديني والتنوير الفلسفي، على هزيمة الانسان تجاه نفسه بالدرجة الاولى.

نحـــن على المحك كعرب وبشر. والرهان هو إعادة النظر في ثوابتنا ومقدساتنا ومطلقاتـــنا الانسانية التي تولد كل هذه الحرائق والمآزق، وأعني بذلك ما نتعلق به مـــن مفـــردات الالـــوهة والقداسة والعصمة والعظمة والسيادة والبطولة والصفاء والطهـــر... فهـــي بيت الداء والعلبة السوداء التي ينبغي تفكيكها. ما تحتاج اليه البشرية الآن هو التواضع الوجودي والتقى الفكري، بحيث نرى الى انفسنا بوصفنا ادنى شأناً بكثير مما ندعي أو نحسب.

هدنة أم تسوية

بعد الأحداث الدامية[1] التي حصلت في لبنان في مطلع هذا العام (2007)، بفعل الصراع السياسي والاحتقان المذهبي، يعود صاحبي المقيم في بلده العربي الشقيق، يسألني: هل يعقل أن تتنازعوا وتتقاتلوا بعد النصر الذي حققتموه على العدو؟!

وأجيبه بما يؤكد مقولتي بوجهها المزدوج؛ الأول هو أنه يستحيل النصر في هذا العصر الذي تحوّل إلى قرية كونية واحدة، وسوق واحدة، وساحة واحدة، مجتمعياً واقتصادياً وأمنياً، وذلك حيث الحرب تحدث دماراً متبادلاً، وترتد على أصحابها وبالاً وخسرانا، كما تشهد التجارب المريرة والكوارث المتلاحقة.

أما الوجه الثاني، فمفاده أن النصر على العدو لم يكن الهدف الرئيسي، بل كان الهدف الانقلاب على الشقيق في الداخل. ولعل هذا ثابت من ثوابت العقلية العربية، منذ حاكم غرناطة الأمير عبدالله الصغير، وربما منذ امرئ القيس، حتى المقاومة في العراق، وصولاً الى حرب حركة "فتح" ومنظمة "حماس": نستعين بالخارج على الداخل، أو نقتتل فيما بيننا والعدو يحاصرنا، أو نحارب العدو في الخارج وعيننا على الشقيق في الداخل. وإلا كيف نفسّر أن يقع العراق بين براثن المقاومة والاحتلال، او يقع الفلسطينيون بين نيران الأشقاء ونيران الأعداء؟ بل كيف نفسّر ما جرى في لبنان من انشقاق على الحكومة، بعد أن كانوا صفاً واحداً إبان المعارك[2]؟!

---

(1) إشارة إلى الصدامات الدامية التي حصلت في بيروت في أواخر شهر كانون الثاني، بعد انفجار الصراع بين المعارضة والحكومة.

(2) ومع ذلك يطلّ علينا الاستراتيجيون ليقولوا لنا بأن المحور الايراني يسجل نقاط انتصار على المحور الاميركي في غير مكان، في العراق وفي لبنان وربما في فلسطين. بالطبع هو انتصار في نظر الانظمة والاحزاب والقادة والعسكريين، ولكنه يتم على حساب المجتمعات التي تعاني من التخلّف والتفكك والتمزق، أو تحصد كل هذا الهلاك والخراب. فيا لبؤس التحليلات الاستراتيجية التي تشهد على أننا نتواطأ مع عدونا الذي يخدعنا ويستدرجنا، من أمّ المعارك الى آخر المعارك. مما يذكرنا بقول معاوية لإبنه يزيد: "يا بني من حاول خداعك فانخدعت له قد خدعته". ونحن بحسب هذه المعادلة نثبت دوماً بأننا محل خداع واستدراج لتخريب بلداننا.

في أي حال، إن الحرب السياسية التي اندلعت في لبنان بعد وقف المعارك مع إسـرائيل، والتي هي الأخطر بقدر ما تشرّع الباب نحو الفتن المذهبية، هذه الحرب تقلق اللبنانيين، وتشكّل مصدر خوفهم على الحاضر وفزعهم من المستقبل. ولكنها في الـوقت نفسه تقلق العرب، كما تثير اهتمام العالم، في عصر باتت فيه المصائر والمصالح متشابكة ومتداخلة، على نحو يجعل كل ما يحدث في مكان يترك اصداءه في كل الأمكنة.

وحـرب تمـوز (2006) شاهد حي وبليغ، إذ هي جرت على ارض لبنان، ولكنها كانت الشغل الشاغل، لكل الدول العربية والإقليمية، ولكل القوى الفاعلة علـى المسرح العالمي، وعلى رأسها الولايات المتحدة التي تتصرف بوصفها وصية علـى الشأن العالمي والكوكبي. وبعد وقف المعارك، (وليس الحرب كما يقولون) وتـشكيل القـوة الدولـية، للمرابطة بين لبنان واسرائيل، لم تبقَ دولة فاعلة، إلا ورغبت في المشاركة في هذه القوة، حتى لا تكون على هامش الاحداث والمجريات، مما يؤكد على أن ما نشهده ونعيشه هو عولمة الصراعات والحروب والهويات، التي هي الوجه الآخر لعولمة الموارد والخيرات والخبرات.

ولكـن بالرغم من كل التدخلات، العربية والعالمية، ما زال لبنان كما كان منذ أربعة عقود، ساحة للمواجهة، أو ورقة للمفاوضة، او مسرحاً للعب، او مختبراً للمشاريع والاحلام، من جانب اللبنانيين وغير اللبنانيين.

بالطبع تغيرت اشياء كثيرة، خلال هذه السنوات، في الاسماء والعناوين او في الوجـوه والفصول، او في المقاومات ونسخها، او في الفاعلين ومشاريعهم، او في الاحجار التي يجري تحريكها على الرقعة من قِبل المخطِّطين في الكواليس ومن وراء الديكورات. ولكن ما لم يتغير، هو أن الصراع الجاري على ارض لبنان، هو صراع على لبنان بالذات: من يقبض عليه ويملك ورقته، أو يلعب على ساحته، او يستثمر فسحة الحرية فيه، لتنفيذ خطط وبرامج من وراء دولته ومن غير علم أهله؟

بهذا المعنى، يصبح من التبسيط والخداع، اختزال الوضع المعقد والملتبس بأبعاده ومـستوياته المـستعددة والمتداخلة، الى مجرد صراع بين معارضة وموالاة على مقعد وزاري، او الى مجرد مقاومة لتحرير ارض او أسرى؛ نحن ازاء صراع، بين محورين

اقليمية ودوليين، يضع لبنان بين فكي الكماشة او بين أنياب التنين، بقدر ما يجعله رهينة وضحية لخطط وسيناريوهات، تتداخل فيها الملفات والأجندات، بقدر ما تتضارب المواقع والمصالح(1).

ومن المفارقات الفاضحة في هذا الخصوص، أن بعض اللاعبين على الساحة اللبنانية، يريدون للبنان ما لا يرضونه لأنفسهم، على ما تفعل بعض الانظمة التي تقوم بأعمال تمنعها وتعاقب عليها على ارضها. وهذا دأب الشارع العربي، بجماهيره ونخبه الهائجة والعاجزة او الفاشلة بتخلفها وعُقدها وذاكرتها المُثخنة، واستبدادها المتأصل، وتهويماتها الايديولوجية، وتشبيحاتها النضالية. إنها تبحث عمن يحقق لها النصر، لكي تلأم جراحها وتسدّ نقصها أو تغسل عارها، ولذا فهي تريد للبنان أن يحارب بأي ثمن كان، فيما هي تصفق وتتفرج او تهلل وتنتشي للنصر المبين.

وما يريده المثقف القومي، والداعية الإسلامي، والمنظّر الإشتراكي، فضلاً عن الإستراتيجي العسكري والمحلل السياسي، وكل هؤلاء الذين يطلّون عبر الشاشات لكي يدعموا المقاومة بالمطلق، أو يطالبوا بخوض حرب ضد الولايات المتحدة، أو لكي ينتشوا بالحديث عن النصر، ما يريدونه للبنان لو طالبوا به في بلدانهم، لاعتبروا خونة وسيقوا إلى السجون. ولكنه استضعاف لبنان البلد الصغير الذي يراد له دوماً أن يكون ساحة مفتوحة وسائبة.

من هنا تبدو صعوبة الحلول في لبنان، الذي عليه أن ينتظر نضج التسويات في منطقة الشرق الأوسط، وهي أيضاً كما يبدو بعيدة بعد أن تحوّلت هذه المنطقة المنكوبة، منذ نكبة فلسطين، إلى ساحة صراع لمشاريع واستراتيجيات إقليمية ودولية متضاربة. وقد انعكس ذلك على لبنان مزيداً من التعقيد. فقبل ثلاثين عاماً

---

(1) والذين يتحدثون عن استقلاليتهم يأتيهم دوماً الجواب من إيران بأن العكس هو الصحيح، على ما جاء في تصريح الرئيس الإيراني أحمدي نجاد: "لبنان وإيران جسم واحد، ولبنان هو الجزء الجريح منه". ولو قال بأن إيران وحزب الله جسم واحد، لكان الأمر معقولاً ومنطقياً، لأن حزب الله مرتبط ارتباطاً عضوياً بالمشروع الإيراني الإيديولوجي والاستراتيجي. وهذا التصريح يعدّ بمثابة رسالة موجهة من إيران الأصولية، إلى حزب الله كما إلى خصومه وأعدائه، تؤكد بأن الحديث عن الاستقلالية هو حديث خرافة.

كـــان هـــذا البلد يعاني، في هذا الخصوص، من مشكلة واحدة هي الصراع العربي الإســـرائيلي. أمـــا الآن فقد أضيفت عقد جديدة ومشكلات طارئة، منها المحكمة الدولية، والملف النووي الإيراني، والحرب الدائرة في العراق.

وهكذا يجد لبنان نفسه أمام ثلاثة احتمالات:

1 - إمـــا أن يتوصل اللبنانيون إلى تسوية مؤقتة، عبر حوار متصل، ولو بقيت فيه القضايا الأساسية معلّقة، بانتظار نضج التسوية الإقليمية.

2 - وإمـــا أن يُقْدِم من يملكون "القوة الإقليمية العظمى" على قلب الأوضاع، لا لإنشاء صيغة حديثة على أسس وطنية، بل لتعديل نظام المحاصصة لمصلحتهم، الأمـــر الذي يضع البلد في مهب العاصفة، ويفتح الإمكان أمام الحرب الأهلية المذهبية التي تدق الأبواب.

3 - وإما أن يستمر لبنان ممزقاً بين الحرب الأهلية والصراعات الخارجية، بين ثقافة التعصّب والارهاب أو الشهادة، وبين ثقافة الحياة والسلام والإنماء، لكي يسير على طريق التراجع والتآكل والاهتراء.

مسؤولية اللبنانيين

ولا مراء أن اللبنانيين يحملون بعض المسؤولية عن ذلك، بقدر ما يتيح الوضع للبناني التدخلات الخارجية السافرة في شؤونه. ولبنان، كما هو معلوم، بلد التعدد والتـــنوع والاختلاف، في الطوائف والمذاهب والاحزاب. هذا القدر جعله يتشكل كحـــصيلة لتـــسوية مـــركبة، بين طوائفه على صعيد اول؛، ثم بين القوى الفاعلة والمتدخلة من الخارج، أكانت عربية أم أجنبية، على صعيد آخر.

مـــن هنا، ما من طائفة في لبنان او حزب، من غير علاقة تحالف او ولاء أو تورط أو تواطؤ، مع مرجعية خارجية، عربية او غير عربية. وهذه العلاقة قد تتعدى الجانـــب الثقافي والعقائدي او الايديولوجي، الذي هو معقول أو مشروع لتشمل الجوانب السياسية والمالية والامنية، مما يعد عمالة او خيانة في اي بلد آخر.

ولهـــذا ايضاً عندما ينشب الخلاف والنـــزاع بين اللبنانيين، نجدهم يتراشقون بتهم العمالة والخيانة لهذه الجهة او تلك. كل ذلك يجعل الوحدة الوطنية هشّة، قيد

الـتهديد او الانفجـار، إمـا بسبب الصراع الداخلي بين زعماء الطوائف على المناصـب والمكاسب، او عندما تهبّ الرياح والعواصف من الخارج، بفعل صراع القوى والمحاور او المدارس والمذاهب، السياسية او الاستراتيجية او العقائدية.

ولكن هذه هي تركيبة لبنان التي تجعل هويته الملتبسة منسوجة من المفارقات، بحـيث أن مـا يبدو ميزة، قد ينقلب لكي يمسي مشكلةً او آفة. فبسبب التعددية الطائفـية بـين المسيحيين والمسلمين، يمارس لبنان حرياته الديموقراطية، وليس لأن الـشعب اللبناني يحب الحرية أكثر من بقية الشعوب العربية، كما يخدع اللبنانيون أنفـسهم أو ينخدع به غيرهم؛ ولأن الدولة في لبنان ضعيفة، مترددة، تجاه سلطة الطوائـف وضغوط الخارج، نجحت المقاومة في لبنان، وليس لأن الشعب اللبناني شعب صامد ومقاوم أو منخرط في مشاريع التحرير.

مـن هنا لا ينبغي أن يخدعنا الكلام في لبنان على الشعارات والمواقف الداعية إلى دعم موقف الدولة في مواجهة منطق الطوائف. ذلك أن الكل، من هذا الفريق أو ذاك، يـسقطون في امـتحان الوطنية عندما يوضعون على محك التجربة، إذ أن الطائفة تكون مع الدولة أو تدافع عنها، عندما تعتبر ذلك يضمن تفوقها وامتيازاتها أو مـا تـتوهمه مـصلحتها، وبالعكس فهي تخرج على الدولة عندما يسود منطق المحاصصة والصراع على المناصب والمواقع والمكاسب[1].

هـذا مـا تثبته الوقائع تجربة بعد تجربة. فعندما طرح مشروع الزواج المدني للمداولـة العلنية، وهو مشروع لا يلغي تشريعات الطوائف، بل يترك الحرية للفرد أن يخـتار تنظـيم أحواله الشخصية، إما بحسب تشريعات طائفته أو وفقاً للقانون المدني، قد هبّ، الجميع هبة رجل واحد، ضد هذا المشروع، إكليركيين ومدنيين،

(1) لا يعنـي ذلـك، بالطبع، تعميم هذا الحكم الذي ينطبق، أكثر ما يكون، على زعماء الطوائف وقـياداتها الـسياسية والدينـية. ولكن هناك، في لبنان، أناس يمارسون النقد اتجاه طوائفهم وأحـزابهم، أو يخرجون على الإجماع الطائفي أو السياسي أو الحزبي. هذا مع الإشارة إلى الفـارق بـين سياسـي وآخر. ثمة سياسي يملك قدراً من الاستقلالية، وآخر ليس قراره ولا محـركات قـضيته بيده. كذلك هناك فارق بين سياسي يمارس نقد الذات ويملك القدرة على التغيير لإنتاج مواقف جديدة باتجاه التسوية، وآخر يحاور أو يحارب من غير أن يملك القدرة على الزحزحة عن ثوابته ومقدساته.

مسلمين ومسيحيين، بمن فيهم الذين كانوا يطلبون من اللبناني أن يعلن ولاءه لدولته قبل ولائه لطائفته، او الذين يرفعون اليوم لواء الدولة والسيادة. ومن هنا فإن بعض رجال الدين، قد هدّد يومها، بالنـــزول إلى الشارع. فكانت تلك طعنة موجّهة إلى منطق الدولة، ذلك أن بسط سلطة الدولة التشريعية على رعاياها، لا يقل أهمية عن بسط سلطة الدولة الأمنية على أراضيها.

وعلـــى هذا النحو جرى التعامل مع حركة 14 آذار التي انبثقت بعد اغتيال رئـــيس الحكـــومة رفـــيق الحريري، والتي جمعت بشكل تلقائي أناساً من مختلف المـــذاهب والمـــشارب، كما تجسد ذلك في التظاهرة الحاشدة التي سار فيها مئات الألوف من المواطنين. هذه الحركة شكلت نواة لديناميكية وطنية مجتمعية جديدة، خارقـــة لحواجز الطوائف، كانت تنتظر من يصوغ لها أطرها وتشريعاتها السياسية والمدنية. ولكن زعماء الطوائف كانوا، وما يزالون، مشغولين عن ذلك بصراعاتهم، بقـــدر مـــا يـــتحكم في عقولهم نظام المحاصصة الذي لا ينتج اليوم سوى طوائف تتحكّم في علاقاتها لغة الخوف او الاستبعاد او الاستقواء.

وهكـــذا فالكـــل يبدون الحرص على الدولة، فيما عين الواحد منهم، أقصد زعمـــاء الطوائف، على طائفته، بل على منصبه أو على رئاسته. فإذا قدر أن دعم الدولة يوصله إلى هدفه أو يضمن له مكانته أو منصبه، وقف معها ودافع عنها، وإن لم يكن، فإنه يعمل على انتهاك قوانينها أو عرقلة مشاريعها أو تعطيل مؤسساتها.

* * *

لا أنـــسى أن الاختلاف الطائفي الذي صنع فسحة الحرية في لبنان، هو غنى ونعمة او رحمة في اوقات السلم التي جعلت لبنان محط النظر للعرب وغير العرب، ولكـــنه كابوس او جحيم في اوقات التوتر وحالات الصدام، وذلك حيث تُستنفر العصبيات وتتحول الهويات الطائفية او المذهبية الى محميات عنصرية أو الى تكتّلات فاشية تسمّم نظام العيش، بقدر ما تعطّل الحياة السياسية والمدنية.

تلـــك هـــي حـــصيلة العمل السياسي بمنطق العصبيات المذهبية وحسابات المحاصصة الطائفية، وذلك حيث كل طائفة تغلب مصلحتها الخاصة على المصلحة العامـــة، أو تتوهم أن مصلحتها مناقضة لمصالح الطوائف الأخرى. وتلك هي مغبّة

نموذج المؤمن، ذي العقل المُقفل، الذي يغلّب انتماءه المذهبي او الطائفي على فكرة الدولـــة الراعية والوطن الجامع والبلد الآمن والمجتمع المفتوح والعالم الواسع. بكلام أصـــرح: ذلك هو المصير البائس للعمل تحت شعار الأسلمة، على هذا المذهب او ذاك، لتحويل الدين الى نظام شمولي يهيمن على مختلف مجالات الحياة: الصراع بين الطوائف والمذاهب، واستعداء الواحد للآخر، بالعمل على تشويه سمعته من خلال الصور النمطية المستقاة من الذاكرة الموتورة.

وهـــذا مـــا يحصل الآن، بين القوى والمعسكرات المتصادمة. فالتمترس وراء المواقـــف، والحـــرب الكلامية الضارية، والمتاريس الرمزية المنصوبة، وتبادل التهم والشتائم، والقطعان البشرية المستنفرة، تهدّد بتمزيق الوحدة الوطنية وتفجير الحرب الاهلية: الأمر الذي يجرنا لكي نصنع مآزقنا، بحيث نتنازع ونتصادم أو نتقاتل، على نحو يخرج قضيتنا من أيدينا لكي نصبح رهائن للغير.

وهكذا بات لبنان أرضاً خصبة للتدخلات الخارجية العربية والاجنبية، اذ كل طائفة او فئة تلوذ بمرجعيتها وتستقوي بها. ولهذا، عندما يصرخ البعض، في لبنان، في ظل اجواء التوتر السائدة التي تضع البلد على شفير الهاوية، ماذا يفعلون بنا؟ او الى ايـــن يأخذونـــنا؟ أقول، مع الاعتذار، هذا ما يستحقه الشعب اللبناني، وأقصد بـــذلك الـــتجمعات الطائفية والمذهبية، المنخرطة في العداء والصراع والاصطفاف والتخـــندق حتى الغلبة أو الإقصاء. أقصد إذن الحشود العمياء التي تمارس طقوس العـــبادة والتأليه لزعمائها وقادتها، لكي تمسي رهينة لاصحاب الاحلام المجنونة او الدعوات المستحيلة او المشاريع المشبوهة او الاستراتيجيات القاتلة والمدمرة...

هـــذه الظاهـــرة المتفاقمة، بفعل التشنّج الطائفي والتوتر السياسي، تصنع آلهة يمارســـون وحدانيـــتهم بصورة مضاعفة، كما هي عادة الزعماء التاريخيين والقادة الملهمين والابطال الاسطوريين، سيما وأن الشاشات تزيد، اليوم، لدى هؤلاء، من عيار النرجسية القاتلة.

ولكـــن الآلهـــة يحتاجون الى عبيد، هم الاتباع والانصار الذين يتجمعون في حـــشود عمـــياء تمارس طقوس التقديس والتعظيم، تجاه الزعيم الأوحد او السيد الرئيس او القائد البطل الذي يختم، بصوره وكلماته وألقابه، على عقولهم بقدر ما

يتصرفون كأدوات طيّعة للتنفيذ، لا كذوات مستقلة تفكر على سبيل المساءلة والمنافسة أو الاعتراض والمحاسبة.

وهذا ما يتقنه الجمهور المحتشد فعلاً في الساحات العامة، او المحتشد وهماً في البيوت امام الشاشات، على سبيل التحزب والتعصب: أن يصفق ويهلل عندما يطل قائده، أو أن ينتشي لرؤية صورته وسماع حديثه، أو أن يتماهى معه عند غيابه، بترداد خطبه وعباراته كنصوص منزلة؛ وبالعكس، فالجمهور ينذر ويتوعد، برفع القبضات، عندما يتحدث قائده عن خصومه بالرد والهجوم.

ولذا فما يبرز في التشكيل العنصري او الحشد الفاشي، ليس المطالب والعناوين او الحقوق والمصالح، بل التماهي مع الذات حتى الذوبان والانتشاء، او اقصاء الغير حتى الاستئصال الرمزي او المادي. اما مصالح العباد والبلاد فلتذهب الى الجحيم، لأن المهم والأولى، عندما نفكر بصورة طائفية، عنصرية فاشية، أن نرفع علماً أو نعبد صنماً أو نقدّس صورة أو نصنع ولياً... كما تتجسد العلاقة بين الزعيم وجمهوره او بين الرئيس وانصاره أو بين القائد وأتباعه او بين السيد وعبيده.

بذلك تنعكس الآية وتمسي اللعبة هي الرهان والنجوميةُ هي الحدث، بقدر ما تحل الصورة محل الواقع، والبلاغة محل المصداقية، والرمز محل المجتمع، والحزب محل الدولة، والزعيم محل الله، والاسطورة محل الحياة.

ولكن لا ينبغي أن ننخدع. للمسألة وجهها الآخر، نحن ازاء نفس العملة بوجهيها: فالقائد يصنع تابعه، وبالعكس، فالتابع يصنع بدوره قائده، كما العبد يصنع سيده. واذا كانت الحشود تؤله زعماءها وتتعبد لقادتها، فلكي تحيلهم بدورهم، بنوع من العبودية المزدوجة، الى عبيد لأسمائهم وألقابهم ومناصبهم، او الى نزواتهم وهواجسهم وتهويماتهم... والا كيف نفسر أن نحصد المآزق والخسائر والكوارث، مع كل هذا الحب والعشق للأهل والطائفة والوطن والأمة؟! وهذا هو مآل ممارسة أدوار الألوهة والقداسة والبطولة على المسرح: تواطؤ الأنداد على صناعة الدمار.

* * *

لا أنسى هنا أيضاً أن لبنان كان دوماً مفتوحاً على العالم العربي وعلى الافق الدولي، يمارس عروبته بصورة خلاّقة ومثمرة، يؤثر ويتأثر على سبيل التبادل، منذ

عصر النهضة حتى اللحظة الحاضرة، وفي موازاة ذلك كان لبنان يمارس دوماً عالميته بالافادة من المنجزات الحديثة ومواكبة تحوّلات العصر وفتوحاته، بصورة تُغني هويته والثقافة العربية. بهذا المعنى شكّل لبنان دوماً، كمنبر ونافذة وأفق، نموذجاً لممارسة الهـوية المركبة الغنية والبنّاءة بأبعادها المحلية والعربية والعالمية. فكيف ونحن ننخرط اليوم في واقع كوني يدخلنا في العصر العولمي المكَوْكب. فلا مجال إذاً للعزلة والعودة الى الوراء. إذ الكل مندرجون في الشأن الاقليمي والعالمي، بقدر ما تحول العالم الى ساحة واحدة، كما تشهد الاحداث البارزة والمعضلات الشائكة.

مـن هنا وجوه الخداع او الاستغفال في مطالبة لبنان أن لا ينعزل عن محيطه العربي أو الاسلامي، كما تطالب النخب الفاشلة والمعاقة فكرياً. لأن مآل مطالبهم، تحـت شـعار الممانعة والمقاومة والعمل الوطني، هو أن يمنع لبنان من أن تقوم له قائمـة، وأن يفقـد مـا يتميز به على الصعد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية من الغنى والانفتاح والتعدّد والديموقراطية، لكي يمسي على شاكلة البلدان والانظمـة الفقـيرة او المـتخلفة او المحافظة او المستبدة، او التي لا تحسن استثمار مقدراتها لكي تحسّن ظروف العيش لدى شعوبها.

إن الدول التي تخشى حرية التفكير والتعبير، والتي تمنع او لا تتيح انطلاق وتفتّح القـوى الحية والديناميكيات الخلاقة في بلدانها وأوطانها، إنما تعمل على تدمير مصادر القوة والمنعة لدى مجتمعاتها، كما هي حال الدول التي تخشى من تظاهرة صغيرة، او من بيان يصدره مثقفون، أو من نقد يوجهه مفكر للمجتمع والدين والثقافة.

وهكذا ليست المسألة أن ينتقل الواحد من المعسكر العربي الى المعسكر الاميركي، او من الصف الاسلامي الى الصف الغربي، إذ لا احد يتخلى عن هويته، كما نبسّط او نهـوّل. وإنما المسألة: كيف يمارس كل منا خصوصيته الوطنية او العربية او الدينية او الثقافية؟ ثمة نمطان: أن تُمارس بصورة فقيرة، عقيمة، كاريكاتورية، متحجّرة، عدوانية، استبدادية، مدمّرة؛ أو أن تمارس بالعكس، بصورة منفتحة، مرنة، متحولة، غنية، فعالة وراهنة. هذه هي حقاً المسألة: هل يعود لبنان عن عروبته الخلاّقة والبناءة، وعن إسلامه الوسطي التداولي، أو عن حداثته المبدعة والغنيّة، لكي يمارس عروبة فقيرة هدامة، أو إسلاماً تكفيرياً إرهابياً، او عالمية بالمقلوب تضعه في المؤخرة وعلى الهامش؟!

إن الـــرهان الآن للخروج من المأزق الذي نتخبّط فيه، هو العمل على كسر القـــوقعة الـــتي نتحصّن داخلها، لكي نُتقن مدّ الجسور وفنّ التواصل مع المختلف والآخـــر. وفـــيما يخصّ اللبنانيين، فالرهان هو أن يفكروا بتغيير نظامهم السياسي، الذي كان شغّالاً في ما مضى، ولكنه استنفد الآن نفسه ولم يعد يُنتج سوى المآزق والحـــروب الأهلية. والرهان هو أن يعملوا على بناء صيغة جديدة، بعقلانية مركّبة تتـــيح اجتـــراح أطـــر وقواعد، للتعاون والتضامن والتبادل، تتقلّص معها مخاوف الطوائـــف، ويقـــل تدخلها في الشأن العام، بقدر ما تتسّع مساحة المصالح العامّة، بعقلية المواطنة وقواعد الشراكة.

فـــلا يُجـــدي أن نحوّل هوياتنا الى زنـــزانات عقائدية او الى مصانع لانتاج الفِرقة والفِتن، في غير مكان وعلى غير ساحة، أو أن ننصب جدران الكره والحقد فـــيما بينـــنا، فيما تنكسر الحدود بين المجتمعات والقارات والثقافات، بفعل ثورة الاتـــصالات. وهكذا، فلا مجال بعد لإدارة شؤوننا والانخراط في زمننا، للمشاركة في صـــناعة العالم، بعقل مغلق، أحادي، أو اصطفائي، يولد كل هذا الدمار وهذه الدماء بعقولنا المفخخة وأيدينا الملطّخة.

ولذا، لم تعد القضية، سواء في لبنان او في العراق او في فلسطين،أو في أي بلد عـــربي يقـــع نهباً للصراعات، ان نعتصم بهوياتنا المذهبية او الطائفية او العرقية او الحزبية، لكي نحولها الى افخاخ ننصبها للآخر لكي نقع فيها. ولا هي أن ندافع عن خصوصياتنا على نحو مدمّر للذات والغير، أي ما يجرنا إلى تصفية قضايانا والتواطؤ مـــع مـــن ندعي محاربته أو مقاومته. فالقضية هي، ما دام لا انفكاك للواحد عن الآخر، كيف نخرج على منطق التعصب والاستبعاد والاستعداء أو النفي والصدام، لكي نفكر ونعمل، على اجتراح صيغ وقواعد وآليات من أجل بناء عالم مشترك، بمفردات المحاورة والمداولة والشفافية والاعتذار والتسوية والمبادلة... من غير ذلك لا نحصد إلا الخسائر والكوارث.

باختـــصار: ما نحتاج اليه هو تغيير انماط الرؤية وطريقة التفكير وقواعد العمل والبـــناء، بقدر ما نحتاج الى نماذج جديدة تفكر بعقلية الخلق والابتكار والتحول، بقدر ما تعمل بمنطق علائقي، وسطي، مدني، سلمي تبادلي.

القسم السادس

مصادر القوة ووجوهها

إيران ودورها الاقليمي
تصدير الثورة والاستحقاقات الداخلية[1]

أثارت الحرب على لبنان ومنه المناقشة، حول علاقة ايران بحزب الله، والدور الذي تلعبه على الساحة اللبنانية وفي المجال الاقليمي والدولي.

وبالطبع فقد اختلفت المواقف وتضاربت في هذا الخصوص، بين مؤيد لدورها ومعـــارض، باخـــتلاف الميول والاتجاهات السياسية والايديولوجية أو باختلاف الاعتبارات القومية والطائفية.

وايران ليست في نظري واحدة او وحيدة الجانب، وإنما هي متعددة بأطوارها ووجـــوهها ومعانـــيها ورمـــوزها وأثـــرها، وذلك بتعدد أو اختلاف أو بانقسام واصطراع فئاتها وتياراتها وقواها ومشروعياتها وسلطاتها وزعمائها، شأنها شأن أي بلد يملك قدراً من الحيوية الفكرية والسياسية، أو من الغنى والتنوع في معطياته وفي تصوراته لنفسه وهويته أو لواقعه وأزمته أو لمكانته ودوره.

هـــناك ايـــران الـــبلد العريق في الحضارة والذي كان له، كما هو معروف، اسهامه الكبير في بناء صرح الحضارة العربية والإسلامية، خاصة في مجالات العلوم والمعـــارف؛ وهناك إيران الثورة الراهنة التي أنهت العهد الملكي الشاهنشاهي لكي تقـــيم جمهورية، ولكن تحت عباءة الفقيه الذي يمارس سلطة لاهوتية اوتوقراطية. وهناك إيران الدعاة والحوزات الدينية بدراستها الفقهية والكلامية، مقابل ايران التي هي أرض الفلسفة، إذ ظهر فيها مشاهير الأعلام كإبن سينا والغزالي والسهروردي والطوســـي والشيرازي، فضلاً عن مذاهبها الفكرية القديمة السابقة على الإسلام،

---

(1) هذه المقالة هي توسيع لمقالتي حول الدور الايراني، وقد نُشرت في مجلة "المجلة" بُعيد حرب تموز 2006.

كالزرادشتية، وخاصة المجوسية التي هي مذهب إنساني، كما وصفها "إخوان الصفاء" في العصر العباسي.

ولا أنسى إيران الشعراء كجلال الدين الرومي الذي عاش لكي يموت ثملاً بالعشق، بعكس الإستراتيجي الذي يهمّه النصر وسط الركام. وأخيراً لا آخراً، هناك ايران الابتكار، كما تمثل ذلك في "السجادة" التي هي معجزتها الصناعية والفنية؛ وهناك على صعيد آخر إيران البلد المنتج للنفط الذي أصبح، اليوم، مجالاً للصراع من جانب الدول الغربية، كباقي الدول المنتجة والمصدرة للذهب الاسود.

واذا شئت اختصارها في لحظتنا المعاصرة والراهنة، أقول هناك إيران الإمام الخميني والمرشد الخامنئي والرئيس أحمدي نجاد، الثورية الأصولية التي تستمد مشروعيتها من معتقدها الإسلامي وبرنامجها الديني، مقابل إيران الرئيس خاتمي والشيخ محمد شبستري والمفكر عبد الكريم سروش والكاتب عطاء الله مهاجراني، التي هي إصلاحية ديموقراطية، وسطية، نقدية تجاه الذات والإسلام قبل الغير والغرب[1].

قد لا يكون أحدنا مع إيران الأصولية الجهادية الباحثة عن دور إقليمي، تماماً كما لا يمكن أن يكون مع أميركا الإنجيلية البوشية التي تمارس دورها الإمبراطوري

---

(1) ثمة فارق بين الوجهين، على الاقل بالنسبة للتعامل مع لبنان. فعندما أتى الرئيس السابق محمد خاتمي الى لبنان، في زيارته الاخيرة له، تحدث عنه كما لو أنه الشاعر الكبير سعيد عقل، إذ قال بما معناه: لبنان درة يجب المحافظة عليه. أما الرئيس أحمدي نجاد، فإنه فيما كان لبنان يدك على رؤوس بنيه، في الحرب الاخيرة، كان همّه أن يحذر إسرائيل من توسيع الاعتداء حتى لا يشمل سوريا، لأن لبنان لا يعني له سوى موقع للتدخل او ساحة للمواجهة الدولية أو ورقة للمفاوضة مع الولايات المتحدة، عبر حزب الله. ولا اعتقد أن سوريا تعني له اكثر من ذلك.

وهذا شأن الاستراتيجيين والدبلوماسيين الايرانيين في تعاملهم مع لبنان، من علي أكبر ولايتي إلى منو شهر متقي. ما يهمهم هو علاقتهم بحزب الله وما يمارسه من أدوار أو يناله من حصص. وكان تصريح ولايتي اثناء اتفاقات نيسان 1996 شاهداً فاضحاً على ذلك، إذ بعد إبرامها، خرج ولايتي لكي يصرح تصريح الأصيل عن الوكيل، بأنه سيكون لحزب الله دور أكبر في لبنان، وذلك قبل أن يجري دفن ضحايا مجزرة قانا الأولى. بذلك يستوي الإيراني مع الأميركي، من حيث الاهتمام بالمواقع والحصص، او من حيث تحويل الأهداف والمبادئ إلى مجرد ذرائع.

بوصفها وصية على الشأن العالمي والكوني. بهذا المعنى، فأنا أميل إلى إيران الشعراء والفلاسفة وأصحاب الابتكارات وذوي العقول النقدية من المفكرين الذين يعملون على تطوير العلوم وتجديد المعارف حول العالم أكانت دنيوية أم دينية. فهذا أحوج ما تحتاج إليه الشعوب الإسلامية، إذ ما جدوى الاهتمام بالصناعة النووية إذا لم نكن منتجين للمعارف والعلوم؟! بهذا المعنى، أيضاً، فأنا مع أميركا المنتجة في فروع المعرفة ومجالات الفكر، كما أنني مع أميركا التعددية الديموقراطية التي تسمح لواحد من ألمع أساتذتها وعلمائها، هو نعوم تشومسكي، ان يأتي الى لبنان لكي يدعم حزب الله، او لكي يحمل على سياسة بلده الى حدّ المروق والخروج، ولكن من غير مساءلة أو اعتراض. وما أعتقده أن دولنا ومجتمعاتنا، بل ثقافتنا، تصبح أكثر قوة ومنَعة وأقدر على المواجهة والممانعة، عندما تتيح التعبير عن آراء المعارضين والمارقين او المنشقين.

وهذا ما لا يُتاح في اكثر البلدان العربية، كما لا تتيحه إيران الأصولية التي تعمل على الالتفاف على النظام الجمهوري لكي تقلص مساحات التمثيل والتعبير وتحول الديموقراطية الى اجراءات شكلية.

ومن المفارقات في هذا الخصوص ان الكثيرين من المثقفين العرب والغربيين يدعمون أنظمة وقوى لا يطيقون العيش لحظة واحدة تحت سلطتها، أو يريدون للبنان أن ينخرط في مشاريع وبرامج وخطط، على النحو الذي يجعله ساحة سائبة او مستباحة، مما لا يجرأون على فعله أو المطالبة به في بلدانهم، بل هم لو طالبوا به في طهران أو دمشق أو القاهرة أو عمان او الرياض او باريس، لعُدّوا خونة وسيقوا الى السجون، على ما هو موقفهم من الدور الاستراتيجي الإيراني الذي هو عندهم موضع الثناء والتقدير.

وهذا الدور الإستراتيجي الذي تحاول إيران أن تلعبه يرمي إلى إعادة ترتيب أوضاع منطقة الشرق الاوسط، بإعادة رسم خارطتها السياسية والجغرافية او الطائفية والمجتمعية، سواء بتدخلها في العراق، أو بتحالفها مع سوريا، أو بدعمها لحماس، وبخاصة بتبنيها لحزب الله ومدّه بالمال والعتاد، بالاضافة إلى اشتغالها بالتخصيب النووي الذي غدا منذ فترة قضية ساخنة على المسرح الدولي.

فمـــا هـــي حـــصيلة هـــذا الدور الاستراتيجي؟ لا أراني أظلم إيران الثورية والأصولية، إذ أقول بأن الحصيلة ستكون الإخفاق الذي هو الوجه الآخر لإخفاق المـــشروع الإســـلامي الذي يستمد منه الدور الإقليمي مشروعيته. ذلك أن هذا المـــشروع الذي طرح كحل وبديل، بعد إخفاق المشروع القومي، وفشل البرنامج الاشـــتراكي الـــذي ولد أصلاً ميتاً، قد آل، بمختلف نسخه وشعاراته، إلى إخفاق مضاعف، حيث طبق أو جرب في إيران أو في خارجها، إذ هو أعاد إنتاج التخلف والفساد والاستبداد، أو تحوّل إلى مصنع للإرهاب أو شكل عامل تمزق واضطراب داخـــل المجتمعات الإسلامية، والأفظع أنه آل ببعضها إلى إشعال الفتن الأهلية. ولا عجـــب أن يكون الأمر كذلك، إذ لا مجال لبناء حياة أو صناعة مستقبل، بأدوات قديمـــة مـــن الدعـــوات والـــنماذج والتقاليد أو الأحكام المستهلكة أو البائدة أو المستحيلة[1].

وهذا مآل الدور الاستراتيجي، فإنه سوف يرتد في النهاية على أصحابه ومنظّريه، ليعطي مردوده العكسي. ولعل الثورة الإيرانية تكرر في هذا الخصوص ما فعلته الثورات في دول العالم الثالث وأنظمة حركات التحرر الوطني، من حيث الاهتمام بالخارج قبل الـــداخل، أو تصدير الثورة والعقيدة على حساب مصالح الناس وحقوقهم ومطالبهم المعيشية. هذا ما تفعله إيران، وعلى غرار ما فعلته الثورة الناصرية من قبل، لكي تفوت علـــى مجتمعها فرصاً حضارية[2]، بقدر ما تحاول الهروب من الاستحقاقات الداخلية المتعلقة بقضايا الإصلاح والتنمية وتحسين شروط الحياة.

---

(1) وهـــا هو الرئيس الايراني أحمدي نجاد يقدّم شاهداً على طريقته الملغومة في التفكير. إذ هو دعـــا مؤخراً، وكما قرأنا تصريحاته المفاجئة والمتقلّبة، الى محو قرن ونصف من مسارات التحديث وأبنيته في العالم الاسلامي. وهذه الدعوة المستحيلة، والتي من قبيل العبث والجنون، مآلهـــا تخـــريب المجـــتمعات الاسلامية. هذا ما يدركه أيّ عاقل. لأنه لو حاولنا تجريد هذه المجـــتمعات من التأثيرات البُنيوية والكيانية التي أحدثها الغرب الحديث، في حياتهم ومعاشهم وثقافتهم، سواء في العلوم والمعارف او في السلع والخدمات او في الاسلحة والتقنيات او في الـــنظم الجمهورية والقيَم الديموقراطية، فضلاً عن الرموز والازياء والألقاب، لما بقي عندهم مـــا يواصـــلون به اسباب العيش، او ما يدافعون به عن انفسهم، سوى افكار بائدة او انظمة عاجزة او اسلحة مفلولة...

(2) هذا ما أخذه الأديب الكبير الراحل نجيب محفوظ على ثورة يوليو 1952، كما جاء في حوار أجراه معه الروائي جمال الغيطاني في مجلة (أخبار الأدب).

وهـــذا شأن الثورات كما علمتنا التجارب. فحسنتها الوحيدة، السلبية، هي تقـــويض انظمة إستبدادية، ولكنها لا تنجح في بناء حياة جديدة، بل ما تنجح فيه غالباً، هو الارتداد على مبادئها واهدافها، لكي تمارس الإرهاب بدلاً من الإستبداد، وتعـــود بالبلاد والعباد إلى الوراء، خاصة اذا كانت تفكر بطريقة اصولية تراجعية، لأن بناء المجتمعات يحتاج الى الجديد من العناوين والمفاهيم والمعايير والاساليب.

في أي حـــال، ها هي نتائج الحرب في لبنان تقدم الشاهد على إخفاق الدور الاقليمي للتدخل الايراني. لأن نتائج هذه الحرب تخالف كل ما طرح من الاهداف والمطالـــب، فـــلا هي حررت اسرى، ولا استردّت أرضاً، ولا لأمت جراحاً، بل ســـبّبت المزيد من النـــزف؛ كذلك فهي لم تسترد أرضاً، بل سبّبت قتلاً وتشريداً ودمـــاراً، وحـــولت بعض اللبنانيين، وبالأخص شيعتهم[1]، إلى منكوبين، بل إلى متـــسولين على أعتاب الدول، بعد أن كانوا أثرياء، بما جنوه عبر العمل لسنوات طويلة في المهاجر والمغتربات.

---

(1) صـــحيح أن ايـــران تدعم المنظمات الاصولية السنّية. ذلك انها تتصرف كدولة لها مصالحها واســـتراتيجيتها، او كشعب عريق في لغته ومجتمعه وحضارته، مما يعني تغلب الاعتبارات السياسية والاستراتيجية والقومية، ليس فقط على الاعتبارات الدينية، بل المذهبية ايضاً. وذلك الـــى الحـــد الـــذي تبدو معه العلاقة بالدين او المذهب، علاقة توظيف واستعمال سياسي او اســـتراتيجي. وهـــذا ما يفسر الصراعات العرقية والاثنية بين عرب وفرس، منذ القدم حتى الـــيوم، داخـــل العـــالم الشيعي. ولعلّ هذا هو نمط العلاقة في العالم السنّي بين تركيا والسنّة العـــرب، إنهـــا تـــبدو مجرد قشرة ايديولوجية لا تحجب في أكثر الاحيان، الفروقات القومية واللغوية والثقافية. وإذا كانت الشعوب الاسلامية، غير العربية، قد اعتنقت الاسلام، وساهمت في بنائه وازدهاره وتوسعه، فإن ذلك لا يمحو خصوصياتها ووضعياتها كشعوب ومجتمعات ودول لها تواريخها وتراثاتها وثقافاتها الفرعية او الاصلية. ولذا، كان من الطبيعي أن تكون لهـــذه الـــشعوب ردات فعلهـــا تجـــاه مـــا مارسه العرب، بإسم الدين، من الهيمنة والتوسع الاستعماري او الامبراطوري، اللغوي او العسكري او العقائدي.

وقـــد تجلـــت هـــذه الردود، بأشكال مختلفة، أهمها المزايدة في الدفاع عن العقيدة والشريعة، والمغالاة في التقديس والتعظيم في الممارسات الدينية. بذلك اعاد المسلمون غير العرب إنتاج الاسلام، ليس فقط عبر مصافي لغاتهم وثقافاتهم وتراثاتهم وتقاليدهم، على سبيل الإغناء، بل ايـــضاً بـــصورة فـــيها الكثيـــر من التشدّد والتطرف. تشهد على ذلك اسماؤهم، مثل رباني وســـبحاني وشريعتي وخاتمي، أو مثل روح الله وامير الله او قدرة الله، فيما العرب يسمون عـــبدالله او عبد القادر او عبد الرحمن... هكذا فقد ذهب العرب الى العالم، وبحسب منطوق دعوتهم، كرُسُل لله، فعاد اليهم الذين اعتنقوا الاسلام كآلهة.

بلا غرابة. فلا يمكن لمن هو افضل حالاً، من حيث ثروته او سياسته او نظامه الليبرالي أو انفتاحه الثقافي، كما هي حال لبنان، أن يفيد من غيره من البلدان التي هي متأخرة عنه على الصعد الحضارية. فمَن لا يحسِن العمل لمصلحة شعبه وتقدم بلده، لن ينتج دعمه لبلد آخر غنًى ونفعاً او تقدماً.

طبعاً هناك من يتحدث عن النصر المبين، ربما من فرط الحاجة إليه، وكل واحد له حاجته الخاصة، ولكن الكل يؤكدون على النصر، وكأنهم ينفونه، سواء عندنا في لبنان، أو في طهران، أو لدى بوش في أميركا، أو حتى في إسرائيل، لأن النصر بات متعذراً في هذا العصر، بقدر ما اصبح الحسْم مستحيلاً، في واقع كوني يتّصف بالتسارع والسيولة والانفلات والتشابك المتزايد، من حيث حركته وإيقاعه وحدوده ومنتجاته وأنظمته. الممكن هو الدمار المتبادَل كما تشهد الحروب في غير مكان.

فما كان أغنانا عن ذلك كله، بعد أن تحررت الأرض عام 2000، واحتفي يومئذ بالنصر الحقيقي؟

وما كان أغنى إيران عن ذلك، لو اهتمت بشأنها الداخلي، لأن شعبها هو أحوج ما يكون الى الأموال التي تم صرفها في الخارج، على مدى ربع قرن؟ أما لبنان، فإنه بالرغم من كل الحروب، قد بقي، باستثناء دول الخليج، وما زال الأغنى بين الدول العربية والاسلامية، بما فيها إيران. فما الداعي لأن يكون لبنان قاعدة عسكرية، وحده من دون سواه، نيابة عن كل العرب وعن الذين يمارسون الوصاية القومية القومية او الدينية على شؤون الأمة؟! وما الجدوى، بعد تحرير معظم ارضه، ان يكون رأس حربة تبقي فيه الحياة معلّقة بين حربين او فتنتين؟! وما الذي يجنيه، وهو البلد الصغير، في أن يكون قوّة اقليمية عظمى؟! هل لكي ينوب عن القاعدين والمتفرّجين والمصفّقين والمهلّلين من على بُعد؟! أم لكي يُشبع حاجة نفسية في هذا البلد العربي او ذلك البلد الاسلامي، لدى اصحاب الوعي المأزوم والذاكرة المثخنة بالجراح من فرط الهزائم؟! أليس الأولى بعد كل هذه الحروب والمقاومات والاجتياحات أن يكون بلداً مدوّلاً، منزوع السلاح، تحت خيمة الأمم المتحدة وقواها؟! وها هي التجارب المرة تثبت، معركة بعد معركة، أن اللبنانيين عاجزون عن حكم أنفسهم، من دون خيمة دولية أو اقليمية أو دولية. ولو تركوا لصراعاتهم وانقساماتهم لتقاتلوا وتشرذموا. والتدويل ليس بجديد أو مبتدع. فلبنان منذ تشكل، كان نتيجة تسويات داخلية

وخارجية، عربية ودولية. فماذا ينفعه أن يكون قوة اقليمية عظمى مادام أبناؤه عاجزين عـــن الاتفـــاق على أمورهم المشتركة، تماماً كما أنه ماذا ينفع بلد من البلدان امتلاك سلاح نووي، إذا كان عاجزاً عن حل مشكلات الفساد والفقر في الداخل؟!

حقـــاً مـــا الموجب وما الجدوى ان يكون لبنان وحده، بلداً مقاوماً وساحة مواجهة ما دامت المهمة قومية أو اسلامية؟! إنه لظلم وقهر للبنان أن يحمل العبء وحـــده عـــن الكلّ، لكي يقع ضحية عجز العرب او استبدادهم، او ليقع فريسة نرجسية الاصوليين الاسلاميين وارهابهم. فهل ندمّر بلداً او نمزّق مجتمعاً لكي نغسل عـــاراً او نصنع بطلاً؟! وكأن المطلوب من لبنان لا ان يسترد ارضاً، بل أن يخترع ارضاً محتلّة لكي يستمر في المقاومة التي غدت ذريعة لحسابات ورهانات ومهام لا تعني اكثرية اللبنانيين، بعد أن ثبت أنها حسابات خاطئة أو رهانات ملغومة أو مهام مستحيلة ومدمرة. وكأن الذين يدعمون المقاومة من الخارج، وعلى رأسهم ايران، يحبّون لبنان حتى القتل، أو يريدون له أن يتحول إلى بلد بائس فقير، كما هي حال معظم الدول العربية والإسلامية، إذا استثنينا دول الخليج العربي.

هـــل أتـــدخل في الشأن الايراني؟ إذا كان لإيران أن تُعنى بقضايانا، من باب الـــروابط الـــتي تجمع بين البلدان الاسلامية، فأنا أُعنى بشأنها، ليس فقط من هذا الـــباب، ولا بالطبع من باب أضيق على ما يتعامل معها أهل العصبيات القومية أو الطائفـــية، بـــل اعنى بقضاياها من الباب الأوسع، الذي هو الافق العالمي والعصر الكـــوكبي، عصر الشبكات والتأثيرات المتبادلة والثقافات العابرة للقارات، وذلك حـــيث بـــات من المستحيل العزلة الخانقة او المميتة، وحيث اصبح جائزاً، بموجب الحـــق الكـــوني، أن يتدخل الكل في شأن الكل، ما دامت المصائر والمصالح باتت متشابكة، إلى حدّ يجعل من يضر غيره يضر نفسه، وبالعكس.

وما أراه، من هذا المنطلق، أنه لا مصداقية لنظام أو بلد خارج حدوده إذا لم ينجح في صناعة الحياة على أرضه. وإذا كان لإيران أن تبني قوتها، فهذا شأنها، بل حقهـــا، علـــى قدم المساواة مع بقية الأمم. ولكن ليس بأن نكون نحن وكلاءها العقائـــديين أو أدواتها الاستراتيجية، ولا بأن يتم ذلك على حسابنا، كلبنانيين، ولا حتى على حساب الشعب الايراني نفسه بهدر أمواله على مشاريع وبرامج وتحالفات ليس له فيها كبير فائدة.

لا أعتقد أن إيران تحتاج، لكي تتقدم وتزدهر، إلى تقنية نووية، كما لا نحتاج نحـــن في لبنان، الى أن نكون قوة اقليمية عُظمى. كان الاتحاد السوفياتي قوةً نووية وكونـــية عُظمى في مواجهة الولايات المتحدة. ولكنه انهار مع ذلك، بعد أن سقط نموذجه في البناء او استُنفد، لكي يتحوّل النظام السائد، في نظر شعوبه، الى كابوس يجـــثم على العقول والاجساد. وها هي اميركا تتورّط وتتخبّط من فرط ادّعاءات القـــوة وممارسة الغطرسة. صحيح أن بعض الدول الغربية، الديموقراطية والليبرالية، تملـــك تقنـــيات نـــووية، ولكـــنها لم تسقط، لأن نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتـــصادي، ما زال يملك بعض المصداقية والفاعلية. وعندما يُستنفَد هذا النظام لا تعـــود القـــوة النووية تُجدي نفعاً في مواجهة الخارج. ولكن أقلّ ما تفعله المجتمعات الغـــربية الديموقراطية، هو تسليط الضوء على الآفات والاخطاء، لدرسها ومعالجتها، على عكس ما يجري في الدول الشمولية، العلمانية او الدينية، حيث القاعدة هي التستّر على الاخطاء والمساوئ، لكي تفعل فعلها بصورة مضاعفة فساداً او استبداداً.

ثم إن القـــوة لا تـــصنعها الـــيوم فقط الأسلحة والجيوش والصواريخ والترسانة النووية، أو إرادة الهيمنة والغطرسة، إنما يصنعها بالدرجة الأولى القادرون على خلق ما تحـــتاج إلـــيه مـــشاريع النهوض والإصلاح والتحديث والتنمية والسلم من اجتراح المعادلات والصيغ والأطر والشبكات والأسواق والأدوات. ولا أعتقد أن إيران حققت نجاحات لافتة على هذا الصعيد. أما النشاط النووي، فهو خطر ومرعب، حتى لو كان مخصصاً للأغراض السلمية. وما يؤمل هو أن يأتي زمن تدمر فيه أسلحة الدمار الشامل من على سطح الكوكب، كي لا نحرق الأرض بمن فيها وما عليها.

فالأوْلى إذن، أن ما يصرف من جهود وأموال على النشاط النووي الخطر، أن يـــصرف على الإنسان والبيئة، أو أن يوظف في مشاريع تنقذ من الفقر والتخلف الأقاليم النائية والمناطق المهمشة والعوالم السفلية في إيران، وذلك بالاشتغال بأعمال النمو والبناء والتقدم الاقتصادي والحضاري، بدلاً من هذا الفيض من الكلام على الاصطفاء العقائدي والنقاء الثقافي.

إن الأمم التي تتصدر الواجهة، عبر المشاركة في صناعة الحضارة وممارسة القوة الهادئة، هي التي تنخرط في ورشة الخلق والإنتاج، في مجال من مجالات الحياة، أو في مـــيدان مـــن مـــيادين الابـــتكار والابتداع. وما يبدعه الايراني، اليوم، في المجال

السينمائي، الذي يقف منه المحافظون مواقف السلب او العداء، له مردوده الايجابي وأثره الجميل أكثر من حرب العقائد وتكديس الاسلحة[1]. وبالطبع هذا شأن كل مـــا يُبتكر ويُصنع ويجري تداوله في العالم، أكان نصاً أم ديواناً أم نظريةً أم أداةً أم

(1) عـــندما أرسل مرشد الثورة الايرانية الامام الخميني رسالته المشهورة الى الزعيم السوفياتي ميخائيل غورباتشوف، ليقول له فيها، بما معناه: إذا كنتم عازمين على الاصلاح وإعادة البناء بـــتجديد الفكـــر، فلـــيس من الضروري أن يكون الغرب مرجعكم الوحيد فكرياً، بل بوسعكم الـــرجوع الـــى التـــراث الفكري الاسلامي، للافادة من مصادره واعلامه، وذكر في رسالته اســـماء الفارابي وابن سينا والشيرازي وغيرهم... ومن اللافت هنا ان الخميني، كان، بعكس تيار السلفيين وأهل الحديث، من حيث موقفه من اهل الفلسفة والتصوّف، إذ هو يثني عليهم، بل هو صاحب تجارب وكتابات ذات طابع صوفي عرفاني.

والمهـــم في هذه الحكاية انني قلت يومئذ لأحد المتحمّسين للثورة الايرانية، إن ايران تصرف الكثيـــر على النواحي السياسية والعسكرية، فلماذا لا تدعم المشاريع الثقافية، بالمعنى الواسع للـــثقافة، ولـــيس بمعـــناها العقائدي الضيّق؟ وما فكرت به يومئذ، على سبيل التمني، لو أن الخميني يولي الاهتمام لانشاء مركز للبحث والترجمة، يُكرّس لنقلّ اعلام الفلسفة والصوفية، من الفارسية والعربية الى اللغات الحية، الانكليزية والفرنسية والالمانية والاسبانية والروسية، وكـــذلك الصينية واليابانية، فذلك اجدى من الكلام على الغزو الثقافي، لأنه يشكل غزواً ليس بالمعنـــى العـــسكري او البربـــري، بل غزو مضاد وفتح مبين، أقصد الغزو الجميل المتعلق بانتشار الافكار وتداولها على المستوى العالمي، على سبيل التعارف والتبادل.

ومـــن الشواهد الحية ما نقرأه اليوم حول الشاعر الصوفي الكبير، جلال الدين الرومي، الذي تحتفي به الاوساط الثقافية العالمية، وكيف أن نصوصه المترجمة من الفارسية الى الانكليزية تلقـــى رواجاً منقطع النظير في الولايات المتحدة بالذات، لكي تقدم صورة مشرقة عن الثقافة الايرانية وعن الحضارة الاسلامية في عصور ازدهارها.

مـــثل هـــذه الآثـــار الرائعة، التي تتحدث بلغة البوح والوجد والعشق، والتي يتماهى فيها نموذج الصوفي والعارف، مع المختلف والضد، وربما مع العدو، تفتح آفاقاً جديدة امام التواصل السلمي والحـــضاري بين البشر، بقدر ما تسهم في تشكيل هويات هجينة، تعددية، مركبة لمواجهة الثقافة الايديولوجـــية الاصـــطفائية او الحديدية والعسكرية. هذا وجه من وجوه القوة الناعمة يترك أثره الطيب والبنّاء في العقول أكثر بكثير من ترسانة الصواريخ وحشد الاساطيل.

أعـــرف ان الـــولايات المـــتحدة وســـواها من القوى العظمى، إنما تستخدم القوة في معالجة المـــشكلات العالمية، وتحاول احتكار السلاح النووي. ولكن اميركا هي منتجة ومصدّرة في حقـــول الادب والفـــن والعلـــم والافكار والمعلومات والبرامج، أي تفعل وتؤثر بوصفها قوة ناعمـــة، كما تفعل وتؤثر بوصفها قوة اقتصادية او سياسية. والأهم من ذلك أن استخدام القوة العارية، في هذا الزمن، زمن التشابك والتداخل في المصالح والمصائر، ليس فيه نفع او غنى او حـــياة، بـــل هو يرتد على اصحابها، ويصنع لهم الكمائن والمآزق، او يجرهم الى الهلاك والخـــراب. أشير إلى أن مصطلح القوة الناعمة، قد ابتكره، قبل سنوات، الأميركي جوزيف س. نـــاي، ثـــم خصص محاولة مستقلة لتطوير المفهوم وإغنائه، راجع كتابه، القوة الناعمة، ترجمة محمد البجيرمي، وعبد العزيز الثنيان، مكتبة العبيكان، الرياض، 2007.

سلعةً أم ماركة مسجّلة أم قاعدةً للحياة فعّالة وصالحة، إنما يُخرج صاحبه او بلده من العزلة والهامشية إلى الحضور والفاعلية. وإذا كانت إيران قد ابتكرت في ماضيها في غير مجال، فما يُنتظر، اليوم هو أن تبتكر ما به تمارس حضورها وفاعليتها على مسرح الأمم بصورة إيجابية وبنّاءة. فهذا هو محك الجدارة والمشروعية، وتلك هي لغة العصر.

ولو قدّر لإيران ان تنجح في ذلك، وهي قادرة، عندما تفكر بنزع عباءتها الأصولية والتحرر من عقدها الثورية، بحيث يجري العمل على إطلاق القوى الحية والديناميكية للمجتمع الإيراني، لكي يمارس حيويته الفكرية، كل في مجاله وحقل عمله، على سبيل الانتاج والابداع، كما فعلت شعوب مرت بالتجارب المرة، بعد أن اوصلتها العقائد الثورية إلى الكوارث والمآزق، ولكنها غيرت لكي تتقن لغة الخلق والتحول، وتنتج ما به تشارك في صناعة العالم. هذا ما فعلته الصين بعد ماوتسي تونغ. وهذا ما تفعله الآن المجتمعات الحيّة والغنية، في غير مكان.

وعندما تنجح إيران في بناء نموذجها الحضاري والتنموي أو المدني والسياسي، بابتكار لغات واطر وقيم وادوات لحياة جديدة ومجتمع مغاير، لا تعود تحتاج الى أن تأتي إلينا أو أن تلعب على ساحتنا، بل تصبح بالنسبة الينا محط النظر، كما هو شأن ماليزيا، نستلهم نموذجها وندرس أسرار نجاحها ونفيد من ابتكاراتها وننتفع بمساعداتها، كما نتطلع إلى زيارتها. عندما تنجح بخلق ما يُعَدُّ نموذجاً ومثالاً او خلقاً وابداعاً، تفيد شعبها وتغني عالمها الاسلامي، كما يفيد منها العالم الأوسع، من غير طنطنة عقائدية أو قعقعة إستراتيجية أو صناعة نووية.

ولعل هذا هو الرهان الآن: التسابق والتنافس في مجال الانتاج والابداع، بما يحتاج اليه الناس مما هو نافع وملائم او حسن وقيّم. هناك رهان معاكس عسكري، لدى بوش وأولمرت أو لدى ابن لادن وأحمدي نجاد، ومن يقف وراءهم من المفكرين المحافظين والاستراتيجيين الاصوليين. ولكنه ليس رهان الحياة والمستقبل، كما نعاني ونذوق الويلات والمآسي، دماراً متبادلاً، يتواطأ فيه الأضداد على صناعة الخراب.

لنقرأ جيداً الواقع الكوني الجديد: إن القوة والهيمنة والاحتكار والصدام والغزوَ، كل ذلك لم يعد يجلب امناً او يصنع سلاماً او يصون هويةً، كما تشهد

الـــتجارب المريرة والازمات المتلاحقة. والشواهد على ذلك بليغة. لقد اعلن بوش الحـــرب على الارهاب، فإذا به يفتح ابواب جهنم في غير مكان. وهذه حال ابن لادن الذي اعلن الحرب على اميركا، فإذا بها تعود وبالاً على المسلمين. وهذه حال اســـرائيل، بمنطقها العنصري، العدواني والاستيطاني: إنها لا تحلّ مشكلةً، بل تنتقل من مأزق الى مأزق، بل من حماقة تاريخية الى حماقة تاريخية. هذا ما تشهد به حرب لبـــنان التي ارتدّت ضدها، وبصورة لم تكن تتوقعها، تماماً كما ان حشد المقاومة وحلفاءها لصواريخهم، قد ارتدّ على لبنان خراباً لم يكن متوقّعاً.

وهذا هو المآل في عصر طغيان الألوهة وفقدان السيادة، كما يتجلّى ذلك في عجز الانسان المتزايد عن التيقّن او عن القبض والتحكّم، أو عن تدبّر الازمات التي تتـــراكم مشكلةً بعد مشكلة. وهذا بالذات ما يفسر تآكل الثقة من جانب الناس الـــيوم تجـــاه البرامج السياسية أو المشاريع الايديولوجية. ولذا لم تعد القضية هي تكديس السلاح النووي او تخزين السلاح الجرثومي، لأن المشكلة تكمن في العقول المفخّخة والعقلانيات القاصرة، وتكمن في الخطط الجهنمية والاحلام المجنونة، بقدر ما تتجسّم في أفخاخ الهويات وامزاض العقائد الاصطفائية.

التجربة التركية:
ديناميكية فكرية جديدة[1]

مقدمة

كـــان من المفترض أن يصدر هذا الكتاب في ربيع العام 2007. ولكنه تأخر حـــتى أوائـــل هذا العام 2008. ولذا إرتأيت أن أضم الى فصوله هذه المقالة، التي نُشرت في صيف العام المنصرم، بحيث تشكل قسماً مستقلاً، مع المقالة حول ايران ودورها الاستراتيجي.

ومـــن الواضح أن المقارنة هنا بين الدولتين أو بين نمطي الحكم يبيّن الفرق بـــين سياســـتين او بـــين استراتيجيتين في ادارة الشأن العام وفي صناعة القوة واستخدامها.

ففي ايران الاصولية الساعية الى تصدير العقيدة والثورة، والباحثة عن دور اقليمـــي ودولي، عبر الانخراط او التدخل في الصراعات الدائرة، سواء في العراق او في لبنان او في غزة، او في غير مكان، إنما ينصب الاهتمام على امتلاك التقنية الـــنووية واســـتخدام القوة العسكرية بقدر ما يجري التوجه نحو الخارج، ولكن علـــى حـــساب الـــداخل، بمـــا يشبه الهروب من مواجهة التحديات المتعلقة باستحقاقات الاصلاح والتنمية والحداثة. والحصيلة هي انهم يهدرون الثروات او على الاقل يسيئون استخدامها ولا يحسنون استثمارها لمصلحة الشعب الايراني، كمـــا تـــشهد البيانات والاحصاءات حول تدنّي مستوى العيش لدى شرائح واسعة.

---

(1) نـــشرت المقالـــة على حلقتين في جريدة "السفير" يومي 17 و18 آب 2007، تحت العنوان الآتي: "التجربة التركية: صيغة مركبة وهوية هجينة.

أمـــا في تـــركيا فـــإنهم يعملون على خطين. فهم لا يتخلون عن بناء القوة العسكرية، ولكنهم يهتمون بالدرجة الاولى بالبناء الاقتصادي لتنمية الثروة وممارسة الحضور على الساحة العالمية بصورة سلمية، اي بممارسة القوة الهادئة.

إن القـــوة النووية لا تكفي وحدها لصنع مجتمع قوي، من دون اقتصاد قوي ومـــتين، كما أثبتت تجربة الاتحاد السوفياتي، وغير دولة؛ تماماً كما أن الحكومات الديكتاتورية ذات الطابع العسكري، لا تصنع قوة ومنعة في مواجهة الخارج، كما تـــشهد التجارب الفاشلة او المتعّثرة لدى الانظمة العربية والمجتمعات العربية، ومن ورائها الثقافة العربية، حيث استخدام القوة المحضة او العمياء انما ارتدّ عليها وجعلها تتواطأ مع اعدائها، لكي تثبت عجزها عن استثمار مواردها وادارة مقدراتها، بقدر ما تثبت في الوقت نفسه على أنها تعمل على هدر الفرص وتفويتها، شاهدة بذلك على انها لا تحسن البناء، او بأنها تحسب الخراب عمراناً.

مـــن هـــنا فإن ما تواجهه بعض من البلدان العربية والاسلامية من الازمات والمـــآزق، يحـــتاج الى اعـــادة النظـــر في مفهوم القوة، وفي مصادرها ووجوهه اســـتخدامها. فالقوة ليست هي القوة العسكرية المحضة وحسب، وإنما هي، خاصة الـــيوم، قد تكون اقتصادية عبر انتاج السلع والتقنيات والمواد الصلبة، وقد تكون ناعمة عبر انتاج الثقافة والرموز من الافكار والقَيم والمُثلِ والمعارف والمعلومات...

1 – حيوية مجتمعية

من يعمل اليوم، سواء نجح أم أخفق، يصبح تحت نظر العالم، ولذا فإن عمله يكون محل التقدير والتقييم، بقدر ما يعني جميع الناس في هذا الزمن المعولم. هذا ما حـــدث بعـــد الـــنجاح القوي، في تركيا، لحزب العدالة والتنمية في الانتخابات التـــشريعية. فقد باتت تجربة هذا الحزب في البناء والتحديث مادة للتأمل والتدبر، خاصـــة مـــن جانـــب العرب والمسلمين، الذين يهتمون بتحليل أبعادها ودلالاتها لاستخلاص دروسها وعبرها.

والـــسؤال الذي يثيره الحدث المفاجئ في الذهن: كيف تمكن حزب سياسي، ذي خلفـــية دينية وأصول اسلامية، أن يقود تركيا، بنجاح ملحوظ في نظر العالم،

وفي أكثــر القضايا والشؤون: في السياسة والتربية كما في الاقتصاد والأمن، سواء علـــى مـــستوى الداخل أو من حيث العلاقة مع الخارج؟ وبسؤال أوضح، كيف نفـــسر نجاح الاسلام التركي، إذا جازت العبارة، وإخفاق النماذج الاسلامية على اكثر الساحات؟

والجـــواب في نظـــري، هو أن أردوغان ورفاقه، قد جسدوا دينامية مجتمعية، ومارســـوا نمطـــاً جديداً، منتجاً وفعّالاً، في الحكم والادارة والتسيير او في العمل والاســـتعمال. وذلـــك لأنهم تعاملوا مع هويتهم القومية وثقافتهم الدينية بصورة حديـــثة وراهـــنة، بقدر ما تعاطوا مع الواقع والعالم، بفكر مركب وعقل تداولي؛ وذلـــك على الضد مما نجده لدى الاسلاميين في غير بلد عربي او مسلم، حيث تمّ التعامل مع الهويات والقضايا بلغة مستهلكة وبائدة او بعقل شمولي واستبدادي، بل بفكـــر أحـــادي اصـــطفائي مغلق يقوم على نفي الآخر والعالم والمكان والزمان، فكانـــت النتيجة أن ترتد عليهم أعمالهم وتنتقم الوقائع من أفكارهم، كما تشهد المصائر البائسة.

2 - تجديد العنوان

ولنـــبدأ بالعـــنوان الذي اختاره أردوغان ورفاقه لحزبهم. فبعد الاختلاف مع سلفهم نجم الدين أربكان والخروج من حزب الفضيلة الاسلامي وعليه، استبعدوا التسمية الاسلامية، واختاروا اسم "العدالة والتنمية"، جامعين بذلك بين عنوان قديم هـــو "العدالـــة"، إذ العدل اساس الملك، وبين عنوان حديث هو "التنمية"، لأنه لا مجـــال بعد لادارة الدول من دون ابتكار صيغ وخطط ووسائل للتنمية في مختلف الحقـــول والقطاعات. وحسناً فعلوا، لأن الاسلام هو من البداهة الجامعة بحيث لا يـــصلح لأن يكـــون شـــعاراً للعمل، أو لأنه عنوان قديم مستهلك بات بحاجة الى التجديد والاثراء، بعنوان حديث او معاصر.

فالغـــرب الـــذي نخـــشى مـــنه على هويتنا وندّعي مقاومة غزوه الثقافي او العسكري، لا يعود الى الوراء، بل يوظف تراثه وتراث غيره (اليوناني والروماني او العـــربي)، لكـــي يعمـــل علـــى تجديد هويته عند كل انعطاف تاريخي، او تطور

حضاري، او تحوّل فكري، وكما حدث غير مرة، بدءاً من العقلانية والاستنارة، وصولاً الى التنمية والعولمة، مروراً بالحرية والثورة والديموقراطية والليبرالية والاشتراكية والتقدم والتحرر والمجتمع المدني، وسواها من العناوين المبتكرة التي تتيح ممارسة الهوية على نحو أغنى وأقوى وأفعل.

وهذا هو التحدي الكبير والاستحقاق الوجودي الذي تهرب من مواجهته القوى والمنظمات او الاحزاب والدول التي تختار التسمية الاسلامية، كما هو دأب الاسلاميين او الجهاديين في غير بلد عربي او مسلم: العمل على تجديد العناوين وتطوير المفاهيم المتعلقة بالمطالب الوجودية والحضارية. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. فلم يستطع الواحد منهم ابتكار شيء خارق يساهم به في ورشة الحضارة القائمة، كأن يخرج على العالم بنظرية أو منهج أو نموذج أو قاعدة أو تقنية... ولذا فشلوا في استثمار الثروات والمقدّرات والتراثات بصورة خلاقة وبنّاءة، للمشاركة الايجابية في صناعة الحياة المعاصرة.

والعلّة في ذلك، أنهم يفكرون بصورة مقلوبة، بقدر ما يشتغلون بعبادة الاصول والتعلّق بالاسماء حتى أضدادها. ولذا نراهم يسيرون بعكس الزمن، لكي يعملوا ضد الشعار القديم القائل بأن الله يبعث على رأس كل قرن من يجد للأمة دينها وفكرها. وبما أن الزمن متسارع، فإننا نجد بأنه، يظهر، كل عقد أو اقل، زعيم سياسي او امير جهادي يخرب للأمة عمرانها وثقافتها ومكتسباتها الحضارية والمدنية. مما يعني أن حماة الهوية والأمة، هم بالذات أصل العلة ومصدر الأزمة. حتى عندما يعتقد او يتوهّم الواحد أنه يحارب لكي يحرز نصراً او يحقق انجازاً في حربه ضد الخارج، فإنه سرعان ما ينقلب عليه، لكي يترجمه الى فخ ومأزق. ولا غرابة أن يحصل ذلك، فنحن نحارب ضد الخارج، وعيننا على الشقيق في الداخل، الامر الذي يفسر ما يحصل من انشقاق وصدام واحتراب.

3 - التقليد ليس عائقاً

في مسألة التقاليد والعادات لم يعتبر أردوغان أن من مستلزمات الهوية أن يتزيّا بزيّ القدامى، كما يفعل عندنا المتطرفون الذين يجعلون الايمان والاعتقاد رهناً

بـــشكل اللباس، أو بمقاس اللحية بحسب هذه الفتوى او تلك، فإن كانت قصيرة أخـــرج صاحبها من حظيرة الايمان وبالعكس. ما فعله أردوغان الليبرالي هو العكس. ولذا نراه يظهر حليق الذقن بزيّه الحديث، شأنه سائر القادة السياسيين، في هذا العصر، تـــرافقه أحياناً زوجته الى الاماكن العامة. صحيح أنها تعتمر غطاء الرأس[1]، ولكن لا يبدو ذلك كتنفيذ لحكم شرعي او لفرض ديني، بقدر ما هو علامة من علامات الهوية لا اكثر. ولا ضير في المحافظة على التقليد، ولكن من غير أن يتحول ذلك الى عُصاب جماعي او الى سلوك عدواني او الى قيد ذاتي يشلّ النشاط الحيّ والخلّاق.

4 - لا عودة عن الحداثة

في المسألة السياسية، لم يقل أردوغان ورفاقه إن الشورى بديل للديموقراطية، التي هي صيغة غربية مستوردة، كما يقول عندنا الذين أخفقوا في تحديث الشورى او في تطويـــر الديموقـــراطية. بل أقرّ ورفاقه بالعمل ضمن أطر النظام الجمهوري وقوانيـــنه، وانخرطوا في اللعبة الديموقراطية بعقلية تداولية، اشارة الى اندراجهم في زمـــنهم وعالمهم. ولذا لم يشن أردوغان حملة على الثقافة الغربية الحديثة، و لم يعِد مجتمعه وبلده بالعودة عن مسارات التحديث ومنجزاته، كما يعلن حكام مسلمون في مكان آخر، لأن مآل ذلك أن نتخلّى عن كل أسباب العيش وأدواته.

مـــا يعِد به أردوغان هو المزيد من الاصلاح والتحديث، وما يطمح اليه هو دومـــاً أداء أقـــوى، في المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية، من أجل ممارسة ديموقراطية أكثر تطوراً، او انشر ثقافة أكثر تسامحاً ومسالمةً، او لخفض التفاوت بين الغـــرب الـــصناعي المقدم والشرق المتخلف او المحروم، وكما جاء في كلمته بعد تكليفه تشكيل الحكومة الجديدة.

---

(1) صحيح أن خير النساء زوجة الرئيس التركي عبدالله غل قد دخلت القصر الرئاسي محجبة، بعد أن مـــنعت الفتيات المحجبات من دخول الجامعات في تركيا، ولكنها دخلت تحت راية أتاتورك مؤســـس الجمهـــورية التركية، ذات النظام العلماني الراسخ. ومن المفارقات أن الرئيس غل لم يذكـــر في خطاب الافتتاح لولايته، كلمة اسلام، في حين هو أسدى أعظم المديح لأتاتورك غير مـــرة، بقدر ما أكد على الصفة العلمانية للجمهورية التركية، معرفاً العلمانية بوصفها "التعدد في أنماط الحياة"؛ نُشر نص الخطبة معرباً في جريدة "النهار"، في 4 ايلول 2007.

وهذا شأن من يفكر بصورة ايجابية فعالة وراهنة: لا ينفي كل ما حدث بقدر مـــا يعمل على إبتكار نموذجه في البناء والانماء بعقلانية راشدة، متوازنة، لا يطغى فيها بُعد على آخر، بل تؤمن نوعاً من التوازن والتفاعل الخلّاق بين القيمة والمنفعة، او الـــثقافة والسوق، او الحرية والمسؤولية، او التقاليد الجميلة والتقنيات الفائقة... وأما الذين يرفضون الحداثة، بحجة المحافظة على الهوية وثوابت الأمة، فإنهم ينتجون تقالـــيد سيئة ومشوّهة ويتشبثون بثوابت متحجرة ومعيقة، بقدر ما ينتجون حداثة فقـــيرة ممسوخة وهامشية... ولذا فهم لا يعودون بنا الى زمن السلف الذين عاشوا حـــياتهم بإيجابـــياتها وسلبياتها، بمعجزاتها وإخفاقاتها، بصلاحها وفسادها. وإنما هم يخترعون تواريخ يدمرون بها الحاضر ويقضون على الامل بالمستقبل.

5 – مسلم علماني

حـــتى في مسألة العلمانية لم يقف فريق الحزب الحاكم منها موقف الضد. إذ هـــم في الـــنهاية ثمـــرة النظام الجمهوري العلماني والديمقراطي، أياً كانت شوائبه واعطاله. ولولاه لم يكونوا في مكانهم الآن، بل في السجن او المنفى او القبر، كما هـــي مصائر الساسة في أكثر دول العالم العربي، على اختلاف اتجاهاتهم. ولهذا لم يقـــل الاتراك المسلمون بأن العلمانية كفر وضلال، بل سعوا الى بناء علاقات مع العلمانيين تقوم على مبدأ التعددية والاعتراف المتبادل.

واذا كـــان العلمانيون العرب قد أخفقوا، بقدر ما حولوا العلمانية الى أنظمة اســـتبدادية أعـــيد معها انتاج التجمعات الطائفية بشكلها الأسوأ والأخطر، فإن العلمانـــيين الاتراك، على ما يبدو، ومن ورائهم الجيش، لم يتشبتوا أو يتطرفوا في مـــوقفهم مـــن الاســـلاميين، على الرغم من مخاوفهم، بل خضعوا هم ايضاً للعبة الديموقراطية ونتائجها، فسلّموا بقوة خصومهم ومشروعيتهم. صحيح أن العلاقات بـــين الطرفين لا تخلو من صراع وتوتر، ولكن ما يؤمل منهما، إذا شاءا لتركيا أن تواصـــل تطورها بصورة مدنية، حضارية، سلمية، إدارة الصراع بمنطق التسوية او المصالحة، بحيث لا يحتكر أحد المشروعية الثقافية او المجتمعية، ولو كان هو الحزب الحـــاكم او الفريق السياسي الغالب. وإنه لمؤشر ايجابي تلك "المصافحة التاريخية"،

بعـد عـداء طـويل، بـين الحزب القومي التركي من جهة، وبين حزب المجتمع الديمقراطَي المؤيّد للأكراد، والذي أكّد على وحدة الدولة التركية.

6 - تركيا أولاً

بالنسبة الى المسألة القومية، نجد بأن الاولوية عند أردوغان هي لبلده. فهو مـسلم ولكـنه تركي أولاً. ولذا فهو لا يتصرف كعقائدي منظّر همّه تصدير العقـيدة او الثورة او شنّ حرب مقدّسة على المختلف والآخر بعقلية الاقصاء والارهاب، بل تصرّف كسياسي محترف ومسؤول، في دولة عريقة، عن مجتمع علـيه أن يحـسن قـود مصيره، وعن بلد عليه أن يعمل على معالجة مشكلاته وتحـسين احواله او حفظ أمنه واستقراره. من هنا لم يقل أردوغان إن القومية بدعـة وإن الاسلام هو الحلّ، كما يعلن ويؤكد الدعاة والمرشدون المسلمون في غير بلد.

ما أكد عليه أردوغان في أحاديثه هو العمل من أجل تركيا "قوية ومزدهرة". ولا غرابة، فالتفكير الحي والمثمر، هو علاقة مع الواقع المعاش والملموس، لا نفي له أو هـروب منه. بالطبع ليست العلاقة علاقة استسلام او إذعان وإنما هي تبنى على الفهـم والتـشخيص وتعالج بالتجاوز والتحويل، لاعادة البناء والتركيب... وهذا شأن مَن يفكر ويعمل في مكان محدد وفي زمن راهن، ويتعاطى مع الواقع من غير تشبيحات دينية او تمويمات طوباوية؛ هنا أيضاً يقف أردوغان على الضد مما يفعله اسـلاميون عـرب يريدون العودة بنا الى زمن الخلافة والولاية، قافزين فوق واقع الدول والمجتمعات والاوطان، لاقامة فراديس الهية، في الهنا والآن، حصيلتها هو كل هذه الانتهاكات للحقوق والحدود والحرُمات.

هـذا مع أن الخلافة التي يحنون الى عهودها، لم تكن فردوساً ولا حققت أمناً او لآمـت انقساماً. إذ ما سل سيف على مسألة، كما قيل قديماً، كمسألة الخلافة الـتي أثمرت انشقاقاً وحروباً اهلية. واليوم، فإن طرح شعار الخلافة، ينتج حروب الآلهـة والنـصوص والجوامع والمراقد، كما تتجسد في النـزاعات الاهلية والفتن المذهبية التي تفتك بغير مجتمع عربي او مسلم، سيما في العراق.

7 - الهوية الأوروبية والعالمية

في مــا يخــص العلاقــة مع الخارج والعالم لا يعمل أردوغان بعقلية التهويل العقائــدي، كمــا يفعل عندنا الذين يجعلون شغلهم الشاغل، الثقافي والسياسي، مهاجمة الغربنة والعولمة والامركة، للتغطية على الفشل والاخفاق في داخل بلدانهم، وكمــا هــي بــنوع خــاص حالة اصحاب المشاريع القومية والدينية الشمولية والاصــولية. ولــذا نــرى هؤلاء يهربون من التحديات الجسيمة والاستحقاقات الداهمــة، بخلــق أعداء في الداخل او في الخارج، لكي يحملوا عليهم بلغة التكفير والــتخوين، أو لكــي يحمّلــوهم التــبعة عن الاخطاء والمساوئ او عن الهزائم والكوارث.

ما فعله أردوغان ورفاقه هو العكس بالتمام، كما تمثل ذلك في سعيهم الحثيث الى إدخــال تركيا في السوق الاوروبية المشتركة؛ اي هم يفكرون أوروبياً وعالمياً، وعلــى الضد من ثنائية الفسطاطين والمحورين. بهذا المعنى يمكن القول بأن أردوغان هــو كمالي أتاتوركي، ولكن بحلّة اسلامية وصيغة معاصرة، على عكس ما يظنّ القومــيون الاتراك وحُماة النظام العلماني. صحيح أن هذا المطلب التركي يواجه رفــضاً من جانب بعض الاوروبيين الذين يعترضون على دخول تركيا الى الاتحاد، لأنهــم لا يعتــبرونها بلداً اوروبياً، بل بلد شرقي، مسلم، من حيث ثقافته ورموزه وتقاليده...

ولكــن هــذا الموقــف لا يقابلــه قادة حزب "العدالة والتنمية" بالتشنّج والعدوانية. ولذا فهم لا يهولون بالويل والثبور، ولا يعودون الى ثنائية الإسلام والغــرب؛ بل يحاولون مقاربة المشكلة بعقلانية، هادئة، من خلال بذل الجهد، بالمفاوضة ومعاودة المفاوضة، لحلحلة العُقد وإزالة العوائق. وحسناً يفعل الاتراك بالاصرار على فضائهم الاوروبي الذي هو مدى حيوي لهم. أولاً لأن أوروبا لا تمــثل المغايــرة المطلقــة. بالعكس، فالسياسي الاوروبي المعاصر هو اقرب الى اردوغــان من مسلمي صدر الاسلام، وهو أيضاً وخاصةً أقرب إليه من داعية الاســلمة الذي يحدّثنا بلغة الردّة والكفر والرجم، أو يصدر الفتاوى الفاضحة التي تشوّه سمعة العربي في العالم.

8 - المساحة التداولية

والأهـــم من ذلك أن اوروبا قد تحولت، عبر عقود من العمل على الهويات الوطنية وتصفية التراكمات التاريخية التي خلفتها النـــزاعات والحروب، الى مساحة تداولية من السياقات العلائقية والفضائات العمومية والمؤسسات المشتركة.

ولأن اوروبـــا تـــنحو هذا المنحى، اي هي لا تعمل بعقل احادي، بل بعقل تداولي تبادلي، متّعظةً من تجارب الماضي، فإلها الاقل ميلاً لممارسة العنف. ثمة سبب آخر يعزّز هذا الميل الى الحوار والعمل السلمي، هو أن اوروبا هي اليوم الاقل تديناً بالمعنى اللاهوتي الأصولي، ولكنها الاكثر تقى بالمعنى الفكري والسياسي. ولا مجال للتأســـف علـــى نقصان معدلات التعالي والروحانية في المجتمعات الاوروبية كما يخشى بعض المثقفين العلمانيين ومن أبرزهم الفيلسوف الفرنسي لوك فيرّي. فحيث يـــزداد الـــيوم الطلب على المعنى الديني يزداد العنف، ولا سيما عندما يتحول الى شعار سياسي او انغلاق ثقافي او عصاب جماعي، يزداد التطرف والعنف والخراب.

من هنا فان الكتلة الاوروبية تملك الآن، اكثر من سواها، المصداقية والاهلية، لمواجهة المشاريع الدولية والاقليمية، الامبراطورية او الاصولية، التي يفكر اصحاها بمنطق الانفراد والاستقواء، سواء أتى من جهة اميركا أم جهة بعض القوى الاقليمية الصاعدة.

بهـــذا تـــسهم الكتلة الاوروبية في فتح آفاق جديدة أمام العمل المشترك على المـــستوى العالمـــي والكوكبي، بقدر ما تأخذ بمبدأ التعددية، ولكن ليس التعددية القطبـــية التي كانت سائدة إبان حقبة الصراع الاميركي والسوفياتي. وإنما التعددية الـــتي تمـــارس بمفردات الحوار والتوسط والشراكة والاعتراف والتبادل والتهجين الثقافي، وكل ما يهمش مؤسسات التطرف الاقصى وقوى العنف الاعمى...

مـــن هـــنا فإنّ أوْرَبة العقل التركي، قد تساهم في حلّ المسألة الكردية وفي تـــصفية آثار ما عدّ أعمال "إبادة" من جانب الاتراك بحق الارمن. وهذا يحتاج إلى شجاعة فائقة تحمل الأتراك على الاعتراف والاعتذار، كما يفعل الأوروبيون الآن، في ما يخص الماضي بأخطائه ومساوئه. فالاعتراف هو الذي يتيح اعادة بناء الثقة مع الآخر، وليس التسامح الذي يلغم العلاقة معه.

9 - اقتصاد معولم

وأخـــيراً، نصل إلى الجانب الأهم الذي يتمثل في موقف أردوغان ورفاقه من المحـــريات العالمية بثوراتها التقنية وتحولاتها الحضارية التي تعيد تشكيل العالم بأفكاره ومحـــركاته وقواه ومؤسساته وأدواته. إنهم لم يتعاملوا مع العولمة والمعلومة والسوق والـــرأسمالية والليبرالية، كفزاعة او كبعبع او كشر محض، كما يتعامل معها عندنا، وعند غيرنا، الدعاة والمثقفون والمنظرون الذين يتباكون على ما تداعى وأخفق من المـــشاريع والبرامج، او الذين يريدون العودة الى إيديولوجيات التقدم المستهلكة او الفاشـــلة، لكـــي تزداد المجتمعات المأزومة تخلفاً وفقراً وتبعية للقِوى التي يريدون التحرّر من ابتزازها او ضغطها او هيمنتها.

وهؤلاء يتناسون، بل يجهلون أن عنوان الحضارة الابرز هو السوق، وأن أبرز انـــشطتها اتقان فن التعايش والتبادل. هذا شأن الحضارة الاسلامية التي ازدهرت وانتـــشرت، بقـــدر مـــا كانت حضارة أسواق مفتوحة لتبادل الافكار والمعارف والخبرات والاموال والاشخاص.

10 - السوق والعقيدة

في أي حـــال، إن امـــبريالية الاســـواق الحرة التي يفزعون منها على مصالح الـــشعوب، هي أقل بكثير كلفة، دماء ودماراً، من المشاريع التي طرحت شعارات التحـــرر والـــتقدم الاجتماعي او السياسي، فإذا بها، تنتج الكوارث على الصعيد الوجودي، بقدر ما ترجمت الى أنظمة شمولية او الى معسكرات بشرية راح ضحيتها الآلاف المؤلفة، مشكّلةً بذلك الوجه الآخر للفاشيات القومية والاصوليات الدينية التي تسعى وراء أحلام مستحيلة حصيلتها سحق الشعوب وتدمير المجتمعات، تحت راية الدفاع عن الهوية او مقاومة الغزو.

مقابل ذلك، نجد بأن ما فعله أردوغان، في مجال الاقتصاد، هو التشديد على تطوير الأدوات والوسائل، وعلى حسن الأداء والتنظيم، لتحقيق الإنجاز في حقول الاســـتثمار، وذلـــك بخلق فُرَص ومجالات للعمل والتوظيف تُسهم في تنمية الموارد وتحـــسين شروط العيش. وقد نجح في ذلك، لأنه لم يعمل بمنطق الفتوى والاسلمة

الشاملة على اساس ثنائية الحلال والحرام. بل عمل بثنائية الراكد والحيوي، او المضر والنافع، او الفاشل والناجح، او المعرقل والفعال، وسوى ذلك من أنظمة التقدير والتقييم الحديثة[1] والراهنة التي هي ذات طابع عقلاني بقدر ما تتوخى المصلحة العمومية للبلاد والعباد. هذا ما أتاح لتركيا أن تحقق في مجال التنمية معدلات تتصاعد باستمرار.

11 - رهان الفكر

ولا عجب. فالفكرة الخصبة والمثمرة، حياة، وحرية، وكرامة، ونماء او ازدهاراً، ليست قوالب محضة ولا أقانيم مقدسة او حقائق مطلقة؛ وإنما هي قدرتها التداولية. ولذا فبرهانها، هو رهانها على أن تكون مصنعاً للامكان ومفتاحاً لفهم الواقع وتشخيص المشكلات، بحيث تفتح مجالات ومساحات للتبادل والتفاعل، بقدر ما تُتيح إطلاق قوىً حيّة قادرة على اجتراح اساليب وادوات لتنمية القدرات وتطوير المهارات، سواء على مستوى حقل او قطاع او مدينة او بلد.

فبعد كل هذه الانهيارات والاخفاقات والازمات، لن تبنى المجتمعات بالعقليات والنماذج والمفردات السائدة قديمة او حديثة. لن تصنعها السرديات الكبرى والاساطير المؤسسة والزعامات التاريخية، التي دفعت البشرية، لقاءها، أثماناً باهظة، دماءً ودماراً.

ولا يحسن الاتراك صنعاً، بل يتراجعون ويعودون عن منجزاتهم، إذا اعتقدوا بأن المجتمعات تدار بعقلية القائد الملهم والزعيم التاريخي او البطل الاسطوري، وسواها من النماذج والعملات السائدة عندنا، مما يقود الى الهزائم والكوارث، تحت هذا العنوان الالهي او الاسم الاسلامي او القناع الجهادي او الشعار التحرري. ففي عصر عمال الذكاء وشغيلة العقل واقتصاد المعرفة، تدار الاعمال

(1) من هنا يؤكد غل على "المعايير الحديثة" في ما ينبغي لتركيا إنجازه من اصلاحات تؤول الى بناء اقتصاد فعال. ولعلنا تجاوزنا الحداثة، بموجاتها الاولى، نحو حداثة فائقة. مما يعني أن من يحاول أن يعيش زمنه الراهن ويسهم في بناء حاضره يجد نفسه أمام تحدٍّ دائم هو العمل على تجديد الاساليب والمعايير والمفاهيم.

والـــبلاد بمفردات التعدد والحوار والشراكة والمداولة والتبادل والتفاعل على سبيل الخلق والابتكار أو التحول والتهجين.

12 – بناء مشترك

في أي حـــال، إن المجتمعات لا تبنى الآن، على يد بطل منقذ، بل تبنى قطعة قطعـــة، في كـــل قطاع او حقل او منشط من مناشط الحياة، بحيث ينخرط جميع الفاعلين في اعمال التنمية والبناء. من هنا فإنّ الادارة الفعالة، هي التي تدير مجتمعاً، يتـــصرّف فـــيه افـــراده ومجمـــوعاته، كفاعلين ومسؤولين، بقدر ما هم مختصون ومنـــتجون للثـــروة او المعلومة او الخدمة او السلطة؛ بحيث تكون القرارات على المـــستوى الاعلـــى، هـــي حـــصيلة التداولات، والتأثيرات المتبادلة، على مختلف المـــستويات وفي كـــل الاتجاهـــات، سواء على مستوى أفقي، بين الحقول المنتجة والقـــوى الفاعلـــة، او علـــى مـــستوى عمودي، بين المواطنين افراداً وجماعات وقطاعات، وبين الادارات الرسمية والمؤسسات الحكومية. بهذا المعنى لا يكون الفرد او المـــواد، مجرّد متلقٍ، بل يصبح فاعلاً ومشاركاً في بناء مجتمعه وتشكيل سلطته. وفي اي حـــال ليـــست السلطة السياسية هي التي تصنع المواطنين، وإنما المجتمع هو الذي يصنع سلطته، أكانت عاجزة ام مستبدة ام ديموقراطية ام فعالة.

قد يقال هنا إن المجتمعات لا تسيّرها الخطط والبرامج العقلانية وحدها، وأنها تحتاج لكي تدار الى اسطورة ملهمة ومحركة، او الى الى شخص قائد يمثّل الرمز الذي تتماهى معه الناس. قد يكون ذلك صحيحاً. ولكن التجارب علّمتنا، وما تزال تعلّمنا، أن الاعتماد على زعيم أوحد هو قائد ملهم او مهدي منتظر، يختزل مجتمعاً بكامله، او يـــستبدّ ببلد بأسره، إنما مآله تشكيل حشود بشرية وقطعان عمياء تصفّق وتطرب، او تعِد وتوعّد، لكي تقع في النهاية ضحية مَن تقدّسه وتبجّله من القادة والزعماء.

13 – التهجين والتركيب

خلاصة القول: إن الاتراك فكروا وعملوا بلغة العصر وادواته. هم مسلمون، ولكـــنهم في السياسة ديموقراطيون حداثيون. وفي الاقتصاد ليبراليون ومعولمون في زمن الحداثة الفائقة.

ولعـــل هذا هو سر نجاح النموذج التركي واخفاق النماذج الاخرى. وهذا الـــنجاح يتـــرك أثره واصداءه الايجابية في العالم، وبخاصة في المنطقة العربية، مقابل الآثـــار الـــسلبية الـــتي يتركها اصحاب المشاريع الطوباوية والخلاصية التي تترجم بأضدادها.

وهـــا نحن نعكف على دراسة هذه التجربة لاستخلاص عبرها. ولعلّ الدرس الاول هو أن نجاح النموذج التركي يرد الى أن بناته لم يعملوا بمنطق التقليد الاعمى للماضين، لأن ذلك ينتج هوية خاوية او كاريكاتورية او عدوانية. ولا عملوا بمنطق التقليد الساذج والحرفي للمحدثين، لأن ذلك ينتج حداثة فقيرة، هامشية، ممسوخة. فـــلا نجـــاح بأفكار جاهزة ونماذج مسبقة، كما لا بناء من غير قدرة على الخلق والتأليف المبتكر.

والـــدرس الـــثاني هو أن نجاح التجربة التركية لا يعطي مصداقية للاسلاميين العـــرب، ومـــن يسير وراءهم او ضدهم او يبرّر اعمالهم من القوميين والعلمانيين واليساريين. فنحن نتجاوز الآن، بفكرنا المركب ثنائية اليمين واليسار، كما نتجاوز الـــصراع بـــين الشعار العلماني والشعار الاسلامي[1]، بعد أن تحوّلت العلمانية الى لاهوت سيّئ، وتحولت الاصولية الدينية الى بربرية حديثة، كما تشهد حروب الآلهة والانبياء الجدد.

مـــن هنا فإن نجاح النموذج التركي هو الذي يفسر اخفاق النماذج الاخرى التي يسير اصحابها بعكس الزمن والعالم، لكي تنقلب عليهم شعاراتهم. فلو أديرت تركيا بعقل اسلامي او قومي او يساري، مما هو سائد في البلاد العربية من العملات

(1) إن تشديد غل في خطابه على قيم وقواعد مثل المجتمع المنفتح، وحرية التعبير، والمساواة في الفرص، والتعددية، والتنوّع بوصفه ثراء، كلها عناوين تصدر عن فكر مركب، يتجاوز اولاً الثنائيات الرائجة والمستهلكة، كثنائية الاسلام والعلمانية، لبناء صيغ وانتاج تراكيب جديدة او وحدات مركبة تتعامل مع الواقع المجتمعي، السياسي والوطني والثقافي، بغناه وتعقيده وتعدد صـــعده وأنماطـــه...؛ كمـــا يتجاوز من جهة ثانية منطق المماهاة والمطابقة بين النماذج، إذ التجـــربة الناجحة في بلد ما، تعني في النهاية أن كل مجتمع يبتكر صيغته ويركّب نموذجه، بالافادة من كل النماذج الفعالة والتجارب الناجحة. راجع بهذا الخصوص مقالة لي بعنوان، ما بعد العلمانية، تعددية الانماط والدوائر، وقد نُشرت هي الاخرى، قبل هذه المقالة عن تركيا، بشهور، في أحد أعداد مجلة "المجلة".

الايديولوجية والنماذج السياسية، لفشلت وأخفقت. ولكن أردوغان زعيم الحزب الحاكم ادار تركيا بعقلانية مرنة، منفتحة، ومركبة، ترى الى الواقع بأبعاد المتعددة؛ ولـــذا لم يكن محافظاً ولا ليبرالياً، لا قومياً ولا اسلامياً، لا علمانياً ولا سلفياً، بل كانـــت له صلته الوثيقة بكل هذه العناوين، مّما أتاح له بناء صيغة هجينة مطعّمة، بغير رافد او بُعد او اتّجاه. ولا عجب فنحن الآن في عصر التحويل والتهجين الذي هو علاجٌ لداء الهويات العنصرية والعقائد الوحدانية والاسماء المقدّسة.

ومـــا يؤمل من الاتراك، مرة أخرى[1]، هو أن يعملوا على تطوير نموذجهم، وأن يـــستمروا في احترام اللعبة الديمقراطية، وأن يحرصوا على الوصول الى رهانات مشتركة تتيح لهم استثمار الخلافات بابتكار قواعد جامعة، بحيث لا يستبعد الواحد مـــنهم الآخـــر، ولا تقطع قوة مع سواها، حتى لا يطيحوا بالمنجزات، او حتى لا تكـــون الـــنجاحات مجرّد ذرائع لأجندات ومشاريع ملغومة او مدمّرة. فإذا كان الفكر الحي هو خلق وابتكار به نتغيّر ونغيّر، بقدر ما ينفتح عالم المعنى على التعدّد والاخـــتلاف والالتباس والتعارض والنسخ، فمؤدّى ذلك، أن الهويّة هي صيرورة تـــصنعها العلاقـــة مـــع الغير، تماماً، كما أن الدين هو المعاملة والعقل هو المداولة والسياسة هي الشراكة.

(1) لا يعنـــي التقيـــيم الايجابـــي للتجـــربة التـــركية أنها حققت المعجزات. فما زال امام تركيا اســـتحقاقات وتحديات كبيرة. إذ هي ما زالت على المحك، في ما يخص طريقة التعامل مع الاقلـــيات العرقية او الدينية المختلفة، او في ما يتعلق باحترام الحريات الديموقراطية وحقوق الانـــسان. وبالنـــسبة الى اعمال الاصلاح، فإنها لا تتم دفعة واحدة، وإنما هي عملية مركبة تجري على غير صعيد، وسيرورة متواصلة من النماء والتطور، أي تبقى دوماً قيد الانجاز. فلا توجد اجوبة نهائية في عصر الحراك الدائم، كما لا توجد نماذج واحدة او احادية.

خاتمة

التداول والتحول

كيف نفكر؟

I - داء الاصطفاء وفخ الاستثناء

أراني أختم هذه الفصول، بالكلام على شأننا الفكري، الذي هو أهم شؤوننا وأخطرها. ليس لأنه مهنة المفكرين، كما قد يخال بعضنا، بل لأنه هبة الوجود وميزة الإنسان بقدر ما هو الرصيد ومخزن الإمكان. ولأنه أيضاً منبع الحيوية ومصدر القوة بأركانها الثلاثة، المعرفة والثروة والسلطة، بقدر ما هو مصنع الطاقة التحويلية الخلاقة التي تتجلى قدرات خارقة أو مبادرات فذة أو إجراءات فعالة. من هنا فإن الشعوب الحية والديناميكية، الغنية والمزدهرة، إذا لم أقل المهيمنة والمتفوّقة، تولي فائق الرعاية والاهتمام لعمل الفكر وأنشطته ومؤسساته.

هذا ما تشهد به المثالات والنماذج لدى الشعوب والمجتمعات التي حققت قفزات حضارية أو فتوحات عقلية أو ثورات معرفية أو انعطافات تاريخية...

والمثال التاريخي الأبرز، الذي نحن صنيعته بمعنى ما، هو أن العرب قد تصدروا في عصور ازدهارهم واجهة العمل الحضاري لقرون طوال، لأنهم أتقنوا لغة الفتح والكشف بقدر ما مارسوا حيويتهم الفكرية، ولأنهم أمعنوا التفكر والنظر في خلق السماوات والأرض، بقدر ما انخرطوا في مغامرات العقل العابرة للعوالم والخلائق.

والمثال الأبرز في الأزمنة الحديثة، التي نعيش في فضاءاتها، قد تجسد في مقولة ديكارت الشهيرة، أنا أفكر إذن أنا موجود، إذ هي شكلت أحد مفاتيح العالم الحديث بآفاقه وكشوفاته ومنجزاته. وإذا شئنا مثالاً معاصراً نجد في ماليزيا الشاهد البارز والنموذج الراهن، إذ هي حققت معجزتها التنموية، لأن أبناءها عملوا تحت

الشعار القائل: "لا تنمية بلا ابتكار أفكار"، وذلك بعيداً عن العقلية الغوغائية ولغة التشبيحات النضالية والتحررية، الأمر الذي حولها إلى ورشة دائمة من الفكر المخصب والعمل المثمر، في جميع الحقول والقطاعات، كل بحسب ما يتقنه أو يحسن أداءه أو يقدر عليه.

غير أننا، نحن العرب المعاصرين، قد تخلينا عن منطق الخلق والفتح، بل بتنا نخاف لغة التعارف في عصر التواصل، إلا ما كان استثناء، كما في الأدب والفن، أو كما هي الحال في بعض دول الخليج التي هي استثناء من حيث ثرواتها والعاملين فيها. ولذا، فقدنا المبادرة التاريخية، وصرنا نصنع العجز، بدلاً من المعجزة، لكي نقف على الهامش أو في المؤخرة.

وعلة ذلك أننا قررنا، بوعي بل من فرط تهويمات اللاوعي، الاستقالة من التفكير الحي، لكي نفكر بحراسة ثوابتنا المعيقة ومقولاتنا المستهلكة ونماذجنا البائدة، ونشتغل بكل ما يأسرنا ويكبلنا أو يهلكنا ويدمرنا، كما يريد لنا ديناصورات التراث وعجزة الحداثة على السواء.

والحصيلة لمثل هذا الواقع الفكري البائس، عند من ينظر بعين النقد الكاشف والبنّاء، هو ما نفاجأ به أو نصدم من الأمراض والآفات أو الأزمات والانهيارات. الحصيلة هي الختم على العقول لشل الطاقة على الإنتاج والإبداع، وتحويل الهوية إلى فخ وعصاب، أو إلى مصنع للإرهاب، مما يقودنا إلى خسارة قضايانا والتواطؤ مع من نعتبرهم أعداءنا.

ولا يعني ذلك أن الوضع في العالم هو على ما يرام. فالبشرية تبدو اليوم أكثر تكالباً وشراسة وعدوانية وطاقة على التدمير من ذي قبل. يشهد على ذلك كل ما يضج به المسرح الكوني من الفوضى والاضطراب أو العبث والجنون، سيما على صعيد الأمن، حيث تنفتح أبواب جهنم في غير مكان، وبشكل أخص في بلاد العرب.

ولو توقفنا، عند بلد كفرنسا، تُعدّ في طليعة البلدان الصناعية المتقدّمة والمزدهرة، نجد أنها وقعت في الفخ، بقدر ما تعاملت مع هويتها الوطنية والثقافية، أو مع نموذجها الاجتماعي والاقتصادي، كاستثناء ثقافي أو حضاري، لكي تشهد

مـــا شهدته من الاضطرابات المجتمعية[1]، أو لكي تتراجع في معدلات النمو، قياساً علـــى الدول التي كانت وراءها، فإذا بها تصبح أمامها، لأنها عملت على نفسها، لكـــي تواجه المتغيرات بتحديث أفكارها ومؤسساتها وأدواتها. صحيح أن النموذج الفرنـــسي كـــان ناجحاً وشغالاً طيلة عقود ثلاثة سموها "العقود المجيدة"، ولكنه أُســـتنفذ و لم يعد صالحاً لمواجهة التحديات التي أسفر عنها عصر العولمة، بفتوحاته وثـــوراته وتحوّلاته. من هنا حاجة هذا النموذج إلى إعادة بناء، على أقل تقدير، مما يعني أنه لا تجدي اليوم إدارة الأشياء بعقلية الاستثناء، بل بعقلية الشراكة والتسوية، وبمنطق الخلق والتحوّل. وهذا هو الرهان أمام المجتمع الفرنسي: لا مجال للعودة الى الـــوراء او للتمـــسّك بالثوابت الراسخة أو القوالب الجامدة، خاصةً وأن خريطة الـــصراعات الايديولوجـــية قـــد تغيّرت، فاختلطت المشاريع وتداخلت البرامج والـــسياسات، على وقع الانهيارات والاخفاقات، يميناً ويساراً، ممّا يعني أن الحاجة باتـــت ماسّة، لاجتراح او تركيب عناوين وسياسات ومعادلات جديدة، لإصلاح الاحوال وإدارة البلدان وهندسة المجتمعات.

في أي حـــال، إن الفرنسيين، وكما هو شأن الأوروبيين، إنما يسلّطون الضوء علـــى المـــشكلات، بعقولهم النقدية وقواهم الديناميكية. أما عندنا فالآفات مزمنة بقدر ما هي متراكمة ومتلاحقة، خاصة وأننا نهرب من مواجهة المشكلات ونتستّر على الأخطاء والمساوئ، فتفعل فعلها بصورة مضاعفة. والعلة في ذلك إنما تتجسم في آفـــة النرجـــسية ولغة الإدعاء أو في عقدة الإصطفاء ومنطق الإلغاء أو في فخ الإســـتثناء وأســـطورة النقاء الثقافي والعقائدي والمجتمعي، أي كل ما يجعلنا ندعي امتلاك مفاتيح الحقيقة والهداية والسعادة، أو نعتقد بأن أمتنا خير أمة، وبأن الله قد

---

(1) إشـــارة الى الاضطرابات التي شهدتها فرنسا في شهر تشرين الثاني من العام 2005، في ما سُـــمّي تمـــرّد فتية الضواحي. غير أني أشير أيضاً، على سبيل الاستدراك، بأن الانتخابات الرئاســـية الفرنـــسية التي جرت في شهر أيار 2007، بنسبة عالية من الاقتراع (86%)، قد أعادت ثقة الفرنسيين بالسياسة والديموقراطية، بعد فشل البرامج والسياسات لدى الجمهوريين والاشتراكيين على السواء، وأنعشت لديهم الامل بإمكان حلّ أزمتهم المزمنة، لتجديد نموذجهم الحـــضاري. ولكـــن ذلـــك يحتاج الى عُدّة فكرية جديدة، بعد أن استُهلكت او تهاوت الافكار والمشاريع يميناً ويساراً.

اختارنا لنبلّغ العالم آخر رسائله وقراراته، أو بأن تراثنا يقدم أجوبة شافية عن كل أسئلة العصر، وكلها وجوه لعملة فكرية لا تتيح لنا الإقامة في هذا العالم بصورة سوية وبناءة.

هذا هو الداء الأعظم الذي يفتك بالعقول. ذلك أن مقتل التفكير الحي هو العمل على تقديس الأفكار وتحنيطها وحراستها بتحويلها إلى شعوذات عقائدية أو أصنام نظرية أو تهويمات إيديولوجية. هذا ما يجري، بنوع خاص، في المجتمعات الكسولة أو الفقيرة أو المتخلفة، أو المريضة بهوياتها، ممن يشتغل أصحابها بعبادة الأصول والنصوص أو النماذج والمراجع.

وليس المقصود المجتمعات الفقيرة في الموارد المادية، بل الفقيرة في الأفكار والمعارف والعلوم. قد تكون الموارد المادية هائلة، ولكن خواء الأفكار وضحالة المعارف وهشاشة الثقافة تفضي إلى هدر الموارد واستنزافها أو إلى إساءة استعمالها. وبالعكس، فإن التفكير الخلاق قد يؤدي إلى مضاعفة الثروات باشتقاق موارد جديدة، كما هي الحال في اليابان أو ماليزيا.

فالأولى أن نفكر بصورة مختلفة: لم تعد القضية أن نتمسك بهذا الشعار الأحادي ضد ذلك، أو أن نسجن أنفسنا في هذا المذهب الضيق ضداً على الآخر، ولا أن نعبد هذا النموذج المسيطر على حساب سواه. هذه هي المشكلة، وأما القضية، فهي امتلاك القدرة الدائمة على ابتكار ما يجعل الحياة أيسر وأغنى او اجمل وأرقى من الرؤى والمفاهيم او القيَم والقواعد او الأدوات والوسائل.

من هنا لا تحتاج المجتمعات العربية إلى دعاة يحيلون الهوية إلى أفخاخ ومآزق أو إلى محاكم للإدانة والمعاقبة. كما لا تحتاج إلى مثقفين يلفقون النظريات أو يحولون الأفكار إلى أصنام جديدة، لإنتاج الخسائر والكوارث.

وهي لا تحتاج، بنوع خاص، إلى المساعدات من الخارج، لأنها تملك موارد وثروات وتراثات هائلة مادية ورمزية. ثمة فيض في هذا الخصوص. ولكن ما ينقصها هو أن تحول ذلك إلى عملة حضارية راهنة قابلة للصرف والتداول، بالعمل على تطوير عناوينها الوجودية او تجديد مفاهيمها الاساسية حول نفسها والعالم، او اجتراح نماذج فعّالة في البناء والانماء.

ولـذا فهـي لا تحتاج إلى فرد يمتثل ويصفق أو يبصم ويهلل كرقم في حشد أعمـى أو في جمهـور يمارس طقوس العبادة لزعمائه وقادته، بل تحتاج إلى نموذج بـشري من طراز جديد ومن غير وجه: (1) أنه خلاق ومنتج بقدر ما هو مختص وصـاحب خبرة؛ (2) أنه فاعل بقدر ما هو مشارك في بناء مجتمعه وصناعة عالمه، عبر إنتاج المعلومة والثروة والسلعة والخدمة؛ (3) أنه يفعل ويؤثر، بقدر ما يشارك في أعمـال البناء والإنماء، (4) أنه يمارس حيويته الفكرية شعاره: أنا أخلق وأبتكر إذن أنا أكون، أي أصنع وأتغير، لكي أساهم في صناعة الحضارة العالمية.

هـذا شـأن المجتمع الحي والديناميكي والغني بقواه وفاعلياته: (1) كل فاعل يمـارس حيويته الفكرية، بقدر ما يفكر بطريقة مختلفة من موقعه وزاويته في النظر. (2) وكل فاعل هو قادر على التشخيص وتقديم الاقتراحات بقدر ما له من الخبرة والمعـرفة. (3) وكـل حقل منتج هو مساهم في عملية البناء على قدر إسهامه في المناقشات والمداولات. (4) وكل فكرة حية، أكان مصدرها ميدان العمل أم المجتمع العلمي، إنما تحتاج إلى الصرف والتحويل وإعادة الإنتاج على سبيل الإبداع، لكي تتحول إلى حل ناجع أو إجراء فعال أو عمل تنموي مثمر في مجال من المجالات.

والفكرة الخصبة أو الخلاقة لا تقتصر على المفكرين المحترفين. ثمة مفكرون يتـصدرون الواجهة يكررون، منذ عقود المقولات، حول العقلانية والاستنارة والحـرية والديموقراطية من غير إغناء أو تطوير. وبالعكس هناك أناس عاملون، خارج القطاع الثقافي، يمارسون علاقتهم بفكرهم بصورة حية متجددة مثمرة، كمـا هـو شـأن أنـاس فـاعلين في مجالات الاعلام والمال والسياسة والفن والرياضة...

الأجـدى أن نقـرأ ما يحدث ويتغير، لكي نعترف بما يُستهلك ويتداعى من العـناوين والمـشاريع والأنظمـة، أو لكـي نتعرّف على ما يتفتّح ويتشكّل من الإمكانـات والمجـالات او من الفرص والابواب. لقد فقدت مصداقيتها النماذج القديمة والحديثة في العمل والتغيير:

1 - النموذج البيروقراطي، العاجز، الذي يستخدم أساليب مستهلكة أو بائدة، في الإدارة والبناء لكي يفاقم المشكلات.

2 – الـــنموذج النخبوي، الفاشل، الذي يفبرك الأوهام النظرية ويمارس التهويمات الايديولوجية، لكي ينتج عزلته وهامشيته تجاه المجريات العالمية.

3 – الـــنموذج النـــضالي، الآفل، لحركات التحرر الوطني، التي أنتجت المزيد من التخلف والفقر والاستبداد.

4 – الـــنموذج الجهـــادي والإرهـــابي، القاتل، الذي صنعته الحركات الأصولية الاصطفائية لكي يتحول إلى بعبع وجلّاد ويحول المجتمعات إلى مسالخ ومقابر.

لقـــد شبعنا نضالات فاشلة ومدمرة نشهر فيها سيوفنا ورشاشاتنا وأجسادنا المفخخة، أو ثقافتنا المغلقة وهوياتنا الموتورة، دفاعاً عن ثوابت ومقدسات، لا نُحسن سوى انتهاكها.

باختصار: لم تعد المجتمعات محتاجة إلى قادة ملهمين أو أبطال أسطوريين يفكرون أو يحلمـــون عن الناس. وبالطبع فهي لا تحتاج الى مهدي منتظر او بطل منقذ... مثل هـــذه العملة البشرية، حيث جُرِّبت في غير مكان، حصد اهلها السراب او الفساد او الاستبداد او الخراب. ما نحتاج إليه: أن نتقن لغة الابتكار والتداول والتحول لكي نثبت جدارتنا وننتزع الاعتراف بمشروعيتنا بين الأمم، بصنع ما يحتاج إليه الناس مما هو نافع أو ملائـــم أو قيّم. وهذا هو الرهان: أن نتغير ونغيّر، أن نصنع حياتنا لكي نساهم في صـــناعة العالم المعاصر. والسبيل إلى ذلك، هو أن نتمرّس بلعبة التفكير الحيّ والخلّاق، الغني والمثمّر، البنّاء والراهن. إن شركة عملاقة أو قناة ناجحة أو رواية خارقة او فكرة فعّالـــة او اداة فائقـــة... يمكن أن تنقل بلداً من حال العجر والتخلف والهامشية لكي يمارس حضوره الفاعل والبناء على الساحة الكونية.

II- حيوية التفكير وقوة الخلق

ومـــن يفكـــر بصورة حية لا يكف عن المساءلة النقدية والمراجعة العقلانية، بالملاحظـــة والمعاينة، او النظر والتأمل، او الرصد والبحث، او الحفر والتنقيب، او الدرس والتحليل، او التشريح والتفكيك، لإعادة الصوغ والتشكيل. والنقد بما هو كـــشف وتعرية او جرْح وفضح، هو اجتراح امكانات جديدة للمعرفة والعمل او للتنظيم والتدبير.

ومن يفكر بصورة خلاقة يمارس الخرْق لما هو سائد او راسخ او مألوف، سواء تعلق الامر بثوابت الهوية أم بسياسة الحقيقة، بنماذج الثقافة أم بقوالب المعرفة، بالنظام الخلقي ام بالنظام السياسي. ومآل ذلك هو العمل على التحديد والتطوير او التوسيع والاثراء او التعديل والتغيير او التطعيم والتهجين، وذلك على وجه من الوجوه، او على صعيد من الصعد، سواء تعلق الامر بالمبادئ والمقاصد أم بالادوات والوسائل. هذا شأن مَن يقرأ المجريات بعين مركّبة، بقدر ما يرى الى الواقع بوصفه متعدد البُعد والوجه والمستوى.

ومن سمات التفكير الحيّ والمتجدّد أن صاحبه لا يركن الى اليقين بصورة جازمة، وإنما يبيت على قلق الاسئلة التي تُحرِج بقدر ما تخربط أنظمة الاستدلال والبرهنة او قواعد التصنيف والتقييم. فاليقين، بما هو اطمئنان وتسليم، قد يكون مطلب الداعية والمناضل او المعلم والمرشد، وكل الذين يهتمون بجمع البشر لتطويعهم وقولبتهم، او لتعبئتهم وحشدهم، لكي يتحولوا تحت شعار من الشعارات الى حشود عمياء او الى قطعان بشرية تمارس طقوس العبادة والتقديس للاشخاص والزعامات او للقضايا والمرجعيات.

ومن سماته ايضاً ان الفكرة الخلاقة والخارقة تملك القدرة على الانتشار، بخلق مجالها التداولي، بحيث تتحول بفعل التراسل والتبادل، عبر الانتقال من فرد الى فرد او من صعيد الى آخر، الى واقع حيّ او الى اجراء ملموس او الى مبادرة مثمرة او الى فاعلية مجتمعية... بهذا المعنى، ليست الفكرة الحية هي التي تصحّ بذاتها في عقول العلماء وبراهينهم. فما يصح او يصدق هو المعلومات او الاخبار.

ولذا فمن مفاعيل الفكر الحيّ والمثمّر، ما يحدثه من التغير في الوجهة والطريقة او الرؤية والعدة، على سبيل الزحزحة والاحالة او الصرف والتحويل. هذا شأن من يفكر ويعمل بصورة منتجة او مبدعة، أياً كان مجال عمله، وأياً كانت المعطيات التي يشتغل عليها والادوات التي يشتغل بها. مآل فكره وعمله، أن يتغير، قدراً من التغير يقتضيه الانتاج او الابداع، بما هو صناعة وتحويل.

ولهذا، فإننا بالفكرة الحية والفعالة، نتغير، على غير وجه، لكي نسهم في تغيير الآخر والواقع، وعلى نحو يفضي الى تغيير الفكرة نفسها. وهكذا فالفكرة الحية،

القابلة للتداول والصرف، لا تبقى على ما هي عليه، وإنما هي إمكان لتغيير الواقع، بقدر ما هي قدرتها على التجدد.

ومن مزايا التفكير الحيّ أنه يستعصي على القولبة والمصادرة، إذ هو يتجسد في القدرة الفائقة على الفهم الخارق والتخيل الخلاق والعمل المثمر، بصورة تؤدي الى تغيير في مرجعيات المعنى وصيغ العقلنة او في قواعد المعاملة ونماذج التنمية. ولذا، فالذي يفكر بصورة فعالة وراهنة، لا يجمد عند مرجع واحد او مذهب وحيد او نموذج اوحد، وإنما هو القادر دوماً على التغيير والتجديد على نحوٍ غير منتظر او غير متوقّع.

ومن مزاياه اخيراً انه راهن، إذ ينصب على الواقع القائم والحاضر، بالفهم والتشخيص. ومن ينفي واقعه، يعيد انتاجه على النحو الأسوأ. ولذا، فمن يفكر بصورة فعالة وراهنة لا يغرق في اوهام الطوبى المستحيلة، ولا يقع في فخ التهويمات الايديولوجية حول العصور الذهبية والاساطير المؤسسة او النماذج الكاملة. بالعكس هو يسعى الى التحرر من المسبقات لكي يستبق الحدث او يوظف المكتسبات في صناعة الحاضر والعالم. ولا يعني ذلك القطع من الماضي، ولا الهرب الى الامام، فمن يفكر بصورة راهنة، يحسن استثمار ماضيه، والاعداد لمستقبله.

وهكذا نحن إزاء نمطين من التعامل مع الهويات والافكار: إما ان نشتغل بالتقديس والتحنيط والحراسة للختم على العقول ومصادرة حرية التفكير، ومآل ذلك تدمير منابع الطاقة الحية واستنزاف الجهود والوقت وتفويت الفرص، او تسميم نظام الحياة وشلّ القدرة على الخلق والابتكار، أو بالعكس: ان نفكر بحرية وبصورة مستقلة، نقدية، اجرائية، لاشتقاق امكانات جديدة، تفتتح معها الآفاق والابواب، او تستحدث المجالات لمضاعفة الموارد وبناء القدرات.

فهذا هو الاهم والأساس. في مشاريع التنمية وبرامج التحديث. بل هذا هو مفتاح الابتكار والإتقان وحسن الأداء في اي عمل: التفكير بحرية واستقلالية، تجاه ما يمكن أن يصادر حرية المساءلة والنظر والتفكر، أو يعيق نشاط الفكر الحي والخلاق، من المسبقات الجاهزة او الأنساق المغلقة او العادات الراسخة او الثوابت المتحجّرة او الحقائق المطلقة والنصوص المقدسة، من جانب اصحاب الهويات والسلطات والمؤسسات أكانت سياسية أم دينية أم مجتمعية أم اكاديمية أم فلسفية...

للمؤلف

1 – التأويل والحقيقة، دار التنوير، طبعة ثالثة، 2007.

2 – مداخلات، دار الحداثة، 1985.

3 – الحب والفناء، دار المناهل، 1990.

4 – لعبة المعنى، المركز الثقافي العربي، 1991.

5 – نقد النص، المركز الثقافي العربي، طبعة رابعة، 2005.

6 – نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، طبعة رابعة، 2005.

7 – الممنوع والممتنع، نقد الذات المفكرة، المركز الثقافي العربي، طبعة رابعة، 2005.

8 – أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر، دار الطليعة، 1994.

9 – خطاب الهوية، سيرة فكرية، دار الكنوز الادبية، طبعة ثانية، 2008.

10 – أوهام النخبة، او نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، طبعة رابعة، 2008.

11 – الاستلاب والارتداد، المركز الثقافي العربي، 1997.

12 – الفكر والحدث، دار الكنوز الادبية، 1997.

13 – الماهية والعلاقة، نحو منطق تحويلي، المركز الثقافي العربي، 1998.

14 – حديث النهايات، فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، طبعة ثانية، 2004.

15 – الأختام الاصولية والشعائر التقدمية، المركز الثقافي العربي، 2001.

16 – أصنام النظرية وأطياف الحرية، المركز الثقافي العربي، 2001.

17 – العالم ومأزقه، نحو عقل تداولي، المركز الثقافي العربي، طبعة ثانية، 2007.

18 – أزمنة الحداثة الفائقة: الاصلاح، الارهاب، الشراكة، المركز الثقافي العربي، 2005.

19 – الانسان الادنى، امراض الدين واعطال الحداثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005.

20 – هكذا أقرأ، ما بعد التفكيك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005.

تواطؤ الأضداد

الآلهة الجُدد وخَراب العالَم

علي حرب

• كاتب وفيلسوف من لبنان

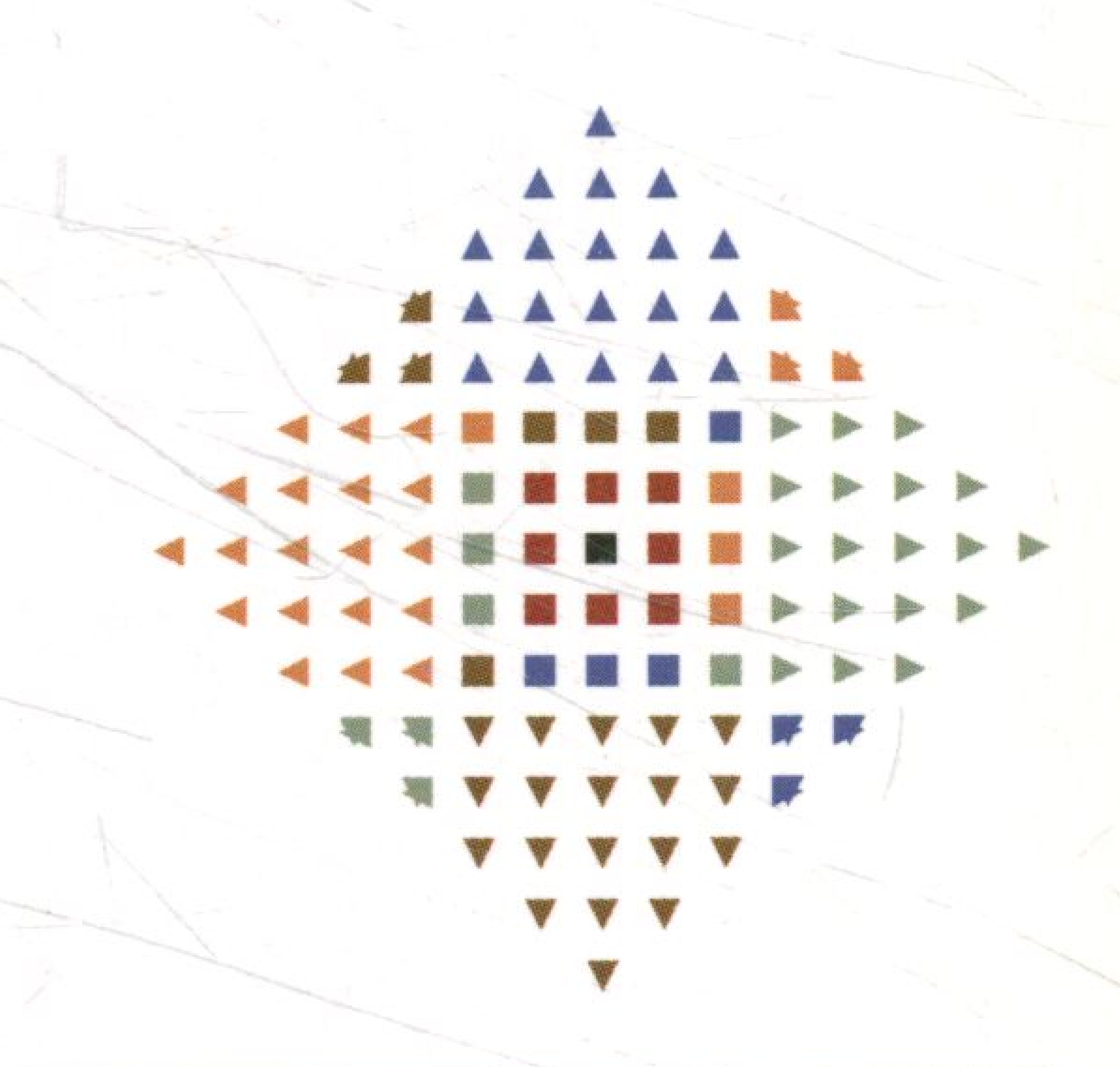
يضجّ العالم اليوم بالأزمات والإضطرابات وأعمال العنف المتفاقم، إقتتالاً أو إرهاباً، خاصة في المنطقة العربية التي تمزقها الصراعات السياسية والفتن الطائفية.

إنه تواطؤ الأضداد على صناعة الخراب الذي يتباكى الآن على أنقاضه دعاة ومثقفون وإعلاميّون ومُنظّرون أسهموا في صناعته، بمسلماتهم العمياء وعقولهم المفخّخة وتشبيحاتهم الإيديولوجية، فضلاً عن توجّهاتهم المعكوسة واستخدامهم طرائق في التفكير قاصرة أو عقيمة أو مقلوبة...

وتلك هي، بنوع خاص، حصيلة الدعوات والمشاريع الأصولية، من جانب الآلهة والأنبياء الجدد الذين يحتلون واجهة المشهد، بخطاباتهم النرجسية، وتهويماتهم الإصطفائية وشعوذاتهم العقائدية وتصنيفاتهم الضدية ومتاريسهم الثقافية وسيناريوهاتهم الجهنمية، وسواها من العملات الفكرية التي تجعلهم يتعلقون بالأشياء حتى أضدادها، مما يجرّ الكلّ، أصدقاء وأعداء، إلى الإنخراط في ما يُشبه الحرب الأهلية الكونيّة، التي تنتهك فيها كل الحدود والحقوق والحرمات.

كلّ ذلك يحمل على إجراء تحويلات، مفهومية، بنيوية، لإعادة بناء العناوين بصورة تطال جغرافية المعنى ببداهاته ومسبقاته، كما تطال مرجعيات الفكر بمقدساته وثوابته. من هنا يحتاج تدبر الشأن البشري والكوكبي، إلى إستراتيجية فكرية جديدة في إدارة الهويات والقضايا والدول والعلاقات بين البشر.

وفي هذا الكتاب، محاولة لقراءة المجريات، تشخيصاً ومعالجة، بأدوات الفكر التركيبي والمنطق التحويلي والعقل التداولي، وذلك في ما يتناوله من مشكلات الساعة والأحداث الساخنة، على وقع التحوّلات التي تعيد تشكيل العالم بمفاهيمه ومحرّكاتِه وكتله وأدواته واللاعبين على مسرحِه بمحاورهم وحروبهم وتواطئهم.





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com
ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

منشورات الا...
...s El-Ikhtilef
هاتف: ...676179
149 شارع حسيب...
الجزائر العاصمة
...htilef@gmail.com

ISBN 978-9953-87-377-0
9 789953 873770

تصميم الغلاف: سامح خلف